ثلاث عشرة ليلة..
وليلة!

ثلاث عشرة ليلة.. وليلة!

رواية

سعد سعيد

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1434 هـ – 2013 م

ردمك 978-614-01-0926-1

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة – الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213+

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

editions.difaf@gmail.com

هاتف الرياض: 96650933772+

هاتف بيروت: 9613223227+

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

الإهداء:

إلى أولادي..

زيد

أحمد

فيد

تشردي إطروحة

تكتبها خطاي على الدروب،

بينما غيابكِ أعمى

يقرأ بالعصا أيامي ...

...

سلمان داود محمد

شاعر عراقي

السكون، صفة طاغية في الليل لا يـــدرك أهميتـــها النـــائمون، ولكنها للساهرين نعمة.. أو نقمة.. سكون الليل يثير صبابة المحـــب، وحزن المهجور.. يبعث على رضـــا المهتـــدي، ونـــدم الضـــال إن ارعوى.. في سكون الليل تجود قريحة الشاعر بالصور وتتوالد الأفكار في ذهن الكاتب.. في سكون الليل ينتصر المنطق أو يطغى الجنـــون، وفيه تتجسد الآلام ويعيش الانسان رؤاه وكأنها حقيقة عندما يجـــد نفسه وحيداً إزاءها، لا صديق يخفف عنه وحدته، فيعينه بذلك على التشاغل عنها، ولا حبيب يطغى عليها بوجوده، فتتلاشى.

في الليل، لا وجود للمشاعر المتناقضة التي تلهي الانسان عمّـــا يعاني منه أو يتمتع به، فالليل صديق الذاكرة ومحفّزها، فإما أن يكون رحيماً صديقاً، أو ظالماً عدواً.. ولكن سواء أكـــان هـــذا أم ذاك، فساعاته طويلة دائما ولذلك هي تصلح للبوح عندما يكون الحبيـــب الغائب ملء ذاكرة الساهر، ومعه رفيق.. هذه ليالٍ تهيأ فيها مســـتمع لإنسان مضطرم المشاعر، فباح له بقصة حياته..

الليلة الأولى

أنا آسف يا سيدي، ولكنك بدوت وكأنك تعرفني، حتى إنك قلت (أنت) عندما رأيتني.. يبدو أنك توهمتني شخصا آخر، أنا يسار محمد محمود كما تعرف، وحضرتك؟.. آه اسمك مدون هنا.. لنرى.. العقيد عباس محمود زكي.. لا يا سيدي، فهذا الاسم لم يمر بي من قبل، كما أني على يقين من أنني لم أرَ وجهكم الكريم قبل اليوم... على كل، شكرا جزيلا لك سيادة العقيد، لقد غمرتني بفضلك لأنك سمحت لي أن أبات معك هنا، بدلا من أن اكون في النظارة.. بكل تأكيد أنا سعيد الحظ لأنك تبات هنا يوميا حتى تستحق إجازتك الدورية لتذهب إلى أهلك البعيدين، ولكني بالحقيقة لا أهتم إن بقيت هناك في النظارة، فقد تقبلني النزلاء بينهم بنحو جيد، وخاصة بعد أن عرفوا أني مواطن سويدي.. لا، بل نعم، أنا سويدي الجنسية الآن، ولكني عراقي حد النخاع.. ما عليك من الجنسية، فهي لا تعني لي شيئا، أنا ولدت عراقيا، وأحببت عراقيتي، وسأبقى كذلك حتى لو حصلت على جنسيات العالم كلها.. ولكن الحق يقال، سأشعر براحة أكبر هنا.

آه، ذلك الرجل.. حمدا لله أنه لم يمت، ولكنه في المستشفى بسبب فكه المكسور كما سمعت.. أتدري؟.. لم أعرف أني أمتلك مثل هذه القوة بقبضتي.. يبدو أن الغضب هو الذي فعل فعلته.. أردت الدفاع عن نفسي بعدما هاجمني، أكان يجب عليّ أن أتقبل

ضرباته، لكي أجعل دفاعي عن نفسي، شرعيا.. وما هي إلا لكمة واحدة، من أين لي أن أتوقع أنها ستكون القاضية.. أنا على يقين من أنك ستتصرف كما تصرفت أنا بالضبط لو وجدت نفسك في مكاني.. وعلى كل حال، لِمَ هو باقٍ في المستشفى، أسيخضع لعملية تبديل فك، أم أن ذلك الفك المكسور سيهدد حياته، أم أن النظام الصحي في بلدنا جعل من مستشفياتنا مؤسسات علاج ونقاهة.. أليس الأمر واضحا، ولكن لا.. أنا آسف سيدي، لن أعتذر منه، وليفعل ما يريد، لم يعد الأمر يهمني.. لا لن أعتذر، فهو يمثل لي كل ما أكرهه في الآخرين.. سخيف، متعال، عديم الاحساس، لئيم.. كولده، وفوق هذا كله، هو جبان.. أقسمٍ لك يا سيدي أنه عندما وقع على الأرض، لم يغب عن الوعي، بل كان صاحيا، صاحيا جدا، ورغم ذلك كان ينادي مستغيثا كالأطفال، وأنا أقف متأهبا لنيل عقابي الذي توهمته بعد أن فعلت به ما فعلت، فهو أضخم مني بكثير وبإمكانه أن يزدردني، لا أن يضربني فقط، ولكنه فضل أن يبقى منبطحا على الأرض لكي لا يواجه.. نعم، لقد كنت مصمما على الدفاع عن نفسي، ولكن لا بأس بتلقي بضعة لكمات دفاعا عن موقفي الذي أصررت عليه، اضطررت لوقوف ذلك الموقف، إذ لم تَرُقْ لي فكرة أن أترك ذلك الصغير البريء ليتلقى عقابا لا يستحقه، لوحده.. كان ضعيفا، فهل يجدر بي أن أتركه لوحده.. لا يا سيدي، لقد طال زمان سكوتنا على الظالم، ولذلك اشتد علينا الظلم، أتعرف ما أبرز عيوبنا؟.. إنّها اللامبالاة، تترى الأخطاء أمام أعيننا، ونحن نقول، ما همنا ما دام الأمر لا يعنينا، او في الأقل، لا يؤذينا نحن.. والأخطاء تتراكم، وتتراكم، حتى خنقتنا وعمّت دنيانا، وها قد أحالت حياتنا، ظلاما.. لا لم يكن لي أن أترك الصبي

وحيدا، مثلما كنا أنا وأنت وهم، عشنا كــلّ لوحــده، ولــذلك استفحل الظلم بنا.. لا، أنا لا أريد أن أُبريء نفسي من الأخطــاء، فقد اقترفت الكثير منها، لكني كنت وحيدا مع ذلــك.. لم أشــأ أن أترك الطفل وحيدا لأن هذا ما يجدر بــي أن أفعله في تلك اللحظة، وحاولت أن أوضح الأمر لهم.. هذا كل ما حاولته.. أن اشرح الأمر لهم، أن أوضح إن المسكين كان يدافع عن نفسه فقط.. أفلا يحق لــه ذلك؟.. ولكن ذلك الحيوان لم يفهم.. بل لم يشأ أن يفهم، فقد كان مشغولا بساديته وتمتعه بمظاهر تمكنه من الآخرين.. أتعــرف، أنــا تعاطفت مع الصبــي كثيرا، من دون شك، ولكــن الــذي أثــار غضبــي حقا في تلك اللحظات، هي النظرة التي لمحتها في عيني أبيــه وهو يردد بصره بيني وبين ذلك المخلوق.. كانت نظرة اســتعطاف، استرحام.. بدا مهموما لأنه مضطر لضرب ولده وإنــزال العقــاب به.. وعندما قلت ما قلته لهم، بدا أن الأمل قد راوده في أن يتخلص من ذلك الموقف القاسي على قلبه، ولكن ذلك الجلف الســادي لم يشأ أن يسمع.. لم يشأ أن يفهم، فأصرّ على موقفه، والأنكى مــن ذلك، أنه حاول مهاجمتي لمجرد أني قلت الحقيقة. لقد آن لي يا سيدي أن اقف موقفا صحيحا في حياتي.. نعم، لقد تأخرت في ذلك كثيرا، كما كان شأني دائما، ولكن أن نقف مثــل هــذا الموقــف، ولــو متأخرين، لأفضل ألف مرة من أن لا نقفه أبدا.

نعم، ولكن ما همني إن لم يفهم الآخرون موقفي.. أنا أفهم.. أنا أعرف لِمَ وقفته.. لا يا سيدي لن أعتذر منه أبدا، وليحدث ما يمكن أن يحدث.. وعلى كل حال.. لم يعد الأمر يهم الآن، بعد أن فقدت كل شيء، وفقدت، الرغبة في الاستمرار، وتلك مشكلة أخرى، لأن الصحيح هو أن أقف الموقف الذي يجدر بــي أن أقفه عندما كانت

الأمور هم، أما الآن، فلم يعد له معنى هو الآخر، ومع ذلـــك، لـــن أتراجع هذه المرة.. هو لم يمت، وهذا كاف له، أما الإعتذار، فـــلا، وألف لا.. أرجوك سيدي، لقد أحببتك كثيرا منذ رأيتك، ولا يهون عليّ أن أرفض لك طلبا، ولكن هذا الطلب، لا.. هذا صعب جـــدا، فأرجوك، لا تحرجني.. أنا أعرف أنك تريد مصلحتي، ولكن أرجوك اتركني هذه المرة لأهتم بمسألة احترامي لنفسي الذي فقدته منذ زمن طويل، فهذا أمر مهم أيضا.. لقد تعبت.. تعبت كـــثيرا، وأريـــد أن أولي أمر احترام نفسي، إهتماما أكبر، وهذا الإحترام يحتم عليَّ أن لا أعتذر لرجل لا أحترمه.. لا أحبه.. رجل على خطـــأ، بـــل ملـــيء بالأخطاء.. حتى إذا كنت أنا من كسر له فكه.. أرجوك.. أرجوك، لا تحرجني، لقد اتخذت قراري وانتهيت من الأمر.

في هذا نعم، أوافقك الرأي.. أنا استطيع ان أكلمك عن كـــل الأسباب التي جعلتني هكذا، أن اقص عليك قصتي، فـــنحن نمتلـــك الوقت لهذا لأنه سيبقى طويلا في المستشفى كما هو واضـــح، ولـــن يتنازل عن شكواه ضدي ما دمت لن أعتذر له.. وهذا يمنحنا وقتـــا كافيا، إن أردتَ ذلك طبعا.

ما أكرمك يا سيدي.. أنا بالفعل أحتاج إلى من يصـــغي لي.. أن أخفف عن نفسي.. أن أتطهر.. ويمكنك بعدها الحكـــم علـــى سلامة عقلي التي يبدو أنك بدأت تشك بها بعد اصـــراري علـــى موقفي، الغريب، بالنسبة لك، طبعا.. أنا.. أنا أستطيع أن ألخـــص لك قصتي بكلمة واحدة.. الحب.. أقصد، الإخفاق في الحب، هـــو كل قصتي.. لا ليس الافتقاد للحب، بل الإخفاق فيه.. أوه، يبـــدو أني سأحتاج وقتا طويلا حتى أفهمك معنى هذا، ولكني آمـــل أن لا أثير مللك.. شكراً

في يوم زاهٍ، كانت هي.. أقسم لك، ومن دون أية مبالغة، كان زاهيا بكل ما يعنيه الزهاء من معنى.. أنا لا أتقن لغة الشعر والمشاعر، أنا فقط أحدثك عمّا شعرت به في ذلك اليوم الجميل.. يا لله! أيعقل أنه قد مضى عليه أكثر من ثلاثين عاما.. في ذلك اليوم الذي نُقِشَ في ذاكرتي إلى الأبد، إستيقظت مبكرا على غير عادتي، ولأني استيقظت، قررت أن أذهب مبكرا إلى الجامعة، فكان ذلك اليوم هو أول يـــوم أحضر فيه المحاضرة الأولى منذ بدء الدوام.. ولكني خلال المحاضـــرة الثانية شعرت بملل وكدت أندم لأني استيقظت مبكرا، مـــا الـــذي فكرت به.. أنا يسار محمد محمود أستيقظ مبكرا.. تحججت بعـــذر سخيف، وغادرت قاعة الدرس، لماذا؟.. لا أعرف، هكذا فقط لأني أردت أن أغادر.. بعد دقائق قضيتها في الحدائق الداخلية للجامعـــة، قررت العودة إلى القسم الداخلي، لأنام، ولكني ما أن تحركت لأنفذ قراري، حتى رأيتها.. الله يا أستاذ، كانت لحظة لا تنسى.. صعقت.. نعم صعقت، فجمدت في مكاني.. كانت تسير مع زميلة لها.. نسيت الندم.. نسيت الملل.. نسيت النعاس.. رحت أنظر إليها كالمسحور.. منذ الوهلة الأولى أدركت أنها أحلى من (فاتن) وهـــذا أمـــر لـــيس بالقليل بالنسبة لي.. لا، لا تهتم لمن تكون (فاتن) فهذا ليس مهمـــا، ولكني لم أر، قبل أن التقي بها، من هي أحلى مـــن (فـــاتن) غـــير الممثلات في السينما.. تلك الفتاة الجميلـــة.. الرائعـــة.. الرقيقـــة.. المتألقة.. الواعية.. كيف أصفها لك.. لا لن أفعل.. بـــل ســـأفعل.. ولكن كيف.. حسنا.. شعرها، حين رأيت سواده من بعيد عرفـــت أنه مصبوغ، ولكن حين اقتربت ولاحظت خلو وجهها من المساحيق قلت لنفسي يمكن أن لا يكون صبغا، أما حين لمحت سواد عينيها فقد أيقنت أن ذلك السواد الفاحم طبيعيا، إذ لا يعقـــل أن تكـــون قـــد

صبغت عينيها أيضا.. بدت عيناها كأهَا تبتسم لفرط رضاها، عيون واسعات تآمرت مع ابتسامة لاذت بشفاه قانيات لبث الاضطراب في نفوس عاشقي الجمال، يا لها من شفاه!.. مكتنزات تستظل بأنف دقيق، صغير متناسق مع وجهها الجميل، أنف عجبت لوجوده بين تلك الأنوف الكبيرة والمعقوفة والمفلطحة من حوله، تجمعت فيها مواصفات مذهلة، فأسرتني فورا، وجعلتني متيما بوجه قمري تفيض حمرة خدوده، جمالا أخاذا على ابيضاضه.. كلا، لن استمر في وصفها، فهي تعز على الوصف، بالنسبة لي، ولكني أعجب لحكمة إله قضى أن يخلق أنثى، فيقترب بها من الكمال، خلقا، في الوقت الذي يحرم الكثيرات غيرها من النعم التي أنعم بها عليها.. أبمجرد أن يغير قدري عندما أراها.. لا أعرف، ولكنها كانت كاملة الأوصاف في نظري.. بل كانت ملاكا.. ملاك بغدادي.. عندما اقتربت منها وهي تسير، توهمت أهَا نظرت لي لثانية.. بل لجزء من الثانية.. ولكن نظرهَا تجاوزتني، بل إخترقتني وكأن الصدفة وحدها جعلتني في مسار نظراهَا الممتدة إلى شيء ما ورائي.. إخترقتني، ولكنها تركت في الوجدان، طعم العشق.. نعم يا استاذ العشق.. يا للسخرية، أصل بغداد وكلي أمل أن أحقَّ الحق ما استطعت، وأن أناضل من أجل الطبقات الكادحة التي أقسمت على الدفاع عن مصالحها ثم اسقط في أول فخ نصبه لي ملاك بورجوازي بغدادي!.

في ذلك اليوم، بقيت أتبعها كظلها حتى دخلت القاعة الدراسية التي تقصدها.. كانت في قسم الإحصاء، فهرعت إلى صديقي الجديد، فارس، الذي كنت قد تعرفت عليه قبل أيام في القسم الداخلي، طالب بغدادي كان في زيارة صديق مشترك، عرفت منه أنه في قسم الاحصاء، فأخبرته بما حدث لي في ذلك اليوم.. من دون

ذكر لمسألة إختراق النظر تلك، طبعا.. أبدى استعداده فورا للمساعدة، فبدأنا التجوال في بناية الكلية حتى رأيتها، مع دقات قلبي التي تزايدت، اشرت إليها، عندها، تغيرت معالم وجهه الذي ظهر الغضب عليه جليا وصاح:

- إلا هذه.

فاجأني التغير الذي بدا عليه، فإرتبكت وأنا أنظر في وجهه ببلاهة.. لاحظ هو ذلك، فقال بعد وقت قصير بنبرات صوت أهدأ:

- لا سبيل لك إليها.. مستحيل.. هذه مستحيلة.

فحاولت أن أسأله عن اسمها، ولكنه أبى أن يجيبني.. في حينها، لم أعرف كيف يمكن أنْ أتصرف، فابتعدت عنه من دون استفسار آخر.. ظننت أني قد اقترفت خطأ كبيرا.. فقد يكون قريباً لها، أو من يدري، لعله يحبها.. أو هو حبيبها بالفعل.. أو، أو.. لكن المهم في موقفه أنه نبهني إلى الورطة التي كنت أريد أن اقحم نفسي بها إذ لا يعقل أن تتجاوز مثل هذه الحورية كل شباب بغداد الحلوين وآتي أنا.. (المحافظات).. (لأخمطها) من بينهم.. ومع ذلك فقد عرفت فيما بعد أن الباعث على موقف فارس ذاك، لم يكن غير الغيرة والحسد.

في حينها، لم أعرف من أين هي، ومن السخرية أني لم أعرف ذلك إلا بعد ثلاثين عاماً، ولكني كنت في حينها أؤمن بأنها من بغداد.. كانت بغدادية، وأنا على يقين من ذلك.. لقد عرفتها من هيأتها.. من أناقتها.. من طريقتها في انتقاء ملابسها، رغم أني لم أرها يوما مرتدية غير الأبيض والرصاصي، ويضاف إليهما الأزرق في أيام الشتاء.. ولكن مظهرها كان ينبيء عن منبتها، وأقسم أنها من بغداد.. هكذا، لمجرد أني رأيتها في ذلك اليوم، أيقنت من ذلك..

و لم أسألها يوما عن الأمر، لكي لا تخيب ظني.. في تلك الأيـــام، لم أكن محروما من نعمة النساء، بل كنت في الحقيقة قبلة لأنظار الكثير من الطالبات، سواء في قسمي أو في الأقسام الأخرى، بل حـــتى في الجامعة كلها، لم يكن ينقصني إهتمام الفتيات بـــــي وبشـــكلي، ولكني لم أكن لأستجيب بسهولة.. كنت أريد، ولكني لا استطيع.. بل أني رفضت يوما مرافقة سهاد، زميلتي، إلى شارع النهر، بعـــدما دعتني إلى ذلك، بحجة إستبدال حذاء كانت قد اشترته من هنـــاك، ولكني أعرف أنها كانت ترمي إلى أكثر مـــن ذلـــك، فرفضـــت.. أتعرف لِمَ رفضتُ؟.. لأني كنت مشغول البال، وبـــي لهفة لإنتهاء الدوام، لأسارع إلى المقهى حيث مباراة الدومينو التي اتفقنا عليهـــا أنا وصحبـــي.. لا، لا أريد أن أصور لك نفسي وكأنني لم أكـــن أهتم بالنساء، بل أنا اهتم، وأهتم بشدة، ولكني تعودت في حينـــها على نساء المواخير، فالتعامل معهن كان أسهل.. خدمة مقابل مبلغ من المال، وكل يذهب في حال سبيله.. أشعر بالغثيان الآن، عندما أفكر بتلك الفرش القذرة الممدودة في غرف بائسة وخاوية.. بـــل أشعر بالاشمئزاز من نفسي في كل مرة أنتهي فيها من اقتراف ذلك الفعل الشائن.. ولكني كنت أعود دائما لافتقادي للمتنفس لكبتي.. العاهرات كنّ سلوتي.. نعم، كانت هنـــاك فتيـــات مســـتعدات، ولكنهن لسن بغداديات.. وأنا مشغول البال ببنات بغداد، فهن من يخلبن لبـــي ويسرقن قلبـــي، و لم يكن ذنب (ســـهاد) غـــير أنهـــا (محافظات) مثلي.. أنا أدرك الآن فداحة الخطأ في طريقة تفكـــيري حينذاك، ولكنها الحقيقة.. المهم، عندما رأيتها، أدركت فورا، أنها غاية المنى.. فسحرتني و لم أعد أستطيع أن أبعدها عن تفكـــيري، أو عن ناظري، عندما تكون حاضرة.

طوال أسبوعين وأكثر، غبت عن الدوام رغم حضوري جسديا في الجامعة.. غبت عن الدوام، بل غبت عن الدنيا، ورحت أداوم في حلم اللقاء بها.. كنت لا أكلّ عن تتبع خطواتها، ومحاولة أن أفتعل الفرص لكي أظهر أمامها، عسى أن تنتبه إلي، ولكن هيهات، فأنا لم أكن موجودا بالنسبة لها، مشطوبا عليّ، ووجهي ظلَّ عاجزا عن اقتناص نظراتها، الممتدة عبره.. لاحظت في أثناء تلك المدة أنها لم تكن تظهر إلا مع فتيات و لم أرها ولو لمرة واحدة تسير مع زميل لها، وكان هذا همٌّ آخر يثقل عليَّ.. إن لم تعر شباب بغداد إنتباها، فما فرصتي معها، لذلك جزعت في الأسبوع الثالث، خاصة مع مزاح أصحابي الثقيل الذي بدأ يثقل عليَّ، ويزعجني.. فقد جعلوني مادة لسخريتهم بعدما عرفوا بغيتي وتعرفوا على نيتي.. لم يصدقوا أن جلفا مثلي يشاركهم تفاهاتهم وضياعاتهم، يمكن أن يكسب ود ملاك بغدادي مثلها.. بدأت نداءات (ها محافظات) التي يبادرونني بها كلما التقينا، تثير أعصابي، ولكي أتخلص من كل ذلك، قررت أن أتوقف عن جنوني.. جزعت، فتنازلت عن حلمي الذي بدا مستحيلا.. فانقطعت عن الجامعة لثلاثة أيام قضيتها في بلدتي، مع أهلي، ثم عدت لأكون نفسي من جديد.. ولكن، آه من القدر، كيف يتدخل دوما، ليجهض خططنا، أو يؤثر على قراراتنا.

أخيرا، قررت الجامعة، وبعد مرور أشهر على بدء الـــدوام، أن تقيم لنا، نحن طلبة المرحلة الأولى، حفل التعارف التقليدي.. الذي لا نتعرف فيه على أحد.. تقرر أن يكون في القاعة الرئيسية للجامعـــة، فذهب طلبة القسم وطالباته جميعا إلى هناك، ماعداي، لأني تـــأخرت بسبب مهمة ما، على أن ألتحق بهم هناك.. أنهيت المهمة وأســـرعت إلى القاعة، وعندما دخلت، حدث ما لم يكن متوقعا، فقـــد صـــاح باسمي أحد ما، بصوت عالٍ، فالتفتت جميع العيـــون الموجـــودة في القاعة، وهي كثيرة جدا، لتحدّق بـــي.. كدت أجمد في مكاني مـــن هول المفاجأة، ولكن حرجي من أن يبدو ارتباكي واضحا أمام تلك العيون، جعلني أبذل جهدا هائلا لأستمر في المسير متصنعا الهـــدوء، وأنا ألعن معناً، الذي تبين لي أنه كان من صاح، في سري.. معـــن، زميلي الذي لا يستطيع أن يعيش من دون قائد! نعم، فهـــذا حـــال البعض من أفراد مجتمعنا، هم يشعرون في أعماقهم أنهم لا يستطيعون أن يواجهوا المجتمع بمفردهم، ولذلك يسارعون إلى الإنضواء تحـــت لواء أية شخصية قوية تواجههم.. فكان نصيبـــي أن يسارع معـــن هذا إلى أن يعيّن نفسه، وزيرا لي، وداعية، في الوقت الـــذي كنـــت أجاهد فيه النفس، لكي لا أرضخ للضعف الذي توطن فيها بســـبب خجل مرضي ورثته من طفولتي، ويجعل من التجمعات البشرية محيطا غير ملائم بالنسبة لي.. صاح معن عندما دخلت "ها قد أتى يســـار" معقبا صيحته بتصفيق سرعان ما استجاب له طلبة القسم وطالباتـــه الرازحين في وقتها تحت وطأة المرحلة الانتقالية من قيـــود المجتمـــع، وانفتاح الحياة الجامعية، فشاركوه بانفعالاتهم الفجة ليجعلوني قبلـــة أنظار العشرات، بل المئات من الطلبة المحتشـــدين في تلـــك القاعـــة الكبيرة.. أنا الذي تعودت الهروب من الأنظار في كل مكان جديـــد

أدخله، يجب أن أواجه وحيدا جميــع تلــك النظــرات المحتشــدة بالتساؤلات والإستغراب.. كان ارتقاء الــدرجات الأولى في تلــك القاعة المدرجة، بهدوء، أمرا بالغ الصــعوبة، ولكــن بعــد تلــك الدرجات، بدأ الأمر يستهويني بالتدريج، فالعيون، معظــم العيــون كانت معلقة بــي أنا، فما العيب في التمتع ببعض المجد المؤقت، وإن كان زائفا.. مع كل درجة كنت أصعدها، كانت ثقتي بنفسي تزداد مع تسرب المزيد من الشعور بالخفة والارتياح إليها، وعندما وصلت إلى حيث كان يجلس زملائي، شعرت وكأن يسارا آخرَ قد احتــل دواخلي واستلم القيادة.. ألقيت تحية مختال على رعــيتي، فقــابلتني بالمزيد من التصفيق والهتاف.. كان (سانشو بانــزا) قد حجــز لي مقعدا يتوسط طلاب القسم بالضبط ورفض أن يشغله أحد غــيري، فكان لا بد من أن أتجاوز غابة من السيقان قبل أن أصل إليه.. وأنــا أجلس، ألقيت نظرة خاطفة لأرى من يجلس خلفي، كما تعودت أن أفعل في دور السينما.. رباه يا أستاذ، أقسم بأن شعر جسدي اقشعر في هذه اللحظة، لأني تذكرت.. أتصدق؟.. أتستطيع أن تتصــور أن الذي كان يجلس خلف المقعد المخصص لي بالضبط، فتــاة.. وايــة فتاة.. كانت هي.. هي من دون طالبات الجامعة المستنصرية كلــها، وما كان أكثرهن.. هي كانت تجلس خلفي بالضبط، بين مجموعــة من الطالبات.. جمدت في مكاني للحظات، فقد تلاقت نظرتانا لثانية، أو لجزء منها، ولكن نظرتها هذه المرة لم تخترقني، بل توقفــت عنــد وجهي، واشتبكت مع نظرتي.. زايلني حينها الخيلاء، وتسربت مــني الثقة الزائفة، شعرت بوهن في ساقي، فجلست بلا وعي مــني وأنــا أرتجف.. لِمَ يتصرف معنا القدر هكذا أحيانا.. أبعد أن قــررت أن أنساها، يهيء لي هذه الفرصة.. لِمَ.. ما الذي يريده مني؟.. بل مــا

الذي كان يبيته لي؟.. المهم، ورغم كل شيء، في تلك اللحظات أحببت معناً كثيراً، وظلّ صديقاً لي إلى النهاية.. حاولت بعد ذلك كثيرا أن أقيم علاقة متوازنة معه، ولكنه أبى إلا أن يكون تابعا لأبأس قائد يمكن أن ينتقيه.. أنا!

جلست مشتت الذهن، عاجزا عن التركيز.. كيف حدث هذا، ولماذا.. لم أستطع أن أجيب.. ماذا أفعل.. لم أستطع أن أجيب أيضا.. ولكن يجب أن أتصرف بطريقة ما.. هذه فرصة يجب أن أستغلها.. كيف، لم أعرف، ولكن، يجب.. بقيت لدقائق لا أستطيع أن أستقر على رأي، كنت خلالها مسمرا في مكاني وأنا أعاني من رغبة شديدة في الإلتفات لأنعم برؤية محياها الجميل، ولكني كنت أعرف أن هذا مستحيل، لأنها ستكون النهاية إذا ما صدق حدسي وظهر أنها ليست من النوع الذي يمكن أن يروق له مثل هذا التصرف الصبياني.. حسنا لأهدأ، هكذا خاطبت نفسي أو، لأحاول أن أهدأ.. بذلت جهدا لأستعيد تركيزي، حتى إني شعرت بانزعاج من صديقي، الذي كنت قد أحببته لتوي، لأنه كان مصرا على توجيه الحديث لي، وغمري باسئلة تافهة لم أملك إزاءها إلا تحريك رأسي و لم أعرف كم تطابقت هزات رأسي المختلفة مع الإجابات المطلوبة.. في ذلك اليوم، أدركت مدى صعوبة توجيه حاستين مختلفتين، نحو هدفين في آن واحد، فقد كنت أتابع بنظري ما يحدث على المسرح، فيما كانت أذنيّ تترصد كل صوت يمكن أن يصدر عنها.. صوت، ولكن كيف لي أن أميز صوتها وأنا لم أسمعه بعد.. كان هذا هماً آخر.. أن أميز صوتها، ولذلك حين أدركت إستحالة أن أرى ما أمامي وأن أسمع ما خلفي في آن واحد، فضلت أن أغمض عيني.. نعم، أغمضت عيني، ورحت أركز كل طاقاتي في

أذني.. وبالتدريج بدأت أسمع أصواتهن التي كادت أن تكون همسا.. يا لهديل الحمام.. ركزت، وركزت، فالتقطت اسم (باسمة).. آه، اسمها باسمة إذاً.. والله اسم يليق بها.. باسمة.. حبيبتي.. ولكن فرحتي بمعرفة اسمها، لم تدم طويلا، فقد طرق سمعي بعدها، اسم ماجدة.. ثم وصال.. والآن سهى.. وفريال هذه من أين ظهرت.. يا لهذه الحيرة.. يا لخيبة الأمل.. لا، يجب أن اركز أكثر لأستطيع أن أميز صوتها من بينهن، فعندها فقط أستطيع أن أحدد اسمها من بين زحمة الأسماء هذه.. ولكن كيف أميز صوتها.. ألست أحبها.. ألا يجب أن يعينني هذا.. ولكن ما من معين.. انقطعت نهائيا عن التطلع إلى الأمام بالاستمرار في إغماض عيني من دون اهتمام بمن يمكن أن يراني على تلك الحالة.. وضعت روحي في أذنيّ.. كن يتحدثن عن دروس ومحاضرات.. عندها فقط تذكرت، أنا أعرف أنها في السنة الثانية بقسم الإحصاء، فما الذي أتى بها إلى القاعة.. أليس هذا حفلا لطلبة السنة الأولى.. ماذا يعني هذا يا رب.. أهي رسالة لي.. أهي إشارة ما.. ركزت أكثر وأكثر، وبعد وقت طويل من المحاولات المضنية عرفت أنهن ثلاث فقط، هي واثنتان من صديقاتها.. كن زها ووصال وفريال، ولكن أيهن هي، لم أعرف.. على كل حال، كان ذلك مكسبا لي في كل الأحوال، فاحتمال من ثلاثة أفضل من ما لانهاية له من الإحتمالات.. هو نصر إذاً.. زها.. ياله من اسم.. زها.. أيعقل أن تحبني فتاة هذا اسمها.. زها.. يا لزهوي وفخري إذا ما حدث ذلك.. زها، ومن بغداد.. غاية المنى.. ولكن من يؤكد لي لحظتها أنها زها.. على كل حال، فالإسمان الآخران جميلان أيضا.. بهذه السخافة والقدرة على إجترار التفاهات كنت أفكر يا أستاذ.. هكذا كانت تداعيات تفكيري تجري في ذلك اليوم الذي سأكذب لو قلت إنه لم

يكن واحدا من أفضل أيام حياتي قبل أن.. قبل أن.. المهم.. مرّ الحفل عليّ مرور الكرام، وعندما نهضت لأتهيأ للخروج، شعرت بالغثيان لأني لم أعرف كيف استدير باتجاهها، فقط لأرى وجهها ولو لثانية واحدة.. كانت قد أصبحت بجانبي عبر الكراسي الممتدة، بيننا بعدما انتظمنا في الصفوف المتهيئة للخروج.. متر واحد، أو أقل، يفصلني عنها.. يجب أن أراها.. يجب أن أتطلع في وجهها، ولكني لم أجرؤ، فقد خشيت أن أثير استهجانها بحركتي تلك، ولكني لم أجد بدّاً من المبادرة.. كنت أعرف أني لن أستطيع مقاومة تلك الرغبة الجارفة.. عندما اِلتفت معن ليحدثني، تبادرت إلى ذهني الفكرة.. سألته من دون سابق إنذار، وبصوت مسموع من قبلها كما قدرت:

- أين الباقون؟

لم أهتم لسؤاله، وتجاهلت علامات الإستغراب التي بدت على وجهه وهو ينقل نظره بيني وبين الباقين من خلفي، لأني اقرنت تساؤلي بالالتفات نحوها وكأني كنت أبحث عن أحد.. طالعني جانب وجهها الجميل، لم أرَ عيونها الباسمة، بل لمحت نظرة جانبية سريعة منها، صافحت نظرتي العطشى.. كانت لي.. أنا.. كانت نظرة خاطفة، ولكنها تكفيني.. أو هكذا ظننت، حتى أرى ما سيكون من شأننا في الغد.. عندما أراها مرة ثانية.

في تلك الليلة، لم أنم ولو لحظة واحدة، والسهر يا أستاذ في القسم الداخلي مؤلم جدا، لأن حرمانك من النوم الذي يتمتع به كل من حولك، وأمام عينك، مضنٍ.. كانوا جميعا نائمين، فبتُّ أدور وأدور.. أذرع الممرات وأزور الغرف.. أصل إلى الباب الخارجي المغلق، أعجز عن فتحه، فأرجع لأدور بين الأسرة، استمع إلى نغمات

شخير مختلفة.. سيمفونية من نشاز، فيزداد قرفي، وتزداد مشاعري اضطرابا.. أهرب، ولكن إلى أين، فثمة شخير في كل مكان.. حتى الحمّام لذت به، ولكن ما من جدوى.. كتب عليَّ أن اعاني ساعات تلك الليلة جميعها، حتى انبلج الفجر.. حينما بدأ الطلاب المتدينون بالاستيقاظ لأداء الصلاة، تبدل مزاجي قليلا وهدأت، فمر الوقت اعتياديا حتى قررت أن أذهب إلى الجامعة مبكرا، ومن دون أن أتناول فطوري. قبل بدء الدوام بأكثر من نصف ساعة، كنت واقفا أمام باب الجامعة الرئيس، أنتظر.. مضى الوقت بطيئا جدا، وخطتي في أن أراها مرة ثانية قبل الدوام، تحبط تدريجيا.. لم تظهر، فانتابتني الحيرة.. ما الذي حدث، أيمكن أن تكون قد سبقتني في الوصول، أم أنها سلكت الباب الخلفي للجامعة.. لم استطع أن أستقر على تفسير، أو أن أذهب لأتأكد من وجودها، خشية أن تحبط خطتي نهائيا.. ولكن هذا ما حدث، فذهبت إلى نادي الجامعة لأتناول فطوري المستعجل، لأن الدوام كان قد بدأ ولا مجال لرؤيتها متسكعة بعد بدء المحاضرات.. فتسكعت أنا بعد الفطور لمدة شعرت بها طويلة جدا، حتى تحين ساعة الكلية الحرة التي تكون يوميا بعد المحاضرة الثانية، وقبل أن تحين بقليل، كنت قد أخذت موقعي أمام باب القاعة التي رأيتها تدخلها في أول مرة تبعتها.. حانت اللحظة، فبدأت اتابع الوجوه التي تغادر، ولكني شعرت أنها غريبة لم تمر بي من قبل.. لم أرها، ولم أر وجهي رفيقتيها.. ماذا حدث.. أين هي.. إقتربت من باب القاعة لأتأكد.. لم يكن ثمة أحد.. أين هي، صرخت روحي ملتاعة.. لم تكن موجودة في أي مكان، فعانيت من الإحباط حتى إنتهى الدوام، فرجعت خائبا، لأقضي بقية يومي مهموما، وأنا بالكاد أصبر حتى يأتي الغد.. أشفقت على نفسي من ملل المزيد من

الإنتظار، ولكن النوم كان له رأي آخر، فقد إجتاح النعاس، دفاعات يقظتي، مستعينا بالتعب الذي حل بـــي، حليفا له، نمت حتى قبـــل تناول طعام العشاء، و لم أستيقظ إلا فجر اليوم الذي تلا.. كان مـــن الطبيعي أن أبادر إلى الذهاب إلى الجامعة في ذلـــك اليـــوم، ولكـــن أصدقائي عندما دعوني للذهاب معهم، رفضت، فقد قررت فجأة أن لا أداوم! لا لأني إكتشفت فجأة أني لا أحبها.. معاذ الله، بـــل لأني خشيت من خيبة أمل أخرى، لم أكن مستعدا لها.. بقيت وحيـــدا في القسم الداخلي، أذرع الممرات وأنا لا أكاد أستقر على حال.. أعقد العزم على الذهاب، ثم أعدل.. أقنع نفسي بأن الأمس كـــان (أوف) قسمهم، وهذا أمر وارد، ولذلك لم أرها، ولكني أخشى الإحتمالات السيئة، فأقرر البقاء في القسم.. أخيرا، قررت نهائيـــا أن لا أذهـــب، فوجدت نفسي بعد ربع ساعة وأنا أغذُّ السير باتجاه الجامعة.

وصلت في أثناء الساعة الحرة، فوجدت الطلاب وقـــد ملـــؤوا ممرات وحدائق الكلية.. رحت أدور كالمسحور هناك، فأنا اعـــرف أنها لا يمكن أن تبتعد عن مباني الكلية.. أقسم أنه لم يكـــن في بـــالي حينها، غير وجهها الجميل، أبحث عنه بإصرار.. حتى رأيته.. ضربني شيء ما في معدتي، وتسارع نبضي.. شعرت وكأن درجة حـــرارة جسمي ترتفع باضطراد حتى أصبح وجهي مشعاعا.. آه يا اســـتاذ، لقد بذلت جهدا كبيرا للسيطرة على انفعالاتي، ثم اسرعت لفـــرض وجهي على ناظريها.. كنت أتوقع منها نظرة، نظرة فقـــط، بعـــدما حدث أمس الأول، كانت هي كل بغيتي.. ولكنـــها لم تـــرني.. لم تشعر بوجودي، بل لم تنظر باتجاهي أساسا.. حوّلت مكـــاني عـــدة مرات، ولكن النتيجة بقيت نفسها.. لا ردة فعل.. لم أجد نفسي في عينيها، بل لم أكن موجودا لديها.. ولكن ماذا عن تلـــك النظـــرة

الجانبية.. مرة أخرى، لا جواب.. حاولت، وحاولت، ولكـــن بـــلا جدوى.. هيا يا (محافظات) مالك تريد أن تهين نفســـك أكثـــر، ألم تفهم بعد.. ما تفكر به، وتأمله لا يمكن أن يكون، أين أنت منـــها.. إذاً.. هي الطبقية مرة أخرى.. مرة أخرى يثبت (ماركس) أنه كـــان على حق.. نعم هي طبقية (مكانية) في هذه الحالة.. طبقية (بلدات)، ولكنها طبقية على كل حال.. أنا، أتصور.. أتعرف يا ســـيدي أي يأس يجعل الإنسان يفكر بهذه الطريقـــة، أيـــة مـــرارة، أي شـــعور بالإحباط.

حملت خيبتي وهرعت إلى معن.. آه، أي صديق جميل كان معن هذا، فما أن قلت له:

- معن، أحتاجك.. هيّا معي.

حتى تناول محفظة أوراقه، وتبعني تاركا ما تبقى من محاضـــرات وهو الذي لم يفعل ذلك من قبل.. في سيارة الأجرة التي استقليناها، سألني أكثر من مرة:

- إلى أين نحن ذاهبان؟.

ولكنه لم يتلق جوابا مني، حتى توقفت السيارة في ساحة النصر، حيث ترجلنا، وسحبت معناً من يده باتجاه (بار) كنت أعرفه جيـــدا.. بان التردد عليه عندما عرف بنيتي، ولكن رقته منعته من الرفض، فقط اشترط عليَّ أن لا أجبره على الشرب.. عندما دخلنا، ظهر واضـــحا عليه أنه لم يرتح للأجواء هناك، ولكني كنت مشغولا بنفسي فلم أعـــر ذلك إهتماما.. لما جاءنا النادل، طلبت له زجاجة (بيبسي) فيما طلبت لنفسي زجاجتين من الجعة، ما أن أحضرتا، حتى بدأت الشرب بسرعة في محاولة لنسيان خيبتي المرة.. زجاجتان، أعقبتهما باثنتين، ثم اثنـــتين وأنا أعبّ وأعبّ، ومعن يحاول معرفة ما حل بـــي ولا يتلقـــى غـــير

كلمات مقتضبة من مثل (ضايج) و(مقهور) و(طاكّة روحي) من دون أن تضم أي منها، جملة مفيدة.. وأنا أقضي على محتوى الزجاجة السابعة، إنتبهت لعدد القناني التي بقيت على الطاولة لكي يحاسبني النادل على عددها.. سبع، وأنا الذي لم أتعدّ الثالثة يوما، فأعجبت بنفسي، فرغم الدوار الذي بدأت أشعر به، إلا أني واع لنفسي ولما يدور من حولي.. فهأنذا انتبه للزجاجات وأعدّهن، وهذا هو معن المسكين أمامي وهو يقاوم دعواتي الملحة لمشاركتي معاقرة الخمرة، وها هو نادل البار الذي ابتسم له كلما مر من أمامي.. إذاً أنا أمتلك المقدرة على مجاراة صحبي، رغم قلة خدمتي في هذا الميدان.. ولكن ما لرجولتي لم تزل تشكو الهوان.. عندها خطرت لي فكرة للإنتصار لرجولتي، المخصية.. قلت لمعن وأنا أغالب الخدر في لساني:

- أنذهب إلى الدورة؟.

رفع معن حاجبيه من الدهشة وقال:

- الدورة، وما نفعله في الدورة.

فقلت وأنا أجاهد لتكون كلماتي مفهومة:

- لقد اكتشفنا مؤخرا، بيتا للدعارة هناك، وفيه من النساء ما تشتهيه نفسك.

فصاح معن بصوت بدا فيه الاستنكار واضحا:

- ماخور.. إلا هذا.. أنا آسف يا يسار، أنا أحبك، ولكني لن اجاريك في هذا.

فتساءلت على الفور:

- ولكن، لماذا؟

فرد علي بنبرات حاسمة:

- هذا خط أحمر.

عندها كانت الفكرة قد اختمرت في بالي، فنهضت على الفور وأنا مصمم على اصطحابه إلى هناك مجبراً.. ولكني ما أن استقمت، حتى مادت بي الأرض، فاستندت إلى الطاولة أمامي وأنا أتساءل إن كان بإمكاني أن أقوم بذلك الفعل وأنا على هذه الحال.. نسيت رجولتي المفجوعة، وخشيت المزيد من خيبات الأمل في هذا اليوم البائس.. أنا أتذكر يا سيدي أني دفعت الحساب، وسرت وأنا أتمايل حتى باب البار.. ولكن ما حدث بعدها، أنا لا أذكر، رغم أن معناً كان قد ذكر لي في اليوم التالي الذي استيقظت به وأنا أعاني من ألم في الرأس وشعور ممض بالغثيان، بعض ما حدث بعد ذلك.. فقررت فورا أن أتوقف عن جنوني هذا.

زفر يوسف، فبدأ الغضب الذي انتابه، يتسرب من أنحاء نفسه أخيرا... ولكن الحزن المقيم، أبى أن يبارح أعماقه.. تطلع إلى منازل الزقاق الممتدة أمامه، فبدت له وكأنها تندب أيامها الحلوة التي مضت.. على قدر ما يسمح به ضوء المولدات الخافت، للنظر، لاحظ الحفر المبثوثة في الشوارع وهي تتنافس مع برك المياه الآسنة، لرسم صورة بائسة في ما بدا له، وكأنها مؤامرة عليه لبث المزيد من الحزن المؤلم في نفسه.. أبعد نظره عن الحفر والبرك ليصدم بمنظر تلك الحدائق المفجوعة بفراق جمالها الغابر... تنهد وقال مع نفسه:

- لا بأس، لم يزل عندي وقت، قبل أن يحين موعد منع التجوال.. لأسير في هذا الشارع حتى نهايته، عسى أن أهدأ قليلا، وأقرر.

بدأ يسير الهوينا كما تعود أن يفعل في الماضي، حين يعجب بشارع من شوارع بغداد، رغم مضي تلك السنوات كلها، وتغيّر الأحوال.. مال إلى جانب ليكون قريبا من أغصان الأشجار المطلة على الشارع، ولكنه لم يستطع أن يشعر بجمالها كما كان يفعل.

حين بلغ منتصف المسافة التي تباعد ما بين طرفي الشارع تقريبا، لاحظ وجود صبيين يلعبان رغم أن الظلمة كانت قد فرضت نفسها على المدينة منذ أكثر من ساعة، انتبه إليهما من بعد.. كان الأول بدينا ويكاد حجمه يبلغ ضعف حجم رفيقه الذي بدا له ضعيف البنية.. سمع البدين يقول:

- هيّا نلعب الكرة.

بدا صوته آمرا، فقال الآخر بصوت مهادن:

- هيّا.

ولكن البدين لم يخط أكثر من خطوة واحدة حتى قال بصـــوت بدا وكأنه يتعمد أن يكون متوعدا:

- ولكني سأكون أنا (ميسّي).

رد ضئيل الحجم:

- ولكنك في كل مرة تكون (ميسّي)، فلِمَ لا أكون أنا هــــذه المرة؟

فضحك البدين بصوت عالٍ، شعر به وكأنه يخرق حرمة الليل، وصاح:

- مَنْ.. أنت (ميسّي).. ولكن.. ولكنك لا يمكن أن تكون (ميسّي).

- ولِمَ لا يمكن أن أكون؟

فقال البدين وقد بان النـــزق وقلة الصبر في نبرات صوته:

- لأنك.. هكذا، لأنك لا يمكن أن تكون.

ثم سكت قليلا قبل أن يضيف:

- حسنا.. لأنك أضعف من أن تكون (ميسّي).

فقال الـــ (أضعف) بتردد واضح:

- وهل (ميسّي) سمين، لتكون أنت هو؟

فاحتدّ صوت الـــ (سمين) كثيرا، وهو يقول:

- من السمين أيها الغبـــي؟

لكن الصبـــي الآخر لم يجب، فقال البدين متابعا:

- هيّا، كفاك مشاغبة.. هيّا لنلعب.

فقال الآخر، بعد قليل من الصمت:

- ولكن، من أكون أنا.

فرد عليه البدين:

- أنت هو أنت، فلِمَ يجب أن تكون أحدا؟

فقال ذاك وقد بدت نبرة جديدة في صوته:

- لِمَ يجب أن أكون أنا هو أنا، وأنت (ميسّي).. لأكن أنا (رونالدو) إذاً.

فأغرق البدين في الضحك، قبل أن يقول:

- أنت.. أنت (رونالدو).. (رونالدو) يمتلك نقودا كثيرة، وأنت لا تمتلك شيئا، فكيف تكون (رونالدو).

لم يرد الآخر، ولم يستطع هو أن يرى تعابير وجهه في تلك اللحظات رغم إقترابه منهما.. شعر بتعاطف مع (رونالدو) المرفوض، فبدأ يبطيء خطواته وهو يسمع (ميسّي) البدين يقول:

- والآن كفى هذرا، وهيّا نلعب.

فقال الآخر على الفور:

- لا .. لن ألعب.

فصاح البدين بغضب:

- ولِمَ لا تلعب يا بن الكلب.

فبان الغضب لأول مرة في نبرات صوت الصبي الهزيل وهو يقول:

- لا داعي للسباب، فأنا لم أسبك.

فقال هذا بإصرار:

- و تجرؤ؟! سأسبك أيضا وأيضا يا بن الكلاب.

ثم اعقب قوله بهجوم مباغت جعل قلبه يثب خشية على المسكين الضئيل، الذي يبدو أنه كان متهيئا لمثل هذا الهجوم، فقد زاغ عن درب البدين.. لم يعرف هو إن الصبي الصغير قد تهيأ مسبقا، ام أنه كان مجرد رد فعل، عندما دفع بيديه البدين بعد أن

أصبح يواجه كتفه الأيسر.. تهاوى البدين ككتلة لحم على الأرض، فأسرع هو ليفك الاشتباك الذي توقع أنه لا بد حاصل بعد أن ينهض البدين الهائج، من سقطته.. كان شعوره بالخشية على ما قد يصيب هذا المتهور الضئيل هو الذي يحركه، ولكن السمين الناهض فاجأه ببكائه الذي سمعه وهو يهرع نحو البيت القريب.. كان بيتا قد أعيد بناؤه على وفق الطراز الذي بدا له غريبا عندما رأى بغداد بعد طول فراق، وكان يشي بثراء بانيه.. حينما دخل الصبي الباكي من باب دارهم، تحرك الآخر بسرعة وهو يتلفت إلى الخلف، حتى دخل من الباب الحديدي للدار التي تبدو وكأن جدرانها المتداعية ستسقط في أية لحظة، والمجاورة للدار الأخرى.. بقي هو في مكانه للحظات مبهوتا، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة بعدما أذهله الحدث الذي دار أمامه للتو.. شعر بسعادة، لما فعله الصبي الصغير، خارقا بذلك الحصار الذي ضربه الحزن على نفسه، طوال الوقت الذي مضى منذ أن فجع بما سمع، شعر وكأن سنوات قد مضت على ذلك الحدث.. قرر حينها أن يحثّ الخطى لكي يصل إلى البيت في الوقت المناسب، ولكنه لم يسر بضعة خطوات حتى سمع لغطا خلفه، التفت، فرأى رجلا ضخم الجثة يقود الصبي البدين وهو يعربد بكلام بدا له غاضبا، انتابه الفضول، فتوقف ليرى ما سيؤول إليه الأمر.. وصل الرجل إلى الباب الحديدي ودق عليه بقبضته المضمومة، ووقف ينتظر.. ظهر رجل من خلال الباب، سمعه يقول بأدب:

- أهلا يا أستاذ.. تفضل.

ولكن الآخر رد بغضب:

- أتفضل إلى أين؟.. اِسمع يا هذا، لقد ضقت ذرعا بكـــم.. أصبحت لا أطيق ازعاجـــاتكم، ومراوغـــاتكم في دفـــع الإيجار، ثم يتجرأ جروكم على إيذاء ولدنا الوديع.

فقال هذا على الفور:

- لا يا سيدي، أنا لا أقبل بذلك حتما.

ثم التفت ليصيح على ولده بغضب، ولكن الصبـــي لم يظهر.. دخل الرجل، ليظهر بعد قليل وهو يقود الصبـــي من أذنه حتى أوقفه أمام الضخم وولده حيث ضربه بكل قوته علـــى مـــؤخرة رقبتـــه، فأسقطه أرضا.. غلي الدم في عروقه وتصاعد بخاره إلى عقله وهـــو يرى المنظر.. عندما رفع الرجل يده ليضرب مرة أخرى بعد أن أنهض الصبـــي، صاح من حيث يقف:

- إياك أن تضربه مرة أخرى.

ثم أعقب ذلك بالتقدم السريع باتجاههم.. تجمدت يد الرجـــل المرفوعة في الهواء وهو يلتفت متفاجئا باتجاه مصدر الصوت.. حالمـــا اقترب منهم، لاحظ الشزر في عينيّ الضخم.. فيما بان الاســـتغراب وظهرت الحيرة على ملامح الآخر، الذي بادره قائلا:

- وما دخلك أنت؟.. ولدي وأريد أن أؤدبه.

فقال وهو يصارع للإحتفاظ بهدوئه الذي لم يستعدْه إلا للتو:

- ولكنه لم يكن من بدأ الخصام.. بل كان يدافع عن نفسه فقط.

فقال الضخم وقد بدا الانفعال والغضب واضحين في نـــبرات صوته:

- لم يسألك أحد عن رأيك.. هيا إذهب في حال سبيلك.

ولكنه رد بإصرار:

- أنا أعرف أن أحدا لم يسألني رأيي، ولكني تورطت بأن أكون شاهدا على ما حدث.

فغر الرجل الممسك بولده ليضربه، فاهاً، وانخفضت يده المرتفعة، فيما قال الضخم بانزعاج واضح:

- هيّا اِذهب.. اِذهب قبل أن.

فقال هو مستعينا بآخر قدرة له على الاستمرار بالهدوء المفتعل:

- قبل ماذا؟ هيّا يا رجل، فالمسألة بسيطة، إن هو إلا خصام أطفال، وقد كان ولدك هو من بدأه.. هذا كل ما أردت قوله.

صاح الضخم بغضب واضح:

- يا لك من وقح!.

أراد أن يجيب على الفور، ولكن لاحظ أن يد الأب قد ارتفعت لتستأنف ضرب الصبي، فبادر إلى إمساكها لمنعها من تنفيذ نيتها، وصاح:

- لقد قلت لك، لا تضربه.

فصاح الأب عندها بغضب:

- افلت يدي أيها المجنون، هو ولدي وأتعامل معه كما أشاء.

فصاح هو الآخر:

- لا، هذا خطأ لن أسمح به.

فصاح الضخم أيضا وبحنق:

- يبدو أنك بحاجة إلى تأديب.

عندها شعر بتنمل في قدمه، عرف على الفور معناه، فقال لنفسه "أوه، اللمرة الثانية، في يوم واحد!".. ولكن الأحداث تتابعت بسرعة بعدها مع سريان النمل في جسده، صعودا إلى وجهه.

كان آخر ما لاحظه، وبطرف عينه، أن ذلك الضخم قد هجم عليه، ولكنه لم يع أن يده اليمنى كانت قد تكورت، وبدأت الأصابع تضغط بشدة على باطن الكف، لم يهتم لإشارات الألم الفظيع، التي بدأت تلك الأصابع شبه المتورمة، ترسلها.. عندما اخترقت الذراع المسددة للقبضة المضمومة بشدة، الهواء، كالسهم، كان قد دخل منطقة الغضب الكلي، التي تمنع عنه الرؤيا الواعية.. رسمت الذراع قوسا وهميا وهي تمضي نحو هدفها، وجه الرجل الضخم الذي كان لحظتها يرغي ويزبد، ولكنه عندما رآها، بان عليه الفزع، وحرك رأسه لا شعوريا في محاولة لتفاديها، فرسم بذلك، وبنفسه، زاوية لقائها بفكه.. لم يسمع الرجل، الصوت الناجم عن الضربة، ولكن الألم الهائل الذي شعر به، كرّ على موجة الغضب التي اجتاحته قبل لحظات، فجعلها تنحسر قليلا لتترك له هامشا صغيرا من وعي لما سيحدث من حوله بعد ذلك.. تطلع إلى الرجل الضخم الممدد على الأرض أمامه، ففكر مع نفسه "أوه، لقد مات" وسرعان ما اجتاحته فكرة مذهلة، فقال لنفسه وهو يسعى بعيدا عن الواقع الذي يطل عليه من خلال فسحة وعيه المتذبذب "ترى، لِمَ لَمْ أفكر بامتهان الملاكمة يوما" ولكن الأحداث لم تمهله حتى يبتعد بخياله، فقد سمع صوت الصبي البدين وهو يصرخ برعب، ويملأ المكان نواحا.. وصاح به الرجل الآخر:

- من أين ظهرت أيها المجنون.. ما بك؟!

سمع أصوات أقدام تدك الأرض وهي تقترب منهم راكضة.. لغط وصياح، وقعقعة أجزاء الأسلحة الرشاشة والمسدسات وهي تعد للرمي، ولكنه لم يسمع صوت إطلاق رصاص كما توقع.. تجمع حشد من حوله، وتلقفته أياد وهي تدفع به إلى حيث لا يدري، ولكنه انصاع، فمضى معهم من دون ممانعة.

الليلة الثانية

ذهبت إلى بلدتي لألجأ إلى الحضن الذي لا يمكن أن يخـذلني.. حضن أمي.. قضيت خمسة أيام مع عائلتي، لم يفارق فيهـا القلـق، وجه أمي، فقد كان وجهي يعكس ما في داخلي، طوال الوقـت.. هي لم تعرف ما بـي، وأنا، لم اخبرها بشيء، ولكنها كانت تحدس ما بـي بكل تأكيد، حتى إنها سألتني إن كان الأمر يتعلـق بفتـاة، ولكني لم أجب على أي من أسئلتها، فأنا لم أعرف مـا يمكـن أن أقول، أو كيف.. حاولت هناك أن أنسى.. تصـور يـا سـيدي.. حاولت أن أنسى، وكأن المشاعر الإنسانية يمكن أن تلغى بضـغطة زر.. هكذا بكل بساطة، حاولت أن أنسى، ولكني لم أنجـح إلا في إثارة المزيد من الهموم والخشيات، في نفسي.

في اليوم الخامس قررت العودة، ومواجهة أوجـاعي.. قلـت لأهلي أني يجب أن أرجع إلى كليتي لكـي لا أرسـب، ولكـني في الحقيقة كنت آمل أن أكون مخطئا فيما ذهبت إليه بشأن جفائها لي.. بل أني كنت مشتاقا إليها.. عدت على أمـل أن أنجـح في جلـب إنتباهها، رغم أني كنت قانطا في أعماق نفسي.

رجعت، وفي أول يوم، رأيتها.. كنت أسير على غير هـدى في ممرات الجامعة، عندما لمحتها من بعيد.. كانت تجلس مع صـديقتيها على مقعد.. هن الثلاث.. زها ووصال وفريال، اللواتي لا أستطيع أن أوزع أسماءهن بينهن.. شعرت وكأن يدا قاسية قبضت على قلبـي.

وبدأت همصره.. رباه، لم لا يمكن أن تكون من نصيبـــي.. لِمَ يجب أن أُحرم منها.. أنا أحبها يا ربـــي.. أحبها كثيرا.. فقط لو نظـــرت باتجاهي، وأطالت النظر، ولو لمرة واحدة، فأنا على استعداد لأن أبرك على ركبتي أمامها.. الآن وهنا.. أمام أنظار جمع الطلبـــة، وأتوســـل إليها، فقط، لتديم النظر إلي.. لم يكن عندي مطمع أكثر من هـــذا، أكثير هذا يا ربـــي؟.. تقدمت بخطـــوات مضـــطربة وأنـــا أنظـــر باتجاههن.. كنت لم أزل بعيدا عنهن، عندما حانـــت مـــن إحـــدى صديقتيها إلتفاتة نحوي.. رأتني.. ركزت عليَّ.. بانت عليها المفاجأة، وبحركة سريعة من مرفقها، لكزتها، وهي تؤشر برأســـها إلى حيـــث أسير.. إلتفتت هي إلى حيث أشارت رفيقتـــها، وعنـــدما اِلتقـــت نظرتانا، أشاحت بوجهها سريعا.. كانت لحظات حرجة يا أستاذ.. بل من أحرج اللحظات في حياتي، فقـــد لمحتـــهن وهـــن يخفضـــن رؤوسهن، وشعرت بهن وهن يغالبن ضـــحكات تمكنـــت منـــهن.. جمدت في مكاني.. أهكذا هو الأمر إذاً.. هي تعـــرف بوجـــودي.. إنتبهت إلي ولكن.. لأكون مادة لسخريتهن.. غلي الدم في عروقي.. من تظن نفسها هذه المغرورة.. أيعقل أن أعاني من اللواعج، وأكابد الهموم الكبار، حتى أجعلها تضحك.. والأسوأ، أن تشرك صديقتيها في ذلك.. تسخر مني.. تهزأ بـــي.. لتذهب إلى الجحيم، فأنا يسار.. يسار الذي تتمناه الكثير من الفتيات، ويشـــتهينه.. يســـار أيتـــها المغرورة.. عندها، حزمت أمري، وتقدمت بخطوات ثابتة.. أو هكذا حاولت أن تبدو.. مررت من قربهن، ولم ألتفت إليهن.. هكذا يكون الرد.. سلمت يا رجل، لا تنظر باتجاههن ليعرفن من أنت.. نعـــم، أظهر لها معدنك الحقيقي، واجعلها تعرف أنك رجل لا تصـــلح لأن تكون أضحوكة للآخرين.. كل الآخرين.. حتى إذا كانوا، بغداديين.

لم أكن مرتاحا لذلك الغضب، فهو يتناقض تماما مع ما كنت آمله حين عدت، ولكنه ساعدني كثيرا في ذلك اليوم، فقد جعلني أتجاوز مشاعر الإحباط التي يمكن أن أشعر بها لحظة إكتشافي لحقيقة كوني مثار سخرية، بدلا من أن أكون الحبيب المشتهى، ولذلك حافظت عليه، طوال الوقت الذي استغرقته بقية محاضرات ذلك اليوم، حتى بعد أن عدت إلى القسم الداخلي، ظل ذلك الغضب، الرحيم، يخفف عني مرارات الخيبة.. حتى جنّ الليل.

عندما لجأ الجميع إلى حاضنات أحلامهم، وبقيت وحدي، بحثت عن ذلك الغضب في نفسي، فلم أجد له أثرا.. تركني واختفى، وعندها بدأت التداعيات ترجعني إلى درك المشاعر المؤلمة.. من الذي يذهب إلى الجحيم أيها السخيف.. أمثلها يذهب، فإلى أين يمكن أن يذهب أمثالك؟.. تذهب إلى الجحيم لأنها ضحكت عليك، ثم ماذا، ولِمَ أنت غاضب.. ألا يكفيك أنها تلاقيك بضحكة، حتى لو كانت عليك، لا لك.. ألا يكفيك أنها تعرف بوجودك يا مسخ، يا نكرة، يا عديم الشخصية.. هيّا دع عنك إدعاءات الكرامة.. ما لك بدأت تتحدث كالحكومة البعثية.. الكرامة والسيادة الوطنية.. أية كرامة، وأية سيادة.. أنت كنت تستجدي ولو نظرة واحدة منها، فما حل بك بعد أن انهالت عليك الضحكات والكركرات.. هيّا، ألا يعني ذلك أن الأمل موجود، وأن حلمك المستحيل لم ينته بعد، هيّا، فقط إعرفْ أنت كيف تستغل الأمر، وحوله لصالحك.. لتضحك ما شاءت، فوالله لم يخلق وجهها لغير الضحك، وعلامات الفرح.. اضحكها.. كن مهرجها، وافعل لها كل ما تطلبه منك.. نعم، كن مهرجها.. لِمَ لا.. ألم يكن هنالك في التاريخ أميرات أحببن مهرجين.. أليس هذا أمرا واردا، فلتكن هي أميرتك أيها المهرج.

في اليوم التالي، ذهبت إلى الجامعة بأمل جديد، ومعنويات مرتفعة، ولكني ما أن رأيتها حتى اختلط عليَّ الأمر، و لم أعد أعرف كيف أتصرف.. اكتشفت عندها أني إرتضيت منها تصرفها القاسي، ولكني لم أضع استراتيجية للتصرف في ظل الوضع الذي صار.. إرتبكت عندما رأيتها، وكدت أتعثر.. في ذلك اليوم لم تعرني إهتماما مرة أخرى، ولكني لاحظت أنها تبادلت الابتسامات مع صديقتيها عندما مررت من أمامهم، وكذلك فعلت في اليوم الذي تلاه، والذي تلاه، والذي تلاه، ولكني كنت راضيا، فقد لاحظت أيضا أن نظراتها باتجاهي، بدأت تطول.. نعم كان الفرق لا يقاس إلا بأجزاء الثانية، ولكنها كانت تطول، فاصطخب الأمل في نفسي، وظل يكبر ويكبر.. طبعا، كانت هي شغلي الشاغل طوال تلك الأيام والأسابيع والأشهر، التي لم أكن أتحرك خلالها في حرم الجامعة إلا على أمل رؤيتها، وأن اقتنص نظرة (ميكرو ثانوية) منها.. صحيح أني كنت أشعر أنهن يتبادلن الضحكات فيما بينهن حال إعطائهن ظهري عندما أمر، ولكني كنت آمل أن تكون تلك الضحكات من الضرب الذي تتبادله الفتيات عندما يتعلق الأمر بحديث عن معجب أو محب، أو حين رؤيته، كان هذا التفسير هو المفضل عندي، والأحب.

من أجل اِستمالتها أكثر، بدأت بالاهتمام بمظهري، فرحت أطالب بالمزيد من المعونات المادية من أمي التي كان قلقها عليَّ لم يزل حاضرا في ذهنها، بسبب الأيام الخمسة التي قضيتها عندهم في المرة الأخيرة التي رايتهم فيها آنذاك، ولذلك لم تكن تتردد في مدّي بما أطلب، لكي تخفف عني على قدر ما تستطيع.. كانت تلك الأموال تتحول فورا إلى ملابس.. والمزيد من الملابس، على أساس أنها يمكن أن تجعلني مناسباً لها، في المظهر في الأقل.. ولكن هيهات..

إذ لم أشعر، ولو لمرة واحدة، برضا عن مظهري بعد كل مرة أرتدي فيها شيئا جديدا، رغم الأموال التي صرفتها، والجهود التي بذلتها وأنا أتجول في الأسواق بحثاً عن المزيد من الملابس كلما أتيحت لي الفرصة لذلك.. بكلمة واحدة، بقيت (محافظات) بإصرار.. حتى أن صديقي (ناظم) قال لي وهو يراقب حيرتي التي بدت على وجهي وأنا واقف أمام المرآة بملابس جديدة:

- ولكنك لن تستطيع أن تجعل الحمار، حصانا، بمجرد أن تبدل جلده.

فرددت عليه بغضب وأنا أداري إنزعاجي:

- أنا حمار يا بن الكلب.

فأغرق في الضحك وهو يقول:

- لا تزعل أبا يمين.. ولكنك (محافظات).. هكذا ولدت، و(محافظات) ستموت.

فلم أرد عليه هذه المرة، رغم أنه كان يقصد السخرية حتى في (أبي يمين) التي قالها، لأن هذه الكنية كانت أسوأ عندي من أقذر كلمة نابية يمكن أن يقولها، ولكني كنت مشغول البال بخيبتي.

بمرور الوقت، بدأت أجزاء الثانية تعمل لصالحي.. صحيح أنها لم تكن زيادة مضطردة، ولكنها كانت موجودة، حتى إن بعض أصدقائي المطلعين على أسراري، بدؤوا يغبطونني على النعيم الذي دخلته، أو كدت، بعدما صورت لهم الأمر وكأنه حب متبادل، و لم يكن ينقصه إلا الخطوة الأولى، المطلوبة مني.. ولكن، أي متبادل، وأية خطوة، وأنا لم أكن متأكدا حتى إن كانت ظل الابتسامات التي بدأت ترتسم أحيانا، على شفتيها الشهيتين، تشجيعا لي على الإقدام، أم أنها مجرد صدى للأحاديث الضاحكة التي كانت تتبادلها مع

صديقتيها، عني.. أمضي إلى الجامعة ملهوفا كل يوم، مدفوعا بسعادة أتوهمها، ولكن ما أكثر مشاعر الإحباط التي تنتابني عندما تتجاهلني، رغم أنها تحنو عليَّ احيانا، بنظرات خاطفة، كانت كفيلة بأن تلهب جذوة الأمل في أعماقي.. يوما بعد يوم، اسبوعا بعد أسبوع، وشهرا بعد شهر، حتى تقهقر البرد، وبدأ لفح الصيف يقتحم علينا حياتنا.

في يوم نيساني حار، إنتبهت بعد أن دخلت من باب الجامعــة، إلى حركة مفاجئة دبت فيها، وأصبح الجو مشحونا.. تساءلت عمّــا حدث، فأخبروني أن مسؤولا كبيرا سيزور الجامعة.. لم أسأل عمَّــن يكون المسؤول، فالأمر برمته هو أسوأ ما يمكن أن أتقبله وأنا بمزاجي المضطرب ذاك.. لم أكن قد رأيتها بعد في ذلك اليوم، ولكني قررت أن أؤجل ذلك إلى الغد.. وهو ما لم أفعله من قبــل، وهرعــت إلى منفذي الخاص.. نعم فقد أصبح عندي في ذلك الوقت منفذ خــاص في سور الجامعة، أستخدمه في الحالات الطارئة.

سرعان ما وجدت نفسي حرا، مسرورا لتخلصي من أجــواء الجامعة التي ستبلى بذلك المسؤول اللعين.. توجهت نحــو شــارع فلسطين، ومن هناك بدأت مسيرتي الخاصة.. تظاهرة حب كــبرى، رفعت فيها لافتات تظهر مدى حبــي لمليكتي التي لا أعرف إسمهــا بالضبط.. تظاهرة، ولكن في وجداني فقط.. سرت، حتى وجــدت نفسي في ساحة ميسلون.. كان الوقت يمضي وأنا لم اشعر به، كنت مسكونا بها وأنا أسير بلا شعور، وعندما انتبــهت لنفســي قلــيلا، شعرت بالتعب، ولكني لم اشعر بالإكتفاء من ترديد الهتافــات الــتي كانت طول الطريق، تصدح في أعمــاقي.. قــررت الاســتمرار، فانحرفت يمينا وأنا لا أعرف إلى أين أنا ماضٍ.. فقد كانــت تلــك المناطق مجاهلا، يجب عليَّ إستكشافها، ولكني سرت، والمناظر تتبدل من حولي باستمرار وأنا لا أكاد أميز بينها.. كانت نظراتهــا الــتي تمتلكني عندما تمنحني إياها، تتبادل مكانها في ذاكرتي، مع الضحكات التي أتصور أنها تكون مرسومة على وجهها، ووجهــي صــديقتيها، فتتناقض مشاعري بتعجيل متزايد، الأمر الذي يدفعني إلى الإسراع في مسيري من دون أن اشعر.. وهكذا مضيت في دربــي يتحــول

خببـــي إلى سير مطمئن بطيء، قبل أن تتسارع خطواتي مرة أخرى، مع تذبذب مشاعري التي تستمد اضطراماتها، من الصور المتصارعة في خاطري.. بعد وقت طويل، شعرت فجأة أني قد وصلت إلى مكـــان مألوف، ولكني لم استطع أن أتيقن من ذلك حتى تعرفت على (مطعم المطعم).. لا يا سيدي لم يكن مطعما، بل ملهى ليلياً قضينا فيه، أنـــا وشلتي، واحدة من ليالينا المنفلتة والمجنونة.. لم أكن قد رأيتـــه علـــى هدى ضوء النهار لأني لم أزره إلا بعد منتصف الليل، ولكني قـــرأت اللافتة التي تعلو بابه الصغير المعلق فوق سقف ما.. حينها، عرفـــت إتجاهي، فقررت أن أواصل السير حتى ساحة النصر، لكـــي أســـتقل الحافلة من هناك عائدا إلى القسم بعدما كادت الشـــمس تلامـــس أصيلها.. قبل أن أصل الساحة بقليل، التفتّ يسارا فجأة، وعـــبرت الشارع المزدحم لأندس في البار الذي أعرفه جيدا.. كانت نـــزوة لم أعهد مثلها في نفسي، أن أحتسي الجعة لوحدي، ولأول مرة في أثناء خدمتي القصيرة في ميدان (الشرب) والسكر.

قبل الغروب بقليل، رجعت منتشيا، إلى القسم الداخلي، بعدما أعانتني زجاجات الجعة الثلاث، على تجاوز بعض إحباطاتي، وترجيح كفة التفاؤل على كفة التشاؤم في نفسي.. قبل أن أصـــل القســـم الداخلي، لاحظت من بعيد تجمعا في بابه، بدا مريبـــا في نظـــري.. تساءلت مع نفسي عمّ حدث، ولكني واصلت المسير.. حانت مـــن أحد المجتمعين إلتفاتة إلى حيث كنت أسير، فبـــدا علـــى حركاتـــه الانفعال وهو يحاول أن يقول شيئا لم أكن لأسمعه من تلك المســـافة، لبقية الجمع.. إلتفتوا جميعا باتجاهي، وبدا عليهم أنهم يركزون النظـــر عليّ.. كنت تعرفت فيهم على أصدقائي، فرفعـــت يـــدي معرفـــا بنفسي.. فانفصلت مجموعة منهم على الفور وركضت باتجـــاهي..

سيطر عليّ الهلع، وكدت أسقط أرضا.. ما الذي حدث.. هل للأمر علاقة بـــي.. كيف لا وهؤلاء قد صالوا عليَّ.. توقفت وســاقي لا تكادان تقويان على حملي من الخوف.. عندما إقتربوا مــني، صــاح ناظم الذي كان أحدهم، بحنق وانفعال واضحين:

- أين كنت يا حيوان؟

صعقت فلم أملك غير أن أتمتم ببلاهة:

- ماذا؟!

فصاح آخر، لا أذكر اسمه الآن، ولكنه لم يكن ناظم:

- لقد دمرت أعصابنا اليوم.

شعرت بأنَّ الأمر يزداد غموضا بدلا من أن يتضح لي، بعد أن أحاطوا بـــي، ولكني سرعان ما بدأت ألملم شتات وعيي لأتجــاوز هول المفاجأة، قلت بارتباك:

- ولكن، ما الذي حدث؟

فصاح ناظم وغضبه ما زال يتقد كما بدا لي بوضوح:

- ما الذي حدث، ألا تعرف ما حدث؟.

تسرب غضب ناظم إلي ليشعرني بالمزيد من الإتزان، فصحت:

- ما الذي حدث.. عليكم اللعنة، هل انقلبت الدنيا؟!.

فقال عادل، صديقنا الثالث أنا وناظم، وقد بــدا التــهكم في نبرات صوته واضحا:

- أو لم تنقلب هي بعد؟

فروّع الخوف، ثقتي الوليدة.. قلت وأنا أكاد أبكي:

- ماذا.. ماذا حدث؟

تطلع ناظم في عيني حينها، ويبدو أنه شــعر بصــدقي، فقــال بصوت محايد هذه المرة:

- يبدو أنك بالفعل لا تعلم.. ولكن، كيف لم تسمع بـأمر الانفجارات الـتي حـدثت في الجامعـة.. والقتلـى.. والجرحى.. أين كنت؟.. أفي عالم آخر؟.

فرددت بذهول:

- انفجارات، وقتلى، وجرحى.. أية جامعة التي حدث فيها هذا؟.

فقال ناظم وهو يداري ابتسامة بعدما أحس بحالتي كما يبدو:

- المستنصرية.. جامعتنا هذه.

ثم أردف بعد قليل قائلا:

- ثم أين كنت طوال الوقت.. هيّا اخبرني.

لم أجبه لأني شعرت عندها بانقباض، طردت ظلمته، سـطوع النشوة في نفسي.. ولكن أصدقائي الذين عبروا عن سعادتهم، بعد أن إطمأنوا عليَّ.. أحاطوا بـي تماما، فوقوني شر تـداعياتي وأخـذوا يقصون عليَّ كيف أنهم بعدما افتقدوني، شعروا بـالقلق، فبـدؤوا يدورون على المستشفيات التي امتلأت بجرحى التفجير، بحثا عـني.. وفي الطريق إلى القسم، بدأوا بتبادل النكات بينهم وهم يتحدثون عن المواقف المضحكة التي مرت بهم، وهم في تنقلهم المحموم مـا بـين المستشفيات، حتى شاركتهم الضحك.. في القسم، غيرت ملابسـي وإنضممت إلى جمعهم الصاخب لأعرف المزيد عن الأحـداث الـتي وقعت بعد فراري من الجامعة.. وفي غمرة الأحاديث المتطايرة مـن كل حدب وصوب، سمعت شيئا كاد يعجز قلبـي عن النبض.. لقد سمعت اسم فريال في غمرة حديثهم عن القتلى، صرخت مـن دون وعي:

- ما بها فريال؟!

عم الصمت بينهم وهم يتطلعون جميعا باتجاهي.. بعد هنيهات قال أحدهم:

- فريال.. لقد.. لقد ماتت بفعل القنبلة.. ماتت هي وطالب آخر اسمه، طه.

غامت الدنيا في عيني، وصعب عليّ التنفس.. ما هذا.. ربـــاه.. رباه، ليس بهذه القسوة.. فريال ماتت.. لا، لا يمكن أن تفعل هـــذا بـــي.. لا، ليس بهذه القسوة، ولكن.. من يقول أنها هي، أنك حتى لست متأكدا من اسمها.. ثم، هل من المعقول أن لا تكون في الجامعة المستنصرية فريال غيرها.. ولكن كم فريال رأيت في حياتك لتفترض كثرتهن في المستنصرية.. تكالبت عليَّ الهموم، فضرب الإضـــطراب والحزن والحيرة معدتي، فشعرت بألم لا يطاق فيها، هرعت إلى الحمام حيث أفرغت شطيرة (الشاورمة) التي كنت قد تناولتها بعد إنتـــهائي من شرب الجعة.. رجعت إلى صحبـــي الذين تطلعوا في وجهـــي، وكأنهم يريدون أن يتأكدوا من سلامة عقلي.. سألتهم مرة أخـــرى عن فريال، ومن أية كلية هي، ومن اي قســـم.. إنـــبرى العـــارفون ليؤكدوا لي معرفتهم الشخصية بها، وإذا هي طالبة في كليـــة الإدارة والإقتصاد والعلوم والتربية، في آن واحد!.. كان حري بهذا الخلط أن يدعم الأمل في داخلي، ولكنه زاد إرتباكي وأثار المزيد من مخاوفي.. تركتهم لكي أذهب إلى مخدعي لأستعد ليـــوم الغـــد وإحتمالاتـــه المرعبة.. ولكن أي مخدع، فقد ضل ملاك الكرى دربـــه إلى عـــيني، وتركني فريسة للأفكار المفترسة، حتى الصباح.

قبل الثامنة صباحا، كنت واقفا أراقب بوابة الجامعـــة لأتـــابع الداخلين إليها، علّي أراها.. لم يكن هنالك الكثير من الطـــلاب و لم يبد ذلك الباب مزدحما كما هو شأنه صباح كل يوم، فزادني ذلـــك

إحساسا بالفجيعة.. كنت أخوض حينها صراعا غير متكافيء مع الوقت، فكل دقيقة تمر من دون أن أراها، كانت تزيد من توتري وتؤجج الأزمة في داخلي.. تكالبت عليَّ دقائق ساعة كاملة قضيتها هناك بلا جدوى.. كنت أؤجل الدخول لكي لا أفجع بأسوأ الاحتمالات التي تتربص بي هناك، ولكن، كان لا بد من الدخول بعد أن أبى عليَّ وجهها أن يعيد النبض لعروقي التي جفت من شدة الخوف.. والحزن.

منذ أول نظرة ألقيتها على مباني الكلية في الداخل، أحسست أني لن أراها في ذلك اليوم، فأبهضني هذا الإحساس.. كيف لا أراها.. كيف لا أطمئن عليها.. ولكن، ما باليد حيلة.. عللت النفس بأني يمكن أن أرى واحدة من صديقتيها، ومن وجهها سأستشف، حجم المأساة، أو، البشارة، وتجدد الأمل.. ولكنّي بحثت في الممرات.. جلت الحدائق.. مررت قرب القاعات وأنا أزج نظرات مستطلعة فيها، فلم أر وجها يمكن أن يرد على استفساراتي المضنية.. بعد الظهر هدني التعب واجتاح وعيي ذهول السهر.. بدأت أشعر وكأن ما حولي، يدور في بعد آخر.. عالم لا علاقة لي به، وما الشخوص سوى أشباح يمكنني أن أمر من خلالها.. أن أخترقها من دون أن أصطدم بها.. عرفت عندها أن أوان الذهاب قد أزف، ولكني لم أغادر الجامعة في ذلك اليوم إلا بعد أن أوشك الحراس على طردي ليقفلوا الأبواب ويرتاحوا.

كان غروب ذلك اليوم الكئيب، بل المغرق في الكآبة، يقترب حثيثا.. لم أكن أعرف إلى أين أذهب، أو ماذا أفعل.. فكرت في أن أغرق مخاوفي وهمومي في زجاجات (البيرة) ولكني ترددت لأني لم أعرف كيف يمكن أن أصل إلى ساحة النصر أو أبي نواس،

المكانان الوحيدان اللذان أعرفهما، وأنا على تلك الحالة.. قررت أن أداري قلقي بالسير في الشوارع المحيطة بالجامعة، ولكني سرعان ما وجدت نفسي في القسم الداخلي.. قال ناظم عندما رآني:

- أمر جيد أنك أتيت.. غيّر ملابسك والتحق بنا لكي تتناول العشاء معنا.

هززت برأسي، ولكني شعرت بغثيان عندما فكرت في الطعام، وعندها فقط تذكرت أني لم أكن قد تناولت الإفطار ولا وجبة الغداء.. لم أهتم، بل ألقيت نفسي وأنا بملابسي، على فراشي، واستغرقت في نوم عميق.

عندما استيقظت في الصباح التالي، انتبهت فورا إلى مدى ارتفاع الشمس في ساحة السماء، ولاحظت خلو القسم من الطلاب.. سارعت إلى ساعتي، فإذا بالوقت يقترب من العاشرة صباحا.. لم أغسل وجهي.. لم أمشط شعري.. ولا داعي لأن أقول لك أني لم أغير ملابسي.. فقط لبست حذائي، وأسرعت راكضا إلى الجامعة.

دخلت.. بل اجتحت باب الجامعة، اجتياحا.. لم أهتم لنظرات الإستغراب، أو الاستنكار التي انصبت على ظهري.. لم أتوقف عن الركض، إلا بعد أن وصلت المباني التي سيتقرر فيها مصيري.. توقفت لأستعيد أنفاسي التي تسارعت حتى كادت تخنقني.. بذلت جهدا مضاعفا لأني كنت في عجلة من أمري، وما أن سيطرت على تنفسي، حتى إندفعت لأتفحص غابة الوجوه الممتدة أمامي.. استمرت النظرات المستغربة تتابعني، ولكني لم آبه.. كنت أبحث في الوجوه.. وأبحث، حتى رأيت واحدة منهما.. إحدى صديقتيها.. حتى تلك اللحظة، كنت أتوقع أني سأفرح إذا ما حدث ذلك، ولكني

عندها فقط، عرفت أن هذا يعني زيادة للإحتمال السيء إلى خمسين بالمائة.. هذه ليست فريال، إذاً.. لم أسمح لنفسي أن تغوص بهذه الفكرة، فسارعت للإبتعاد وأنا أواصل عملية البحث في الوجوه.. بعد دقائق.. حدث ما كنت أخشاه، فقد رأيت وجه صديقتها الثانية.. توقفت مصعوقا.. ثم تمالكت لأجلس على عشب الحديقة الصغيرة التي كنت أسير بها.. كادت الدموع تطفر من عيني لولا أني بذلت جهدا هائلا لمنع ذلك.. هذا ليس الوقت المناسب، بهذا أقنعت نفسي، فمنعت نزيف عيوني.. كنت أتطلع في الأرض وأنا أصارع الإحساس بالفجيعة.. خطرت لي فكرة.. إن كانت هي، فسيظهر ذلك على ملامح صديقتها بكل تأكيد.. رفعت عيني لأنظر باتجاهها.. فإذا بها هي، تنظر إلي! هي التي لم أرها لأنها كانت تقف خلف صديقتها كما يبدو.. هي، هي، رتلت دواخلي بكل خشوع.. هي، هي، حية لم تمت.. تذكرت حالتي المزرية، فعرتني رعشة، أيعقل أن أبدو هكذا أمامها؟.. تحاملت على نفسي، ونهضت ببطء، وأنا أتحاشى النظر إليها.. عندما استقمت، نظرت باتجاهها، فإذا بها لم تزل تنظر نحوي.. رقم قياسي في عدد الثواني التي منحتني إياها، ولكني تشاغلت عن ذلك بنظرتها التي يبدو أنها تحولت من الإستغراب في البداية، إلى تعاطف واضح، بل شعرت بها وكأنها ستبكي بعد قليل.. يا آلهة الرحمة.. هي تتعاطف معي.. فلتشفق عليّ، فقط لتديم النظر باتجاهي.. ما الذي تتصوره.. آه، أتتوقع أني فقدت حبيبا لتوي.. حسنا ليكن ذلك.. لقد ماتت أمي.. لا، لا، هذا كثير، فلنقل أبي.. نعم أبي.. هيا تعاطفي معي أيتها الحبيبة وهلمي إلي لأبكي في أحضانك.. لا فقط أعطني يدك لأقبلها وأمسحها بدموعي.. كان هلعي بسببك أنت، فكيف أجعلك

تفهمين ذلك.. عيشي بابـي أنت وأمي.. ابتسمت لهـا، فـأدارت وجهها، لم أهتم.. كان الفرح هذه المرة يجتاحني.. هي سالمة، سـالمة هي.. لم تكن هي فريال.. أو هي فريال، ولكن غير فريـال.. أو.. هي ليست، فريال.. لا يهم، المهم هي بخير.. حبيبتي بخير.. إبتعدت سعيدا، راضيا ومنتشيا، وأنا أكاد أغني.. إعترضني أحد زملائـي في القسم، صائحا:

- ما هذا، ما الذي حدث لك؟

لم أجبه، بل احتضنته وقبلته على خده وأنا أضحك، قال وهـو يمسك بيدي:

- سأعرف ما بك لاحقا، أما الآن، تعال معي.

أسلمته قيادي من دون أدنى إعتراض.. قادني إلى الحمامـات، حيث طلب مني أن أغسل وجهي فامتثلت، فيما خرج هو من هناك، ليعود إلي بعد قليل وقد حمل مشطا، طلب مني أن أمشـط شـعري فامتثلت.. تفحصني لثوانٍ ثم قال:

- والآن.

ولكني قاطعته بقولي:

- جائع.

فذهبنا إلى النادي الطلابـي حيث أنهيت صيام أربعين سـاعة، وبعد خروجنا، لم أخبره بشيء.. فقط حرصت على قيادة خطواتـه إلى حيث رأيتها مرة أخرى، ثم غادرت الجامعة مسرعا إلى القسـم الداخلي.

في اليوم التالي وصلت إلى الجامعة وأنا بقمة أناقتي، من أجلـها، حتى أني كنت قد استعملت قنينة العطر الجديـد بطريقـة جعلـت رائحتها تركض على بعد أمتار أمامي.. في الوقت المناسب، هرعت

إلى حيث يمكن أن أراها.. رأيتها من بعد، وتأكدت من رؤيتها لي.. تقدمت بقلب خافق ونبض متزايد، ولكنها لم تزد على تلك النظـــرة التي رمتني بها أول مرة.. لم ينقص ذلك من فرحتي برؤيتـــها.. بـــل الحقيقة هي أني قضيت تلك الأيام بأريحية مستمدة من شعور بفـــرح غامر، أريحية جعلتني بعد يومين أرضى بقبول دعوة الطلبة الحـــزبيين للخروج في مسيرة التشييع التي أقيمت للطلبة المقتولين، رغم الكراهية التي أضمرها لهم ولمثل هذه الفعاليات.. عندما انتظمت في صـــفوف المشيعين، رأيت صورة القتيلة فريال لأول مرة، فشعرت بحزن طفيف لها، فقد كانت شابة هي الأخرى.. كما أني فكرت، لو كنت قـــد رأيت هذه الصورة في اليوم التالي، لكانت قد وفرت علي ســـاعات طويلة من قلق ممض.. ولكن لا بأس، فقد نبهتني تلك الســـاعات إلى شدة حبـــي لها.. لحبيبتي طبعا.

عندما وصلت المسيرة إلى التقاطع مع الشارع المؤدي إلى بـــاب المعظم، لم استطع مقاومة رغبتي، فانسللت من دون أن يشعر بـــــي أحد.. ورحت أسير مختالا لأنها موجودة في حياتي وفخـــورا بتلـــك النظرة الطويلة التي منحتني إياها قبل يومين.. في ذلك اليوم، طالـــت المسيرة المزيد من القنابل، وسقط المزيد من الضحايا، ولكني لم أقلق، لأني كنت قد رأيتهن، هن الثلاث، عندما تسللن حتى قبل أن تنطلق المسيرة.

الغريب في أمر السعادة أن زمنها لا يطول، ففي معظم الأحيان هي قد تأتي بعد شهور أو سنوات ولكنها لا تســـتمر إلا لأيـــام.. والأنكى أن أيامها أقصر بكثير من أيام الحزن والشقاء.. لأني سرعان ما جزعت من طريقتها المتذبذبة في التعامل معي.. تنظر باتجاهي مرة، وتتجاهلني مرات.. أنا أقسم أنه كان بإمكاني أن أحتمل هذا منـــها،

فرؤيتها كانت تبعث السرور بنفسي، ولكن أصدقائي بدؤوا يدفعونني باتجاه المبادرة، ويسخرون مني إذا ما ترددت.. هم يطالبونني، وأنا مسكون بخشيتي من إنكشاف أمري بعد أن أتأكد من أني مجرد نكتة في حياتها، جعلتها تضحك كثيرا وهي تتندر عليَّ مع صديقتيها.. ومن يدري، لعل هناك صديقات أخريات يعرفن بأمر المهرج الذي هام حبا بالأميرة.. ومع كل ذلك، لم أخل من الأمل يوما، وكنت فقط أتحين الفرصة المناسبة لأستطيع أن أقطع شكي بيقين مشاعرها، وقد حانت هذه الفرصة ذات يوم نيساني، وبنحو غير متوقع من قبلي، أبداً.. كنت خارجا لتوي من قاعة الدرس، أردت أن أشرب القليل من الماء، قبل أن أنطلق في رحلتي اليومية، للبحث عنها.. وأنا منحن على البراد، أتصيد الماء المرتفع منه، بفمي، شعرت بطريقة غامضة، أن أحدا يراقبني.. رفعت رأسي على الفور، فإذا بها واقفة، تراقبني من بعد، بصحبة فتاة غريبة أراها لأول مرة، ونظراتها منصبة عليَّ.. عندما شعرتا بأني رأيتهما، إستدارتا لتبتعدان وهما تتبادلان حديثا.. بدت لي الفتاة في حينها من نوع آخر.. نوع لم أكن لأتصور أنها يمكن أن ترتبط به.. ولكنها كانت معها بكل تأكيد.. ولكن، ما كان هذا؟.. من هذه؟.. وما يعنيه ما حدث للتو.. بدأ عقلي يعمل بسرعة، فبدأت البيانات تترى لتشير إلى إحتمال واحد.. لم أستطع أن أصرح به لنفسي، ولكن، كان هو الإحتمال الوحيد.. هي، صديقة لها، ويبدو أنها حدّثتها عني، وقد صحبتها اليوم، كي تريني لها.. هذا منطقي ومعقول.. الأمر واضح، ولكن ماذا يعني.. رباه، إنها مهتمة بي.. أنا أعني لها شيئا، وإلا لما حدّثت صديقتها عني، ولما تجشمت عناء إصطحابها، لتعرضني عليها.. رباه، رباه، رباه.. أهو تأويل صحيح؟.. إجعله صحيحا.. ألا يمكنك ذلك..

المهم، بعدما حدث في ذلك اليوم، قررت أن انفذ ما كنت أفكر بـــه منذ أسابيع لأني يجب أن أحزم أمري، وأن أضع النقاط على حروفي.

حين وصل يوسف إلى بغداد، في بداية العام الدراسي الجديد، قبل أكثر من ثلاثة عقود، تنفس الصعداء، فقد تخيل في وقت ما أنه لن يستطيع تحقيق حلمه هذا، بأن يعيش في بغداد، أبدا.. ولكنه فعلها أخيرا، وها هو في بغداد كما أراد.. كانت هي السبب الأول في إجتيازه لعقبة (البكالوريا).. لا دعوات أمه، أو توجيهات والده.. فقط الرغبة في أن يكون فيها، هو الذي جعله يجتاز المرحلة الثانوية.. بغداد التي لم يكن قد رآها من قبل، أكثر من مرة واحدة، كانت كافية لجعلها حلما يلازمه منذ ذلك اليوم الخريفي البعيد الذي ودعها فيه بعد أن قضى فيها وقتا، بدا له حلما سعيدا متواصلا.. خلال السنوات التي مضت، كان يسمع الكثير عن بغداد التي بدأت تنهض مؤخرا، وتزدهر، حتى باتت تنافس العواصم الأوربية، كانت رغبته تشتد، وخشيته من أن لا يستطيع العبور، تتآكله.. ولكن كل ذلك قد انتهى، وهاهو في بغداد التي رآها أجمل مما توقع، وآن له أن يتسيد لياليها كما يشتهي، نعم ليل بغداد التي لا تنام، كما سمع، كان ذلك هدفه.. لم يكن همه أن يطلع على المشاريع الطموحة التي تنفذ فيها، ولا الشوارع الجميلة التي تفتح، أو البنايات والعمارات الأنيقة، رغم انتباهه لها، واعجابه بها، ولكن ذلك لم يغير من خطته في غزو لياليها، مسندا بالنقود التي سترسلها إليه أمه، كلما طلب، بعد إنفاقه للمبلغ الذي خصصه له والده، فقد كان مثقلا بعذريته التي أبت أن تفارقه رغم الآهات التي كان يثيرها لدى البنات كلما رأينه.. كان أشقراً، جميل الوجه، ممشوق القوام، ومع ذلك، لم يستطع أن يستفيد من هذا على صعيد عدد النقاط التي كان يريد تسجيلها في مجال العلاقات الجسدية، فهي لم تتعد الصفر، قبل وصوله إلى بغداد.. لم تكن الدراسة الجامعية في حينها تشكل مشكلة بالنسبة إليه، فقد قُبِلَ في

كلية الادارة والاقتصاد في الجامعة المستنصرية، وهو على يقين من أن الدراسة فيها لن تكلفه جهدا كبيرا، ولذلك وصل بغداد أحلامه وهو على أتم الاستعداد للإنتقام من أيام حرمانه مستعدا للإنغماس في كل فرص اقتناص اللذة، وامكانات إصطياد المتعة التي قد تتوافر له فيهـــا، إذ لم يكن من المعقول بالنسبة له أن يبقى (بتولا) في مثـــل عمـــره، ومعظم أصدقائه كانوا قد تخلصوا من ذلك الهم الثقيل، منـــذ أيـــام لعبهم وهم مراهقون، في شوارع بلدتهم الصغيرة.

أمر آخر كان يجعله لا يطيق صبرا على الطريـــق الموصـــلة إلى بغداد في ذلك اليوم.. بنات بغداد، جنيات حلمه المســـتحيل الـــذي انبثق لحظة رؤية (فاتن) الحورية البغدادية التي تعودت زيارة أقاربها في بلدتهم الصغيرة قبل سنتين أو ثلاث.. كانوا في تلك الأيام القائضـــة يشعرون وكأن شوارع بلدتهم ترتدي حلة جديدة عنـــدما تشـــهد خطوات (فاتن) الجميلة، فيجتمعون ليلا ليدور الحديث عنها، وعنها فقط.. شعر في حينها أن معظم ما كان يتداوله أصدقاؤه عنها، إنمـــا كان وليد مخيلتهم الشبقة، ولأنه كان يرفض أن يرتبط ذلك المـــلاك بفسق تصوراتهم، فقد ضمه حبيبا في حلم اليقظة التي إنتابه في تلـــك الأيام.. في الحلم فقط، لأنه لم يجرؤ على أن يحبها بالفعل.. الآن، ها هو مقبل على بغداد و(فاتناتها) وسيكفيه أن يشعر بقربهن منه، أمـــا حاجاته الجسدية، فهو يعرف جيدا ما سيفعل لأنه كان قد تعـــرف على مواقع بعض مواخير بغداد حتى قبل أن تطأها قدماه، مثلما كان يعرف أسماء بعض من محلات أبـــي نواس، حيث المدامـــة وأنـــس السكر.

الليلة الثالثة

حين صعدتُ الحافلة، وجدتُ أنها قد جلسـت في مقدمتـها تقريبا.. بنظرة واحدة عرفت أني لن أستطيع أن أجلس قريبا منـها، ولكني حرصت على أن أديم النظر إليها وأنا أمر بقربها، حتى منحتني نظرة خاطفة، جعلتني أطمئن إلى أنها عرفـت بوجـودي معهـا في الحافلة.. في آخر الحافلة وجدت مقعدا، فجلست وأنا أكـاد أسمـع وجيب قلبـي.. فاليوم هو اليوم الموعود.. إنتظرت حـتى ودعـت صديقتيها لأتبعها إلى موقف الحافلات، حيث لم يطل إنتظاري لأنها إستقلت أول حافلة أتت.. لم أنتبه إلى الرقم، ولكن ما همّني ذلك ما دامت هي موجودة.. وصلت الحافلة إلى محطتها الأخيرة، في سـاحة الميدان.. نهضت من مكاني، ولكني رحت أنـاور وأدع الآخـرين يتجاوزوني، حتى حان دوري في النـزول، وهـي واقفـة أمـامي مباشرة.. إفتر ثغرها عن ابتسامة.. شبح ابتسامة، ولكنـها كانـت رائقة، واضحة، متفهمة.. أول ابتسامة أشعر بها موجهة لي.. لي من دون البشر.. لم أتوقع أن يكون الأمر بهذه السهولة، فأشكل الأمـر علي.. كنت قد هيأت نفسي لمتابعتها فقط، لجعلها تعرف أني مهتم بها.. بل متيم بها إذا أمكن، لا يهم.. كان ذلك هو كل قصدي مـن متابعتها في ذلك اليوم، فإذا بها تقبل علي بابتسامتها هـذه بعـدما تصورتها، ستدبر.. كل تلك الأفكار تكالبت عليَّ في جزء من ثانية، وأنا واقف أمامها، أتطلع في وجهها ببلاهة وأنا أحـاول أن ألملـم

شتات ذهني.. كنت مبلبلا لأني لم أكن قد حضّرت مسبقا ما سأقوله لها، لأني أساسا لم أكن قد جهزت نفسي لهذا الإحتمال.. قل لها (مرحبا) مثل البشر أيها السخيف.. هكذا فكرت مع نفسي، ولكن الذي كان يشغل بالي ويهزني هو ما بعد (مرحبا) هذه.. كانت الكلمات كلها قد اختفت من ذهني.. إستحالت النقاشات التي خضتها معها في خيالي، إلى حروف مبهمة، غامضة، مشتتة لا يمكن أن تلد كلمة واحدة.. شعرت بأني إذا ما تفوهت بكلمة واحدة، فلن أعبر بها إلا عن مأفونيتي وغرابة شخصيتي.. شعرت بوجهي يتقد إحمرارا، فانتابني رعب.. فنزلت قبلها، حتى من دون أن أحاول السماح لها بالنزول قبلي كما كان يجدر بي في الأقل.. إبتعدت مسرعا عن الحافلة.. لم ألتفت.. كنت على يقين من أنها واقفة هناك تحرق ظهري بنظرات الحيرة والإستغراب.. بل والإستهجان، لربما.. لم ألتفت، بل سرت حتى شعرت بأن زحمة الناس في مجمع المواقف ذاك قد أخفتني عن نظرها، فبدأت أركض كالمجنون.. هيا أركض يا صرصار.. أركض.. أركض، لعلك تنسى ما جنيت للتو.. ما هذا الذي فعلته يا سليل الضفادع.. أهذا ما أردت، أن تضيع فرصتك الكبرى مع هذا الملاك الذي لم تكن تحلم أن يقع بصره عليك، ولو مصادفة.. أركض، لعلك تسلو، فهي لن ترتبط بكل تأكيد برجل، بل بنصف رجل، بل بمخلوق مقرف، غريب لا يمت لصنف الرجال بصلة.. هيا أركض.. أركض.. أو، أترى تلك الفتحة، هي تؤدي إلى المجاري فأهرع إليها، إنزل إلى هناك حيث ستنضم إلى عشيرة الصراصير التي تنتمي إليها.. أو إذا ما كنت سعيد الحظ، فلعل الجرذان ترتضي بك فردا منها.. أركض.. أركض يا (أبو الجعيل).. كل هذا وأنا أركض وأركض و لم أتوقف إلا في باب المعظم بعد أن

كدت أعجز عن التنفس.. توقفت و لم أعد أعرف ما أريد فعلــه، أو إلى أين أريد أن أذهب.. فقط كانت تعاستي هائلة، تكـــرّ الـــدموع على ثغور مقلتي، ولكن بقية من كرامة كانت تمنعها من النــــزول أمام الناس.. فمضيت أسير حتى أمنت عيونهم، فأطلقت العنان لتلك الدموع، عسى أن تغسل خيبتي.

تغيبت عن الجامعة بعد ذلك اليوم، ثلاثة أيام أو أربعة.. ولكني عدت بعدها، مضطرا طبعا.. خشية من فصلي بسبب كثرة الغيابات، ولأني أيقنت من أني لن أستطيع مواجهة أمي بقرار ترك الجامعة بعد كل ما قدمته لي.. كانت تلك الأيام عملية هروب مســتمرة مـــن مواجهتها.. كنت أحسب حسابا لكل خطوة أخطوهـــا في أروقـــة الجامعة، وعندما أراها من بعيد، أحيد عن دربها لكي لا يقع نظرهـــا عليّ.. كنت أتوق لرؤيتها.. لأنعم بالنظر إليها.. إلى وجهها الجميل، ولكني أيقنت من أني قد نفيت من نعيمها، حتى قبل أن أتنعم بـــه.. كان ذلك يهيجني.. يضنيني.. يكربني، ولكني أصررت على التصرف كشهيد.. أن أتصرف كرجل، في الأقل، في موتي النظري، بعد أن لم أستطع ذلك، في الواقع.. بدأت أحضر المحاضرات بانتظـــام، وحـــتى الوقت المتاح بينها، كنت أقضيه في القاعة.. وخلال الساعة الحـــرة، كنت أهرع إلى النادي، لأنها لم تكن لتذهب إلى هنـــاك أبـــدا، أو، هكذا تصورت حتى ذلك الوقت.

وفي يوم، استيقظت متأخرا بعد ليلة مســـهدة.. هرعـــت إلى هناك، فوصلت خلال الساعة الحرة.. سلكت الدرب الخارجي بعيداً عن الممرات التي يمكن أن أصادفها بها، لأذهب إلى النادي.. قبـــل أن أصل.. وجدتها أمامي.. مقبلة عليّ، لوحدها.. هي من دون بنـــات الجامعة، وأنا.. وجها لوجه.. جمدت في مكاني.. أي شيطان زين لها

أمر الذهاب إلى النادي في ذلك اليوم.. شيطان.. بل قل اي مـــلاك رحيم.. كنت في الأيام التي مضت قد أدرت حـــوارات متعـــددة في خيالي وأنا أعتذر لها، أسوّغ لها ما حدث.. وأقبـــل يـــديها طلبـــا للمغفرة.. ألتقت نظراتنا، فسد عليّ ذلك درب الإنسحاب من دون أن تراني.. كانت أمتار معدودة تفصلنا.. قررت السير والمرور مـــن جانبها كأي غريب.. تحركت، وعندما أصبحت قريبة جدا، رمـــتني بنظرة أخرى، فإذا بـــي أقول ومن دون وعي تقريبا:

- مرحبا.

كانت التحية إلى الهمس أقرب، ولكنـــها واضـــحة، لا أثـــر للإضطراب فيها، وهو ما لم أتوقعه.. نظرت إلي بهدوء وملامحهـــا لا تشي بأي إنفعال.. لم أستطع أن أتوقع ردة فعلها، ولكـــني كنـــت مستعدا لكل ما قد ترتئيه.. أن تتجاهلني.. أن تســـبني.. أن تبصـــق عليَّ، أو حتى أن تشرف خدي بصفعة.. تمنيت فقط أن تتصـــرف، لعلي أرتاح.. ولكن، لم يبد عليها أنها في سبيلها لفعل أي من هـــذه الأشياء.. فقط ظلت تتطلع إلي بهدوء..تصاعدت الدماء كالطوفـــان إلى وجهي، وزلزلني الاضطراب.. هأنذا أمام موقف غير متوقع آخر، ولكني لم أكن لأفوّته هذه المرة.. لم أنبس بحرف، بعد الـــ (مرحبـــا) بل بقيت واقفا أمامها بصمت وأنا أناضل للسيطرة على إنفعـــالاتي.. تماسكت، فخاطبتها في سري.. هيا قوليها.. قولي واحدة من تلـــك الجمل التي تعودت الفتيات أن تقولها في مثل هذه الأحوال.. قـــولي "ماذا تريد".. قولي "لم تلاحقني".. قولي فقط.. قولي أي من تلـــك الجمل السخيفة، التافهة، وحرريني.. سوغي لي تصرفي الأحمق ذاك، وأطلقي سراحي.. أعدك بأني عندها سأعتذر منك، وأبتعد، لتكـــون النهاية بعد أن يكون تحرري من العبودية لك، ناجزا.. آه، ما لـــك

تنظر إلي باستحسان هكذا يا سيدي.. أنا لا استحق ذلك.. أنا معتوه.. أنا الشخص الأكثر عتها الذي يمكنك أن تلاقيه في حياتك.. عمن كنت أتكلم.. عنها.. لقد عرفت منذ أول لحظة رأيتها، أنها فتاة متميزة، ومع ذلك راهنت على أنها يمكن أن تخطأ، بمجرد أن استطيع مسح هفوتي.. ولكنها أجابت بهدوء:

- أهلا.

وحتى نبرة الإستفهام التي ضمّنتها (أهلا)، وازنتها ببسمة، باهتة، ولكن رقيقة.. عذبة عذوبة كل الأرواح الرحيمة التي يمكن أن تجود بها الانسانية.. قالتها، ووقفت أمامي بثقة واضحة.. كان عقلي لحظتها، يعمل بسرعة هائلة.. هيّا أيها المأفون، قل شيئا فقد واتتك الفرصة، فرصة التصحيح ومعاودة العيش في حياة تشتهيها.. هيّا قل شيئا، ولكن ليكن شيئا معقولا.. جملة مفيدة.. قلت:

- أنا آسف.

قلتها من دون تلعثم فأكبرت في نفسي ذلك، شعرت بارتياح.. فكرت.. أرجوك لا تقولي "لم أنت آسف" فأنا لن أحتمل ذلك.. سيربكني الأمر ويلجم لساني مرة أخرى.. قالت على الفور:

- يجب أن تكون كذلك.

يا ملائكة السماء.. يا أرباب الرحمة.. أية فتاة هي هذه.. "يجب أن تكون كذلك".. ولكني كذلك، أقسم بالله، أنا كذلك.. أنا كذلك أيتها الرؤيا الجميلة.. يا آية الغفران.. أنا كذلك.. قلت:

- حقيقة، أنا آسف جدا.. لا أدري ما الذي جرى لي في حينها.

قالت:

- حسنا، أنا أتفهم، ولكني كنت أريدك أكثر.. أكثر.

ثم صمتت و لم تكمل، ولكني كنت قد فهمت، فهي تريـــدني أكثر رجولة.. حسنا هذا الأمر قد يكون خـــارج إرادتي، ولكـــني سأحاول.. أعدك بأني سأحاول.. من أجلك، سأفعل.. قلت:

- أنا أريد أن، تمنحيني فرصة أخرى.

هزت برأسها، ففهمت أنها قد وافقت، فإعتراني الفرح ولكني لم أقل شيئا أو أن أتحرك من مكاني.. لم أكن أعرف ما يجـــدر بـــــي عمله لحظتها.. وقفت كطفل انتظر أوامرها لأتصرف، ولكنـــها لم تتفوه بشيء، بل واصلت سيرها بالاتجاه الذي كانت تقصده عنـــدما تلاقينا، إلتفت لألحق بها، ولكنها توقفت والتفتت إلي وقالت:

- لا أرجوك، ليس هنا ولا الآن.. إنتظرني في الغد خـــلال الساعة الحرة، خارج الجامعة.. هنـــاك.. عنـــد مطعـــم غازي.. أتعرفه؟

قلت:

- أعرفه طبعا.

فهزت برأسها ثم واصلت سيرها.. إلتفت لأذهب إلى النـــادي، فتذكرت شيئا، فاستدرت ورفعت صوتي قليلا لتسمعني:

- ولكني لم أعرف اسمك بعد.

إلتفتت بسرعة وقد بان على وجهها أثر المفاجـــأة.. ولكنـــها سرعان ما ابتسمت، وقالت بصوت محايد:

- زها.

أجبت:

- أهلا يا زها.. أنا

ولكنها كانت قد واصلت مسيرها عندما قالت:

- أعرف، أنت يسار.

قالت في تلك اللحظات التي تملكني فيها إحساس هائل بتمازج الواقع مع حلم لذيذ ومشتهى:

- الآن.. هات ما عندك يا يسار.

انتبهت، فتسرب الحلم.. نظرت إليها وهي تسير بجانبي، إلتفتت إلي، تمعنت في عينيها، فغمرني الليل بكل جبروته.. قلت:

- ما الذي تريدين أن أقول؟

فابتسمت وقالت:

- اِسمعني ما تريد أن تخلب به لبي.

يا للسماء.. أية بداية هي هذه.. وأي إرسال.. لم يكن قد مضى على لقائنا في ذلك الصباح الأول، بعد ولادتي الجديدة، أكثر من خمس دقائق.. كانت قد أقبلت فيه علي، مبتسمة وباشة.. صافحتني، ثم بدأنا بالسير معا.. هكذا من دون مقدمات، فقط سرنا معاً وكأننا نعرف بعضنا منذ وقت طويل.. سارت واثقة بنفسها، هادئة.. فيما كنت أحاول لمّ شتات وعيي الضائع بين اللحظة الآنية وشعور متعاظم بحالة حلمية طاغية.. خمس دقائق أولى قضيتها بتلك الطريقة السخيفة المعتادة في السؤال عن الصحة.. والصحة.. والصحة بعد! فيما كانت تحاول أن تقهر ترددي بابتسامتها المشجعة، وعندما يئست من أن أكون المبادر بالارسال، ها هي تبادر.. كنت قد حدست مسبقا أنها لا تشبه أية فتاة أخرى، ولذلك وطنت نفسي على أن تتوقع كل ما قد لا يتوقع، منها، ولكن، ها هي تفوق التوقعات كلها.. ها هي تستطلع قوتي بإرسال في أقصى الزاوية البعيدة عني.. عرفت أنها اللحظة المناسبة لمسح الانطباعات السيئة التي يمكن أن أكون قد تسببت بها، عني.. استعنت بسحر الليل المنسكب من عينيها، الذي منحني قوة التركيز فجأة، قلت:

- باالحقيقة.

شعرت وكأن صوتي يخرج من أعماق شخص آخر، فترددت.. ولكن ضحكات عينيها أقالت عثرتي، فقلت متابعا بعد لحظات:

- أنا لم أنقطع عن إقامة الحوارات معك، منذ أن رأيتك أول مرة.. أما الآن، فقد تبخر كل ذلك من بالي.

ضحكت بصوت مسموع، ولكن، رقيق الوقع.. قالت:

- رد جيد.. غريب، ولكنه صريح ومباشر.. لنــــر إذا مـــا كنت تجيد الإرسال مثلما تجيد الرد.

فكرت "من تكون هذه المخلوقة، أتجيد قراءة الأفكار؟.. ما لها تتحدث عن الإرسالات.. أسمعتني حين كنت أفكر؟!" قلت:

- فقط امنحيني الوقت، وسترين من إرسالاتي ما يعجبك.

ارتسمت ابتسامة عذبة على شفتيها القرمزيتين من دون أي أثر لأي أحمر شفاه.. قالت:

- هذا يعجبني أيضا.

ثم سكتت لوهلة قبل أن تواصل قائلة:

- فماذا حلَّ بك في ذلك اليوم إذاً؟

إرسال صاعق آخر.. قلت على الفور، بعدما ساعدني رضـــاها عما قلت حتى تلك اللحظة، على إستحضار المزيد من تركيزي:

- أستطيع أن أشرح.

ولكنها قاطعتني قائلة:

- لا يهمني الشرح الآن، فأنا معك في هذه اللحظة.. ألست كذلك.

فقلت:

- ولكني أود الدفاع عن نفسي.

- معي، لا تحتاج إلى الدفاع عن نفسك، فأنا أحاول أن أفسر الأمور لمصلحتك.

قالت هذا مبتسمة، ثم سكتت قليلا قبل أن تختفي الابتسامة وتكمل:

- هذا بالإضافة إلى أني لا أسمع الآخرين عندما يتكلمون عن أنفسهم.. أنا أراقب وأستنتج.

في تلك اللحظة، لم يكن عندي ما يمكن أن أقوله، فقد كانت تجتاحني بأقوالها، مثلما إحتلتني من قبل بوجهها الجميل.. بقيت ساكتا وأنا أتمعن في وجهها، فقالت بعد قليل:

- أتعرف.. لو لم تبادرني بالتحية أمس، لكنت فقدت فرصتك إلى الأبد.

فقلت ببلاهة:

- كيف؟!

اِلتفتت إلي.. تمعنت في وجهي قليلا، قبل أن تقول:

- لأني لم أكن لأسامحك بعد أن أجبرت نفسي على الذهاب إلى النادي للبحث عنك بعدما إفتقدتك طوال أيام.. كنت قد لمحتك ذات مرة، ولاحظت أنك كنت تتفاداني، فقررت أن أشعرك بأني لم أزل مهتمة.

عندما نظرت إليها هذه المرة، لم يكن يهمني إن بدت عليَّ علامات البلاهة وأنا أحدق بها بتلك الطريقة.. من هذه الفتاة؟.. بل ما هي؟!.. أيعقل أن تكون بهذه العفوية.. والصراحة.. على الرغم من ذكائها الواضح.. لم أزل مهتمة.. أيعقل هذا؟.. قلت وأنا أكاد أرقص فرحا:

- ولكن لماذا.. خاصة بعد تلك التخبطات.

ردت على الفور:

- لي طريقتي الخاصة في فهم الناس، وقد عافت نفسي الإنتظار.. إنتظاره، ولذلك لم أشأ أن أفقد فرصة بدت لي ثمينة.

"أنا فرصة ثمينة" كان يجب أن يفرحني هذا.. ولكني شعرت في حينها بخوف مفاجيء.. نعم خوف.. يا أستاذ أنا كنت أعرف في ذلك الوقت صنفا واحدا من النساء.. العاهرات، وقد أتقنت لغة الحوار معهن لأنه سهل وبسيط، فهو يتمحور حول المال، وهو ما كنت أمتلكه.. أما الفتيات، فالصورة التي تكونت في بالي عنهن، كانت، أنهن مخلوقات ساذجة تتمترس بحذر وخشية مستمدان من تعاليم الأهل وطريقة التربية، ما أن يخترقهما الشاب بلطفه ودماثته، أو حتى بجمال وجهه، فإنه سرعان ما يواجه الخط الدفاعي الأخير الذي لا يحتاج لخرقه، غير معسول الكلام، وبعدها تتفتح أمامه خزائن اللذة.. أما هذه الفتاة، فهي ذكية كما هو واضح.. قوية وشجاعة وفوق هذا واضحة وصريحة.. كل ما يجعل من إحترامها أمرا واجبا.. وهذا كله يجعلها مشروعا لحب كبير وهو ما لم أكن أخطط له في ذلك الوقت.. كنت أريد أن أعبث.. فقط أعبث مع فتيات أشعر بهن خالصات لي.. لا أن يكنّ ملكية عامة.. نظيفات.. لا مدنسات.. تصور.. كنت أريد فتاة نظيفة لأدنسها بنفسي، ولكن حمدا لذلك الخجل المرضي الذي منعني من ذلك طوال الوقت.. أنا كنت أعرف الوسيلة، ولكني لم أمتلك يوما الشجاعة لأستخدمها، فراحت الفرص تنسل من بين أصابعي الواحدة تلو الأخرى وأنا اكاد اموت كمدا، وهاهي اليوم تقف أمامي، فتاة تشعرني بالخوف.. فتاة أعرف أني لن أستطيع خداعها.. فتاة ستجبرني على حبها، والحب يا

استاذ مسؤولية لم أكن مستعدا لها.. في لحظات إنتابتني واحدة من تلك الحالات التي أفكر فيها أن أتصرف بمثالية.. أن أقف أمامها، اصرح لها بما يعتمل في داخلي وأقول لها "أنا آسف، لن أستطيع الإستمرار معك، ولذلك وداعا" آه يا أستاذ لِمَ لَمْ أتصرف كذلك.. كان ذلك كفيلاً بأن يغير مجرى حياتي، ولكني لم أفعل، فقد قلت لك أفكر و لم أقل لك أتصرف.. صحيح أني شعرت بخوف ولكنه سرعان ما لُجم بالإنبهار الذي ملك عليَّ نفسي وجعلني أضعف من أن أرفض هذه الفرصة التي لم تكن لتتاح لي مرة ثانية.. كان عندي سؤال مهم أخير لأعرفها.. قد لا تؤثر الإجابة عليه على قراري بالرضوخ الكامل لها، ولكنه يبقى سؤالاً مهماً بالنسبة الي.. قلت:

- ماذا عن العراق؟

بدا عليها أنها تفاجأت بسؤالي، فقالت:

- ما به العراق؟
- ما الذي يعنيه لك؟

فاقتحمت ابتسامتها وجداني وهي تردد بصوت رخيم:

- **شوق يخضّ دمي إليه، كأنّ كلّ دمي اشتهاء**
  جوع إليه.. كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء
  شوق الجنين إذا اشرأبّ من الظلام إلى الولاده!

لم أسألها عمَّن قال ذلك، ولكن، منذ ذلك اليوم تكالبت علي المحفزات من إنبهار وتوق ورغبة عارمة فقررت أن أتجاوز نفسي وأتخطى الحدود التي فرضتها عليها، أو فرضها المجتمع من دون وجه حق، وأن أغرق نهائياً في حب زها.. وفي نفس اليوم، جلنا شوارع وأزقة المنطقة المحيطة بالجامعة، فصارت تلك عادة أسبوعية أدمنّا عليها.. نعم اسبوعية، فقد فرضت عليَّ ذلك، كما فرضت عليَّ أن

لا أكلمها في الجامعة.. لم تأبه لإعتراضاتي الخجولة، فكنا نلتقي كل ثلاثاء خلال الوقت المخصص للساعة الحرة.. تصور ساعة فقط، في الأسبوع، وإذا ما إلتقينا في الجامعة، كانـــت تتجـــاهلني.. أراهـــا، فينتفض قلبـــي ويتسارع نبضي.. يلتهب وجهي، ولكـــن وجههـــا يبقى محايدا، وتأبى أن تمنحني ولو نظرة واحدة.. ولكنها كانت تأتي دوما إلى لقائنا الأسبوعي وهي سعيدة، مرحة، متفهمة ومتفاعلـــة.. نخوض في شتى الأحاديث ونطرق موضوعات مختلفـــة، إلا الســـؤال الأهم، "ثم ماذا" لقد أصبحت حقيقة واقعة في حياتي، فنحن نلتقـــي على كل حال، ولكن ما الذي أريده منها.. لم أكن أعرف.. أنـــا لم أكن لأستطيع أن أتصور حياتي من دونها بعدما دخلت فيها.. ولكن، ما الخطوة القادمة، لم أكن أعرف، فيما بدت هي طـــوال الوقـــت وكأنها تختبرني لتتأكد من شيء ما.. كنا نجول ونجـــول في الأزقـــة والشوارع، ولكن نتفادى الزقاق الذي يقع فيه القسم الداخلي، بناء على رغبتها.. ولكن، كان يصدف أن نلتقـــي بـــبعض معـــارفي في شوارع أخرى، وعندها كنت أمتلئ زهوا وأتمايل فخرا، وأنا أشـــعر بنظراتهم، التي كنت أتجاهلها متعمدا، تكاد تلتهمني حســـدا.. لقـــد كانت زها يا أستاذ.. زها البغدادية، واحدة مـــن أجمـــل جميـــلات الجامعة المعدودات.. إن لم تكن أجملهن.. زها.. زهوي وانتصـــاري الذي لم أكن أجرؤ قبله حتى أن أحلم به.. كانوا يناكدونني عنـــدما نلتقي بعد ذلك، ولكنهم لم يكونوا قادرين يوما على إخفاء إعجابهم بما حققته.. كانوا مذهولين برؤيتنا معا، ولكنهم لم يكونوا ليعرفـــوا شيئا يا أستاذ، فقد كان كل الذي حققته معها حتى ذلك الحين، هو أني نصبت نفسي عبدا لها.. كنت أتمنى طوال الوقت أن تصرح بأيـــة أمنية لأنفذها لها على الفور، لو كان ذلك بامكـــاني.. ولكنـــها لم

تصرح بشيء.. كنت قد زدت إمداداتي من مساعدات أمي المادية، بمختلف الحجج، وشحنت جيوبي لكي أكون مستعدا لأية طلبات تطلبها.. ولكنها لم تطلب شيئا.. أبدا.. هي لا تحبني، كان ذلك واضحا من الحدود التي وضعتها لعلاقتنا، فقد منعتني حتى من لمس يدها خارج حدود مصافحتي اللقاء والوداع، ولكنها كذلك لم تعبر عن أي مطمع طوال الأسابيع التي تلت لقاءنا الأول.. فما الذي كانت تريده مني؟.. أكانت تأمل أن تستفيد مني فكريا أو ثقافيا؟.. آه يا أستاذ، انت لا تدري أي مهرج كنته في تلك الأيام.. ثم، ثم أنها كانت هي من يمتلك العقل الراجح والتصرفات المتزنة، فما حاجتها إلي.. على كل حال، هذه هي الأفكار التي كانت تنتابني في تلك الأيام، والتي أتذكرها، ولكنها ليست كلها، فقد كانت الأفكار تصطخب في وجداني طوال تلك الأيام المجيدة وأنا أجاهد لأعرف مكاني عندها، ولكن هيهات، فقد كانت أكبر من أن يستوعبها ساذج مثلي.. ولكن الحق أقول، كنت سعيدا طوال الوقت.. سعيدا إلى درجة لم أكن أتصور مثلها في دنيانا، حتى إني بدأت أعيد حساباتي مع الحياة التي كنت أتهمها حتى ذلك الحين أنها كانت ظالمة معي.. تصور، ظالمة معي، ولكن هكذا كنا.. محكومين بمحدودية تجربتنا وقلة خبرتنا.. المهم، إنقضت تلك الأسابيع بسرعة البرق، ومع منتصف الشهر الخامس من عام 1980 بدأت سحب الكآبة تفرض نفسها على سماء سعادتي الوليدة، فقد كان كل يوم يمضي، يقربني من فراق، عرفت مقدما إنه سيكون صعبا عليّ.

مثلما قلت لك، كنا نلتقي كل ثلاثاء، وهذا يعني أننا لم نكن نلتقي في يوم الجمعة من كل أسبوع، ولكني حرصت مع ذلك على أن أقضي جميع أيام الجمع التي تلت في بغداد، لأني استعذبت فكرة

أن تضمني وإياها، سماء مدينة واحدة.. قبل نهاية السنة الدراسية، كنت قد استنفدت كل معيني من الحجج التي كنت اقدمها لأهلي، مسوغا عدم ذهابي إليهم في نهايات الأسابيع.. ولكني لم أرهم إلا بعد أن أكملت إمتحاناتي النهائية، وفقدت كل أمل في أن أراها، فهي لم تخبرني عن عنوانهم، ولم تزودني برقم هاتفهم.. بل لم أعرف أساسا إن كانوا يمتلكون هاتفا.. كان زملائي يزورون أهاليهم في المحافظات القريبة من بغداد خلال العطل، ولكني لم أفشل يوما في إيجاد زميل من المحافظات البعيدة ليقضي معي يوم الجمعة، الكريه بالنسبة لي، وأنت تعرف أن بغداد كانت مدينة لا تخلو من وسيلة للترفيه، وهو ما لا تتمتع به بلدتي الصغيرة، وكان هذا سببا مضافا لي، للبقاء.. كنا نقضيه في دور السينما، والتسكع في المقاهي، ثم معاقرة الخمرة، منذ المساء وحتى ساعات متأخرة من الليل.. وعندما كنت لا أجد رفيق (محافظات) كنت ألجأ إلى البديل الحاضر دوما.. معن اللطيف الذي لم يجد غضاضة في مرافقتي إلى (البارات) بعدما أعفيته من خطه الأحمر.. بيوت الدعارة، التي حذفت فقرة زيارتها الدورية، بعد بدء التاريخ (الزهائي) في حياتي.

في آخر أسبوعين قبل الامتحانات، رضخت زها أخيرا، فوافقت على أن نلتقي في غير الثلاثاء، ولكن، بعد ان أجبرتني على أن اعدها ببذل جهد أكبر استعدادا للإمتحانات التي لم أكن أعرف حتى ذلك الوقت إن كنت سأخوضها أم لا، فقد كان بالي خاليا من أي أثر لبعض المحاضرات أو فهم لبعض المواد.. التقينا خمس مرات في اسبوعين، ولكن الحظ شاء أن تكون مواعيد إمتحاناتنا متطابقة، لذلك رحنا نلتقي بين يوم ويوم طوال أسبوعين آخرين.. نهرع كلانا إلى مكان اللقاء بعد الإمتحان حيث أعمد إلى ترصين مواقعي التي

حققتها مؤخرا في أعماقها، فقد بدت أكثر إنفتاحا معـــي، ولكنـــها كانت تستوعب إندفاعاتي دوما بابتسامة متفهمة.. كنت أثرثر طوال الوقت وهي تصغي أكثر مما تتكلم، ولكن هذا لم يمنعها من منحـــي كركرات كانت تبدو كزقزقة عصفور عندما أهال عليها بنكاتي التي كنت أجهد النفس لجمعها من صحبـــي.. وعندما يحـــين موعـــد الفراق، لم تكن تتخلص مني ومن إلحاحي عليها بالبقاء إلا بتقطيبـــة رحيمة تجبرني على الإنصياع.

الفراق.. آه من الفراق، فقد حل أخيرا يوم الســـفر.. هـــي أصرت على أن لا تدلني على ما قد يصلني إليهـــا في العطلـــة.. لا عنوان، ولا رقم هاتف، وحتى أمل اللقاء في الجامعة أو في محيطها لم تسمح لي به لأنها أكدت أنها لن تأتي إليها إلا مـــع بدايـــة العـــام الدراسي الجديد.. بعد الإمتحانات، إلتقينا في ذلك اليوم الكئيب.. كان الشعور بالفراغ يضرب معدتي بشدة، فيسبب لي ألما لا يطاق، ولكني لم أعلن عنه لكي لا أفسد اللقاء الأخير.. عندما كنا نســـير متجاورين، تداعيت أنا مع مشاعر الحزن التي تكاتفت مـــع الألم، ضدي، ففضت شروحا لجوانب عميقة في نفسي، فيما كانت هـــي تصغي، ولا تعلق إلا لماما، ولكني كنت أتشجع بتفهمها وتعاطفها، اللذين وشت بهما، ملامحها، فتجاوزت نفسي، ورحت أشرّحها لها كما لم أفعل من قبل.. كنت أعرفها جيـــدا إذذاك، وأدرك مـــدى تقديرها للصراحة، فركبت موجة البوح الصادق الـــتي إنتـــابتني في ذلك اليوم، إلى أقصى مداها، فكشفت جوانب من نفسي لم أتجـــرأ قبلها على البوح بها، ولن أتجرأ بعدها.. كانت مجرد أفعال صبيانية.. أو حتى طفولية، ولكنها كانت تثقل على النفس كثيرا، وما أن بحت بها، حتى كفت عن أن تكون كذلك.. أمعنت يومهـــا في حـــرث

أعماقي، لأريها الجانب الأصدق فيها، ويبدو أنها شعرت يومها بمدى صدقي ولذلك بدأت تتابعني باهتمام وانتباه واضحين، وقد إختفت ابتسامتها الحلوة من وجهها، الأمر الذي أضفى عليه إمارات حزن شفيف.. كنت على يقين من أنها تتحسس معاناتي بعمق وأنا أطلعها على ما لم أقله لأحد غيرها أبدا، حتى أني خشيت أن تبكي، بعدما لمعت عيناها للحظات.. في ذلك اليوم شعرت بمدى قربي منها لأول مرة، فشعرت عندها بجذل مسكر لأني أيقنت أني قد أحرزت أخيرا تقربا هائلا من قلبها الذي أبى أن يفتح لي أبوابه قبل ذلك اليوم.. نسيت الفراق القريب، فتحدثت وتحدثت وهي تستمع وتنصت وتصغي، وعندما إنتهيت، منحتني ابتسامة، أنستني بقايا الألم الذي هزمت شدته أمام نشوة الفرح.. ولم تكتف بذلك، بل لامست بأصابعها، يدي القريبة منها.. أجفلت، ولكني سرعان ما تداركت حالي، فحاولت أن أمسك بيدها، ولكنها سحبتها بسرعة وهي تبتسم لي معتذرة.

كان الوقت قد أدركنا، فحان الفراق، تهاوت سعادتي المؤقتة.. توقفنا متواجهين، فشملنا الصمت لثوانٍ طوال.. كانت هي تتطلع في عيني مباشرة، وأنا أداري رغبة كبيرة بالبكاء.. كنت أعرفها جيدا، وأتوقع أنها لن تتقبل مني دموعا في الوداع، فقد كانت تبحث طوال الوقت الذي مضى عن الرجل في داخلي، فتصورت أني سأعطيها صورة مشوهة عن رجولتي إذا ما بكيت.. يا للسخافة لِمَ لا يبكي الرجال.. أليسوا بشرا، ألا يحبون.. ألا يهتمون.. ألا يشعرون.. لقد أيقنت فيما بعد أنها لم تكن لتحسب الأمر ضدي، ولكن هذا ما كان من أمر تصوراتي في تلك اللحظات.. قالت أخيرا:

- إذا؟

لم أجبها، بل هززت برأسي حائرا، وقد قلبت شفتي تعبيرا عن جهلي لما أريد قوله في تلك اللحظات.. قالت:

- يجب أن أذهب الآن، فقد تأخر الوقت.

قلت وأنا أحرص على أن يكون صوتي بالطبقة الأدنى لكي لا يفضحني إرتجافه:

- أرجوك.

فقالت هي على الفور:

- بل أرجوك انت.

ثم أضافت بعد هنيهات:

- ثم إن تأخير الأمر دقيقة أو دقيقتين، لن يغير من الأمر شيئا.

وسكتت قبل أن تضيف مرة أخرى:

- هيّا، يجب أن نفترق الآن، فما هي إلا أشهر قصار.

تضاعفت إذ سمعت تلك الكلمة منها، رغبتي في البكاء، فلم استطع أن أرد بشيء.. قالت هي:

- هيا، أنا أعرف ما تعانيه، ولكننا يجب أن نتصرف بواقعية.

ما أعانيه أنا!.. نعم أنا أعاني.. ولكن ماذا عنها.. ألا يعني هذا الفراق لها شيئا.. ألا تعاني.. كنت منذ لحظات على يقين من أنها أصبحت قريبة جدا مني، فما هذا؟.. هي تعرف ما أعانيه بسبب فراقها.. ألا تعاني هي لفراقي.. إختلط عليَّ الأمر، و لم أعد استطيع التركيز، قلت "حسنا" وكان ذلك لمجرد التخلص من هذا الموقف الذي يزداد إيلاما لنفسي.. وعندها حدث ما لم أستطع توقعه أبدا.. فقد باغتتني، وبحركة سريعة، لتطبع قبلة عجلى على خدي.. قبلتني واستدارت لتبتعد من دون أن تلتفت إلي مرة أخرى.. ألجمتني

المفاجأة و لم أستطع التصرف، حتى بأن انبس بحرف واحد.. وقفت أراقبها وهي تبتعد بخطواتها السريعة لتختفي خلف البنايات.. لبثت في مكاني مصدوما حتى بدأت أستوعب ما حدث.. قبلتني، صحيح على خدي، ولكنها قبلتني، فهل هذا يعني أنها تحبني.. ليتني يا أستاذ لم أسأل نفسي هذا السؤال، فلعبة الإحتمالات لعبة خطرة، فإن أوّلت القبلة على الخد، حبا، فماذا عن (تعانيه) تلك.. قبلتني لأنها تحبني، فهل هي تحبني إلى درجة أنها تتركني أعاني الفراق، لوحدي.. ما هذه القبلة؟.. أهي قبلة حب وليد، أم أنها قبلة إعتذار لأنها شعرت فجأة أنها لن تستطيع أن تستمر في التواصل معي.. لا يا زها.. إلا هذا.. أنا لن أستطيع أن أملأ فراغك في حياتي.. لا، ليس الآن.. صبرا علي.. ولكن لِمَ التشاؤم.. لِمَ التركيز على هذا الاحتمال.. هو خمسون بالمائة، فماذا عن الخمسين الأخرى.. كان الإحتمالان واردين، و لم أستطع طوال الأشهر التي تلت، أن أرجح كفة أحدهما على الأخرى!

كانت أم يوسف شيوعية فريدة من نوعها.. فرغم تحمسها الشديد للشيوعية التي لم تكن تعرف عنها شيئاً، إلا أنها كانت ذات دين قويم.. كانت حريصة على تطبيق كل ما عرفته عنه واستوعبته، ومنه صيام شهر رمضان الذي كانت طقوسه بالغة الاحترام في بيتها لأن الزوج كان متدينا هو الآخر.. وهكذا بدأ يوسف يتعود الصوم منذ أن بلغ السابعة من عمره، وفي الثانية عشر، بدأ يصوم الشهر بأكمله.. كان يجد عناء كبيراً في ساعات النهار وهو صائم خاصة عندما تغازل المشهيات حواسه، وما أكثرها في بيتهم.. لكنه كان يعشق لحظات الافطار وهو ينتقم من كل الضيم الذي أصاب شهيته المتحفزة منذ الفجر حتى الغروب.. كان يعشق حتى حالة الارتخاء التي يصيبه الشبع بها، بعد طول جوع، فيغفو لساعة أو أقل قبل أن يستيقظ ليسرع إلى الشارع الذي تحلو فيه الألعاب المستمرة إلى ساعات متأخرة في الليل، في رمضان.. ولكن أحواله تغيرت بعد أن تورط بعادة التدخين وهو في السادسة عشر تقريباً.. في أثناء السنتين اللتين تلتا ذلك، كان يتسلل في رمضان بعد أن يحتسي شاي ما بعد الفطور، ليجلس مسنداً ظهره إلى صديقته النخلة المنفردة الكائنة خلف بيتهم، ويدخن لفافته السحرية.. سحرية لأنها تفعل فعل المخدرات في وعيه فيتيه في عالم هو في نقطة ما بين وعيه وخياله المرهف الذي كان يجمع صوره ليستعين بها في الغد حين يهرع إلى مخبأه القريب من سكة القطار.. لأن الصوم لم يكن يمنعه من مزاولة العادة السرية التي سيطرت عليه، ولطالما تحمل الشعور بالذنب لذلك، وحاول أكثر من مرة أن يقلع عنه، ولكن كان يفشل في كل مرة.

بعد أن أدمن التدخين، لم يعد يطيق فراقاً عن محبوبته، اللفافة، فأباح لنفسه تدخين لفافتين أو ثلاث في اثناء نهارات رمضان في

السنوات التي تلت، ثم اضاف اليها شربتي ماء أو ثلاث، قبل أن يعود إلى البيت ليشارك أهله الإفطار كأي صائم، فأضاف بذلك هموماً أخرى لنفسه لأنه شعر أن خطاياه قد زادت كثيراً بسبب ذلك.. وقد ظل يعاني من تلك المشاعر الممضة حتى قرر أن لا يصوم رمضان خارق القيظ ذات عام، على أساس أنه كان مشغولاً بالتهيؤ لامتحانات الدور الثاني للسادس الاعدادي.. ولم يصم بعد ذلك أي من رمضانات حياته.

الليلة الرابعة

عدت إلى بيتنا، مرغما، فقضيت أشهر تلك العطلة الطويلة وأنا على أسوأ حال، فقد كانت معنوياتي تنتقل طوال الوقت ما بين ذرى التفاؤل ودرك التشاؤم.. عندما عدت، تصرفت أمي وكأني عـــدت من غياب سنوات طويلة، لا مجرد شهرين.. رابطت هي في المطـــبخ طوال الوقت لتحضر لي الوجبات، فيما جعلت أخـــتيّ البـــاقيتين في البيت تتناوبان على خدمتي، فما دمت في البيت، يجب على أحديهما أن تكون قريبة لتلبية طلباتي رغم أن حضوري كان شبحيا لا أكثر، فذكرى تلك القبلة المحيرة كانت تحرمني من راحـــة البـــال.. حالمـــا أتذكرها يثور السؤال الرهيب.. ماذا كانت تعني، فيعصـــف بــــي القلق، وتزري بـــي الظنون رغم الإحتمالات الإيجابية، ولكن، ماذا لو كانت إعتذارا.. كيف سأقضي بقية حياتي.. ســـأموت.. حتمـــا سأموت، فلا قبل لي على مواصلة الحياة من بعدها.. شعرت أمـــي، بل حتى أختيّ، بحالي، فحاولن الاستفسار، ولكني لم أخبرهن بشيء، بل بقيت أتعذب لوحدي وأنا أتساءل، "كيف يمكنني أن أكون وأنا بين أهلي، (محاطاً) بها طوال الوقت؟"..

في ذلك الصيف، زرت بغداد ثلاث عشرة مرة.. كانت الأولى حين سمعت أن نتائج الإمتحانات قد ظهرت، فلم تمض ساعة حـــتى وجدت نفسي راكبا بإتجاه بغداد.. كنت في أعماقي أخشـــى مـــن النتيجة، بسبب زها طبعا، لأني لم أكن لأهتم بالنتيجة بالمرة، ولكـــن

الذي كان يجعلني أستبطئ السائق هو شوقي إليها، وآمل بأن ألقاها هناك، رغم أنها أخبرتني أنها لن تذهب إلى الجامعة أبدا.. في الجامعة، كانت المعجزة بانتظاري.. لا، لا، لم أرها هناك، بل إكتشفت أني قد نجحت.. كان هذا بعيدا عن توقعاتي الأكثر تفاؤلا، ولكن هذا لم يكن ليفرحني، لأني كنت مشغول البال بها وأنا أذرع الممرات والأروقة لعلي ألتقي بها.. ولكن هيهات.. وبعد يومين من خيبات الأمل المتتالية، عدت حزينا إلى بلدتي، و لم تنقذني زغاريد أمي عندما عرفت بنجاحي، ولا تهاني أبي وأخواتي، من هوة الإحباط التي سقطت بها.

في تلك الأيام، بدأت بالإهتمام بمكتبة أبي الصغيرة.. كان دائما يحثني على القراءة، ولكني لم استجب له يوما، بل لعل تشجيعه ذاك كان واحدا من أسباب إبتعادي عن المطالعة.. كانت قراءتي حتى ذلك الوقت مقتصرة على الكتب والأدبيات والنشرات الحزبية.. لا، لا، بل الحزب الشيوعي يا أستاذ.. ألم أقل لك أني كنت شيوعيا.. بلى، كنت كذلك، بل كنت أصغر شيوعي في بلدتنا، فقد إنضممت إلى الحزب بعمر ستة عشر عاما.. لا أدري.. لعله قدري أن أكون كذلك، فقد ولدت في بيت شيوعي.. شيوعي بحكم الأم المسيطرة.. لا، أبي لم يكن كذلك، بل كان متدينا، والغريب أن أمي الشيوعية لم تخل بواجباتها الدينية أيضاً.. كان أبي مثقفاً لأنه معلم.. معلم من الطراز القديم، وأنت تعرف ما يعني هذا، ولكنه لم يكن شيوعيا، رغم أن هذا لم يمنعنا من أن نكون شيوعيين جميعا.. بالحقيقة، أنا انتميت إلى الحزب وهم ظلّوا شيوعيين بقلوبهم فقط.. المهم، كنت قد قرأت الكثير من النصوص الشيوعية التي كان الحزب يوجهنا إليها، كما قرأت الأدب الماركسي، وإطلعت على كتب

لينين وستالين وماركس وأنجلز، ولكني لم أكن قد قرأت الكتب التي حدثتني عنها زها، من روايات أو دراسات لا علاقة لها بالشيوعية، وعندما واجهني كتاب لجيمس جويس في ذلك الصيف، كان هو خياري الأول، لم أهتم لكونه كتاب بورجوازي.. فهو في الأقل ليس كتابا لتروتسكي.. أوه لا، لا تهتم لذلك، فهو واحد من المنشقين عن الحزب، هو وآخرون من أمثال كاوكسكي أو برنشتاين، وكنا نتفادى قراءتهم.. على كل حال، فقد كنت أفكر في حينها بزها.. لا بالحزب الذي كان قد إختفى في ذلك الحين.. أو هكذا تصورت.. فحين بدأ الرفاق يتسربون ويختفون من حياتنا، سواء بالاعتقال، أو السفر الجماعي، قبعت أنا بالبيت لا أغادره إلا نادرا.. كانت أياما مرعبة يا أستاذ، وأمي.. ليتك ترى حالها في تلك الأيام، لقد إنقلبت إلى لبؤة جريحة، كانت متحفزة طوال الوقت للدفاع عني.. أنا، إبنها الوحيد.. غاليها.. حتى إنها شجّت رأس ذلك المسكين الذي شاء حظه أن يطرق بابنا ذات يوم.. هجمت عليه بملعقة الطعام الكبيرة التي تستخدمها في الطبخ لأنها ظنته من رجال الأمن جاء ليلقي القبض عليَّ، فتبين إنه غريب أضاع درب بيت أقاربه، فطرق بابنا ليسأل عنهم.. أنا لا أعرف ما الذي حدث، ولِمَ لَمْ يلقى القبض عليَّ في حينها.. يمكن أن يكون السبب صغر سني، ولكني لا أعرف.. الذي أعرفه أنها كانت أصعب أيام حياتي على الإطلاق، فقد كان ألم معدتي مستمرا وأنا أخشى أي طرقة باب، أو صوت مفاجيء.. كنت أحاول أن أمثل دور غير المبالي وأنا أنعم بحماية أمي، ولكني لم أكن كذلك، فبقيت لأشهر أعاني حتى تكفلت الأيام بتهدئة مخاوفي.. ولكني لم أشأ أن أحدثك عن هذا، بل عن خيبتي الكبيرة في الكتاب الأول الذي إنتقيته لأقرأه.. كان عنوانه شيئا عن

فنان وصورة ما، لجيمس جويس.. إبتدأت، فلم أفقه من الأمر شيئا.. أعدت قراءة ما قرأت ولكن لا فائدة.. أنا الذي هضم تعقيدات المصطلحات الشيوعية، واستطاع ان يتواصل مع بعض طروحات رأسمال ماركس.. أنا صاحب الاستشهادات الراقية من كتاب (ما هي الشيوعية) كما يقول رفاقي، لا أستطيع أن أفقه ما يقوله هذا البرجوازي.. بعد عدة محاولات فتّ في عضدي، والقيت الكتاب يائسا بعدما خاب ظني في أن أستعين بالمطالعة لأسلو همومي قليلا.. فلجأت بعدها إلى سماع أم كلثوم التي لم أهتم بها حتى عرفت أن زها تعشقها.. سارعت ذات يوم إلى السوق حيث اشتريت (مسجلا) ثم عرجت على محل التسجيلات الوحيد في البلدة حيث اشتريت كل ما وجدته عنده من أشرطة أم كلثوم، وهي لم تكن كثيرة على كل حال.. عندما استمعت، سمعت عجبا، فعجبت لنفسي كيف أني لم أنتبه لها من قبل، وهكذا اصبحت هي والمطالعة، بعدما تصالحت معها من خلال نجيب محفوظ ورواياته الممتعة والمفهومة، من وسائل الترفيه التي كنت أخفف بها عن نفسي، وأنا أعاني من ثقل تلك الأيام الظالمة، التي خفف بعض إيلامها للنفس أيضا، لقائي بصديق الطفولة (مهدي).. فرحت بلقياه، بعد طول فراق، كثيرا، واعتبرته بشارة خير.. كنا قد إفترقنا قبل سنوات بسبب مهنة والده، كان ضابطا في الجيش، والضباط كما تعلم، دائمو التنقل بين المحافظات، فكان يأخذ معه أهله أينما ذهب.. عندما إلتقينا بعد كل تلك السنوات، اقبلت عليه بلفهة، وأستودعته كل ما كانت نفسي تنوء بحمله من آمال، ومخاوف، وعندما أخبرته عن القبلة.. ضحك.. ضحك عليَّ كثيرا، وقال لي بالحرف الواحد، أنا أتذكر كلماته وكأن ذلك حدث بالأمس فقط:

- ما الذي تريده بعد؟.. لقد قبلتك، وهو ما لا تفعله حتى بنات بغداد، فما تريد.. أن تقبلك على فمك لتفقه.. هيّا يا أخي، إن فعلت هي ذلك، فما الذي يتبقى لك كرجل.

تجدد الأمل في داخلي بعد كلمات مهدي هذه، ولكني سرعان ما عدت إلى لجة الخشية والكآبة، فمهدي لم يكن حاضرا، ولا يمكنه أن يفهم الظروف التي حدثت كما هي بالضبط، فما الذي يؤكد لي أن إستنتاجه الفوري صحيح، ولكن حضوره كان مهما جدا لي على كل حال.

سافرت كثيرا إلى بغداد على أمل لقائها، ثلاث عشرة مرة كما قلت لك، وإذا إفترضنا أني قضيت في كل منها ثلاثة ايام كمتوسط فإن هذا يعني أربعين يوما.. أي أني قضيت ثلث العطلة في بغداد، أبحث عنها.. لم أكن آبه لمدى إقتناع أهلي بالأعذار التي أقدمها لهم تفسيرا لتلك السفرات، فقط كنت أستجيب لكل أمل جديد ينبعث في داخلي، فما أن أشعر بأني يمكن أن ألتقيها، ولو مصادفة في منطقة الميدان، مثلا، حتى أبادر إلى تنفيذ قراري بالسفر.. في بغداد، عانيت الأمرين طوال تلك الأشهر الجهنمية، إبتداء من مشاعر الإحباط المقرفة، وحتى معاناة النوم في الفنادق القذرة الرخيصة التي كنت أقضي لياليّ فيها.. أمر مقزز أن تضطر للنوم في فراش قذر.. نوم، ومن كان ينام، فقد استخدمت تلك الأسرة ككراسي لأريح نفسي عليها، وعندما أغمض عيني، فأفعل ذلك وأنا أسند ظهري إلى الحائط، فبعد أن إكتشفت ذات يوم براز قطة على فراش في فندق، لم أعد أستطيع أن أتمدد على فراش فيها أبدا.. وفي النهارات، كنت ألف وأدور وأتبع كل فكرة يمكن أن تخطر لي ببال وفيها ولو أمل ضئيل في ان يتحقق ذلك اللقاء المشتهى.. أتعرف، كنت أذهب

دائما إلى الجامعة، ومن هناك أستقل حافلة إلى الميدان، لكي أستقلها في المرة التالية للذهاب إلى الجامعـــة، وعســـى ولعـــل.. ولكـــن لا جدوى.. حتى صديقاتها، كنت آمل أن ألتقي بإحداهن وإن كنت لا أجرؤ على سؤالها عنها.. كنت فقط آمل أن أرى واحـــدة منـــهن عسى أن تخطر فكرة على البال في حينها.. ولكن أبى الحظ علـــيَّ إلا الخذلان.. كنت أعود دائما إلى البيت، إلى أهلي، تعبـــا، منـــهوكا، تتلاعب الخيبة على وجهي الكئيب، فأحتاج إلى وقت طويل حـــتى يزول أثر الأيام القاسية عن جسدي، ولذلك كان لا بد وأن أفـــرح بالفرصة التي أتاحتها لي زيارة ابن خالتي (عدنان) لنا.. فقـــد حـــلَّ ضيفاً علينا ذات يوم حينما أتى إلى البلدة لأمر يخصه واختار المبيـــت عندنا.. إحتفى به البيت.. حتى والدي، الذي يفترض به أنه يكـــره اقارب أمي، إحتفى به بشكل غريب.. إحتفى به البيت كله، ولكنه إحتفى بـــي أنا، عندما عرف أني أدرس في الجامعـــة المستنصـــرية، القريبة من بيته في بغداد.. عندما عرف من أمي أني أذهب دائما إلى بغداد، وأني أقيم في الفنادق، أبدى إعتراضه وأصر أن تكون إقـــامتي في بيته.. بل أنه عرض عليَّ أن أترك القسم الداخلي، لأقيم عنده في بيته، وهو ما رفضته، ولكني رحبت بفكرة أن أقضي الأيام القليلـــة التي أقضيها في بغداد عندهم.. وبالفعل، ففـــي زيـــارتي التاليـــة إلى بغداد، إتصلت به هاتفيا، فهرع إلي ليقودني إلى بيته الصغير.. وطأت عتبتهم مترددا لأني لم أكن أعرف شيئا عن زوجـــة إبـــن خـــالتي، ولكنها فاجأتني باستقبال لم أكن لأحلم بأفضل منه حتى من خـــالتي نفسها.. وهكذا تحررت من هم الفنادق، ورحت أحل عليهم ضيفا كلما عدت إلى بغداد بامل متجدد، فكانوا يستقبلوني إستقبال واحد من أهل بيتهم.

حلَّ أخيرا شهر أيلول، حينها بدأت نذر الشر تتجمع مثلما تتجمع الغيوم السود التي تنبيء بالعواصف الضارية، ولكني لم أعبأ كثيرا بالأنباء المتضاربة عما يحدث على الحدود مع إيران، ولا أخبار القصف المتبادل، إذ لم أكن أستمع إلى الأخبار أساسا، فهي شأن في عالم لم أكن أمت إليه في تلك الأيام بصلة وأنا مشغول البال طوال الوقت بزهاي.

تجمعت نذر الشر، وتكاثفت من دون أن ننتبه لها، حتى هبت عاصفة هوجاء كان مقدرا لها أن لا تبقي ولا تذر.. فجأة، أعلنت الحرب مع إيران.. كنت أنا أعد الأيام بالساعات، بل بالدقائق أحيانا، أقسم اني فعلت ذلك، أعدها حتى يحين موعد بدء العام الدراسي الجديد، وإذ استبشرت بحلول الثلث الأخير من أيلول المؤدي لمطلع تشرين الأول الموعود، بدأت الحرب، هكذا من دون سابق إنذار، أو إننا لم نقدر الإنذار حق قدره، ولكن المهم هو أن الحرب قد بدأت، فكدت أفقد رشدي.. لا، أنا لم أفكر بالبشر الذين سيتساقطون ضحايا لهذه الحرب.. لم أفكر بالدمار الذي سيحل.. لم أفكر بالمآسي التي ستدور.. بل فكرت فقط بزها، وماذا لو أثرت الحرب على الدوام، ماذا لو ألغته الحكومة بسبب ظروف الحرب اللعينة.. كيف ستكون حالتي عندها.. لا يا ربي، أنا لن أحتمل ذلك.. ألا تكفيني سُحُب الشك التي أتلمس دربي خلالها طوال الأسابيع والأشهر التي مضت.. أنا أعرف يا ربي أنك لم تعلن هذه الحرب، ولكنك تستطيع بالتأكيد أن تطفئ نارها، فافعل وارحمني.

يا للانسان! لكم يبدو أنانياً وتافهاً حين لا يفكر إلا بهموم نفسه، لم أستطع أن أتوقع موت مئات الآلاف من الأبرياء بهذه الحرب الظالمة، بل فكرت بمدى سوء حظي لأن بداية السنة الدرسية قد تأخرت.

في غمرة اليأس الذي كلكل عليَّ، واتتني فكرة مجنونة أخرى، قررت أن أنفذها، فقد عرفت أني لن أستطيع أن أستشف حقيقة الوضع وأنا في بلدتي البعيدة، فقررت أن أذهب إلى بغداد.. في اليوم التالي، لطمت أمي خدودها.. إرتفعت صرخات أخواتي مع بكائهن، ولكني غادرت البيت مصحوبا بلعنات أبي وشتائمه، متوجها إلى

بغداد للمرة الثالثة عشر خلال ذلك الصيف الطويل جـــدا، جـــدا.. هناك، توجهت فورا إلى بيت عدنان الذي فوجيء بـــي عندما فتح الباب، وكذلك فعلت زوجته، ولكنهما إستقبلاني خير اســـتقبال.. كنت منذ أن دخلت بغداد، أسمع طوال الوقت، أصوات صـــفارات إنذار ودوي إنفجارات، قريبة وبعيدة وأصوات محركات طـــائرات هادرة وهي تخترق السماء في مكان ما من فوقنا.. لم أعرف ما يدور رغم علمي أنها الحرب لأني كنت مشغول البال بنفسي.. مع أقـــداح الشاي أبدى عدنان وزوجته إستغرابهما من قدومي إليهما في مثـــل هذا اليوم الذي كانا يفكران فيه باللجوء إلى بلدتنا هربا من حـــرب الطائرات الدائرة في بغداد.. قالا إن هذا حالها منذ صـــباح ذلـــك اليوم.. لم أعد أذكر ما قلته لهما، ولكنهما لم يلحا في ســـؤالي، بـــل إنتقلا إلى حديث الحرب الذي يبدو أنه أصبح الحـــديث المفـــروض للملايين، في بلدين بأكملهما.. بعد حين، أعربت عـــن رغـــبتي في الخروج، فهب الزوجان يرفضان الفكرة.. أنا لم أكن أعـــرف مـــا يفترض بـــي عمله، ولكني فقط أردت الخروج لعمل شـــيء مـــا، وعندما قال عدنان:

- وهل تتصور أني سأسمح لك بـــالخروج في مثـــل هـــذه الظروف، لا يا عزيزي يسار، أبدا.. ثم إن خالتي ستقتلني إذا ما حدث لك شيئا ما.

أسقط في يدي، وأضطررت للرضوخ لرفضـــهما، فبقيـــت في البيت لأتابع معهما الأصوات المقلقة التي نسمعها بين آونة وأخرى.

قبيل العصر، سمعت صوت الطائرات مرة أخرى.. أتبعها صوت قذائف مقاومة الطائرات مثلما أخبرني عدنان، وأخيرا سمعنا صـــوت الصفارات وهي تعلن بدء غارة أخرى.. أصخت السمع في محاولـــة

لتخمين المكان المقصود، فإذا بإنفجار هائل يهز أركان البيت، وما هي إلا ثوان حتى سمعت أصوات قرقعة كبرى وإرتطامات.. تأكدت فقط أننا لسنا المعنيين بالإنفجار، ثم خرجت راكضا إلى الحديقة، فإذا بسحب دخان أسود وتراب ترتفع من مكان قريب جدا لم أستطع تحديده بالضبط.. هرعت إلى الباب الخارجي وعيون زوجة عدنان المرعوبة تتابعني، فتحته وانطلقت خارجا من دون أن أستمع إلى إعتراضها.. ألفيت الناس يتراكضون باتجاه معين، فركضت مع الراكضين، لأقف معهم أمام بيت بدت آثار الدمار واضحة عليه.. كانت الصرخات تملأ أركانه.. تساءلت عمّا حدث، فأخبرني أحدهم أن جناحا لطائرة إيرانية إنفجرت فوق المنطقة، وقع على البيت.. لم أعرف في حينها مدى صحة ما قال، ولكن المؤكد هو أن البيت قد حلت به كارثة.. لم أجرؤ على الدخول، بل بقيت واقفا لأرى ما سيكون.. بعد قليل، أخرج رجل محمولا على (بطانية) يشدّ اركانها الأربعة، رجال من الذين هرعوا للنجدة، وعندما رأيت الدماء التي تغطيه، أدركت مدى جدية هذه الحرب.. كنت قد تعاملت معها حتى تلك اللحظات وكأنها كانت تدور في مكان آخر، لا شأن لي به، إذ كانت تكفيني معاناتي مع (قبلة) زها، ومسألة تأويلاتها، فلم أشأ أن أشغل نفسي بالمزيد من المشكلات المستعصية على الحل، كالحرب مثلا.. هكذا إفترضت في حينها، ويمكن أن أكون على حق، ولكن، عندما أخرجوا فتاة جريحة من البيت المنكوب هذه المرة، هالني الأمر، رغم أنها كانت تسير على قدميها.. تصورت فورا أن هذا الأمر يمكن أن يحدث لزها.. أليس هذا أمرا واردا.. حدث لهذه الفتاة، إذاً يمكن أن يحدث لزها.. جمد الدم في عروقي، وإزداد إحساسي بالألم في معدتي.. ماذا لو حدث.. آه يا زها، أللمرة الثانية

يتجرأ الموت على أن يهدد صورتك البهية في وجداني.. تداعت عندها أفكاري ففقدت الرغبة في متابعة ما يجري، عدت إلى البيت مشوش البال، مضطربا، وأنا ألعن في سري هذا النظام الذي فقد كل حس إنساني، فورطنا بهذه الحرب الآثمة.. تساءل عدنان عندما رآني عمّا حلَّ بي، فقالت زوجته لتطمئنه كما أعتقد:

- يبدو أن المناظر التي رآها قد أثرت به.

وافقت على قولها، بصمتي، إذ لم أتفوه بكلمة بعدما فقدت الرغبة في الكلام طوال ساعة وأكثر وأنا أعاني من سوداوية أفكاري، فقد كنت أغوص أكثر فأكثر في غموض أيامي القادمة وإحتمالاتها الكارثية.. شعرت في لحظة أني في طريقي للجنون.. لا يا سيدي، لم أكن أستطيع أن أتجاوز تلك المرحلة، لولا أني إستطعت بالتدريج أن أقنع نفسي بأن الحرب لا تعني أنها ستموت بالضرورة.. هل سيموت جميع العراقيين.. مستحيل.. إذاً؟.. نعم، نعم، ذلك الإحتمال سيبقى قائما، ولكن إحتماليته تراجعت في الأقل.. لم تتبدد مخاوفي، ولكنها أصبحت في حدود المعقول.

في اليوم التالي، عدت إلى بلدتي مع إبن خالتي وزوجته، فقد قررا الإبتعاد عن بغداد التي ترزح تحت قصف الطائرات الإيرانية التي تبدو وكأنها فقدت أعصابها بعد الضربة القاصمة التي وجهها الطيران العراقي للقوة الجوية الإيرانية، قبلها بيوم.. لجؤوا إلى بيتنا، ولكنهم سرعان ما أدركوا عدم ضرورة ذلك بعدما خفت غارات الإيرانيين لأنهم عرفوا أن لا قبل لهم على فقدان سبع وستين طائرة كل يوم، حسب إدّعاء القيادة العامة العراقية.. إنحسرت بذلك مخاوفي أكثر، فبدأت أفكر بوضوح أكثر.. هي حرب ولا تستطيع الدول أن تستمر بالحرب طويلا، فهي تكلف كثيرا.. إذاً، لعلها تتوقف في الغد، أو، بعد غد..

حتى ولو ستة أيام، فعندها يكون الأمل بالعودة إلى الكليات في موعدها، قائماً.. أو حتى لتستمر اسبوعين كما حدث في عام 73 لا بأس، فأسبوع تأخير أفضل من اللانهاية.. وأنا في غمرة هذه الأفكار، كانت المفاجأة التي جعلتني أرقص في الشارع، فقد عرض العراق وقف إطلاق النار بعد أسبوع، ولم يتبق إلا موافقة إيران، وكنت على يقين من أنها ستوافق صاغرة، ولكن.. أنت تعرف ما حدث بكل تأكيد.. آه يا أستاذ، ليتها استمرت سبعة أشهر.. أو حتى سبع سنين.. هذا يعني عام أقل وهذا يوفر على الشعبين آلاف من الضحايا، ولكن ما حدث قد حدث، وقد كدت أجن بالفعل بعد أن استمرت الحرب حتى بعد بداية الشهر العاشر.. تأخر الدوام، وفقدت الأمل برؤية زها مرة ثانية، عشت اسوأ أيامي وأنا أعيش اللايقين على جميع الصعد.

عندما بدأت الحرب، تم إستدعاء أبو مهدي صديقي، الضابط المتقاعد، للخدمة مرة ثانية.. ذهب إلى بغداد فإستغل مهدي ذلك، أخذ صندوق زجاجات (البيرة) الفارغة، الخاص بأبيه، وطار به إلى مركز المحافظة، ليعود بصحبة مفاجأة سارة، في تلك الأيام الحزينة.. انت لا تعرف ما يعنيه صندوق (بيرة) في بلدة صغيرة.. كنا لنفرح ولو بزجاجة واحدة نقتسمها بيننا، أما صندوق كامل، فهو عيد بمعنى الكلمة.. أخذت حصتي، وكانت خمس زجاجات، وهرعت إلى البيت لأتسلل بها إلى غرفتي، حيث أخفيتها، ثم عدت إلى مهدي لأني تذكرت أنه كان قد أخبرني أن عنده أغنية لأم كلثوم اسمها (أغداً ألقاك).. غداً ألقاك، أذهلتني الفكرة.. كيف عرفت أم كلثوم بما يعتمل في داخلي.. لم أترك مهدي حتى إستجاب، وبعد أن نلت بغيتي منه، إنتظرت حتى سكن البيت بعد فيلم السهرة، فأقفلت عليَّ باب غرفتي وأخرجت زجاجاتي الغاليات.

(أغدا ألقاك؟ يا خوف فؤادى من غدي) بلى والله يـــا أســـتاذ كنت خائفا من هذا الغد، ماذا لو إعتذرت.. (يالشوقي واحتراقي في انتظار الموعد) وأي شوق وأنا لا أرى في الدنيا غيرها.. واي إحتراق وأنا أكاد أتبخر من القلق.. (آه كم أخشى غـــدي هـــذا وأرجـــوه إقترابا) كنت حينما يبهظني التشاؤم، أشعر بخشية كبيرة من الغد، لا أستطيع إلا أن أتعلق بأذيال الأمل فأستعجل إنتهاءِ العطلة، لأراهـــا، ولكني سرعان ما أهاب الإحتمال الأسوأ (كنت أستدنيه لكن هبتهُ لما أهابَ.. وأهلت فرحة القرب به حين إستجابَ).. وهكـــذا كنـــت أتقلب بين السعادة والعذاب طوال أشهر حتى كادت تهجرني روحي، وكاد قلبـــي يذوب (هكذا أحتمل العمر نعيماً وعـــذابا.. مهجـــة حرى وقلباً مسه الشوق فذابَ).. في تلك الليلة، تـــآمرت (الـــبيرة) الدافئة، وأم كلثوم، وغدها الذي يخيفها، وغدي القاسي، بمعونة لوح (النستلة) التي استخدمته كـــ (مزة) والحر الذي عجزت (المبردة) عن تخفيف وطأته، على وعيي، فسلبنه مني بسرعة، فقد وجدت نفســـي بعد قليل أردد مع أم كلثوم، اغنيتي الخاصة، مـــن دون خشـــية أن يسمعني أحد:

هذه الدنيا كتاب زها فيه الفِكَرُ
هذه الدنيا ليالٍ زها فيها العمر
هذه الدنيا عيونٌ زها فيها البصر
هذه الدنيا سماء زها فيها القمر
فارحمي القلب الذى يصبو إليكِ
فقد ملكتِهِ بين يديكِ.

كنت قد قررت أن أستمع إلى أقصى ما أستطيع من أغـــاني أم كلثوم في تلك الليلة، ولكني سرعان ما أعدت تشغيل نفس الأغنيـــة

عندما إنتهت.. تداعيت مع أم كلثوم وغدها المخيف، مرة أخرى، ولكني فقدت بعد حين قدرتي على الإستماع، فقد إنخرطت فجأة، في نوبة بكاء.. بكيت كما لم أبك من قبل أبدا، فكانت الدموع هي آخر ما أتذكره من ليلتي تلك.. في الصباح التالي، بدت لي الغرفة وكأن إعصارا قد ضربها.. كانت الدليل الأسطع على الجريمة التي إقترفتها في بيت، الأب فيه متدين.. بادرت، ورغم الحرقة المقيتة في المعدة، والألم في الرأس، إلى إزالة الآثار، ولكن.. ماذا عن بقايا العشاء الذي تناولته قبل أن أبدأ بالشرب، والذي لفظته معدتي في كل مكان.. كان منظرا مقرفا.. كلا، لم يكن ذلك ذنبي، بل ذنب الفطاحل الذين عرفوني على (البيرة) فهم لم ينبهوني إلى أن تناول العشاء بعد الشرب، أفضل.. على كل حال، لا أريد أن أطيل عليك، فقد قضيت ذلك اليوم وأنا أتهرب من أبي الذي كان متأهبا لإنزال العقاب بي، لو لا نظرات أمي المتحفزة للدفاع عني، التي كانت تراقبه.

أخيرا، بدأ الدوام بعد أكثر من شهر ونصف من الأيام الدهرية.. حضرت إلى بغداد قبل يومين لأني لم أعد أطيق صبرا على الانتظار في بلدتي التي بدت لي كالسجن الضيق.. إحتملت تلك الساعات الثمان والأربعين بقوة المعنويات التي إرتفعت بسبب قرب رؤيتها، رغم القلق اللئيم.. في اليوم الموعود، رأفت بحالي، لأنها حضرت مبكرا أيضا.. حال إلتقاء نظرتينا، أشرت لها برأسي، ثم أحنيته لئلا يلاحظني أحد، وإنطلقت نحو باب الجامعة، لأخرج منه باتجاه مطعم غازي.. هناك وقفت.. أنتظر.. أنا لم أر موافقتها على إشارتي، فهل ستأتي أم لا.. ما هذا الذي فعلته.. يا لخراقتي.. بدأت الثواني تنخر في معنوياتي، لتوردها موارد اليأس.. نعم، كانت ثوان

وإن إمتدت دقائق.. ولكنها ثواني، وأي ثوان.. أبطأ ثوان يمكـــن أن تمر على ملهوف.. إنتظار.. إنتظار.. إنتظار.. وأخـــيرا.. لمحتـــها.. كانت تسير باتجاهي.. لقد أتت.. لقد أتت.. أضاع قلبـــي إيقاعه، فارتبكت حركة الدم في عروقي.. أكاد أسمع وجيب قلبـــي، ولكن الدم يأبى أن يصعد إلى دماغي.. مادت بـــي الأرض حتى أوشـــكت على السقوط.. تماسكت مستعينا بشوقي الهائل لها.. نهرت قلبـــــي وتوسلت بعقلي، أعنّي.. فأعانني في اللحظات الحرجة.. كانت قـــد اقتربت، وعندها فقط تذكرت أنه لا يجدر بلقائناالمثقل بالاحتمالات المتناقضة، هذا، أن يكون أمام المطعم، وتحت أبصار كـــل هـــؤلاء.. أشرت لها برأسي مرة ثانية، وسرت باتجاه الزقاق القريب.. دخلتـــه بعد أن تأكدت من أنها تتبعني.. بنظرة واحدة رأيت شجرة تتهامس مع جدار بيت، على بعد أمتار.. أسرعت إليهما، حشـــرت نفســـي بينهما، ناشدتهما أن يقيانا أعين الآخرين، عندما نلتقي.. أطلت على الزقاق، فلمحت وجهها.. بدت الجدية على ملامحه الجميلة عنـــدما رأتني.. هذا أمر لا يبشر بخير.. أهذه ملامح محب سيلتقي بعد قليـــل بمن يحب.. ولكن، أي حب أيها المأفون، فهي لم تصارحك بحبـــها، فما لك تفترض ما لا وجود له، المهم هو أنها أتت، وها هي ســـاعية نحوك.. نعم يا رب، لا بأس إن لم تحبني، فأنا لم أطمع بهذا.. فقط لا تدعها تقطع علاقتها بـــي.. إنها تقترب، تقترب.. ســـتة أمتـــار.. إبتسمت.. يا لها من ابتسامة رائقة.. لا ليست رائقة، بل أكثر.. لقد حوت كل عذوبات الملائكة.. خمسة أمتار.. تزداد ابتسامتها إتساعا، فتزداد حيرتي، أكل هذا لي.. لي أنا.. أربعة أمتار.. كـــدت ألتفـــت للخلف لأرى من الذي تبتسم له، لولا أني تداركت نفسي.. ثلاثـــة أمتار.. تكاثفت الحيرة في داخلي، فتبلدت أحاسيسي.. ما هذه اللعبة

التي تمارسها معي.. اثنان.. رفعت يدي بآلية وبلاهة لكي أصـــافحها كما إعتدنا.. متر واحد.. تتجاهل يدي الممدودة، تقتـــرب أكثـــر، يلامس كفي جنبها، ولكنها لا تتوقف.. تستمر.. إلى أيـــن.. أنـــا أهلوس.. أكيد أنا أهلوس، فهي في أحضاني.. ربـــاه، أرجـــوك، لا تحول الأمر الآن إلى حلم.. لا، لا، ليس الآن.. أنا أحتاجه واقعا، لا حلما، مهما بدا رائعا.. واقع.. حقيقة يا ربـــي.. تمتد يـــديها مـــن حولي.. تضمني وأنا مشدوه.. مصعوق.. إنموذج لأبله مثالي.. ترفع رأسها وعيناها تنظر مباشرة في عيني.. ألاحظ أن شفتيها تبحثان عن شفتي، يتملكني فجأة، رعب.. مستحيل، لا يمكن لزها أن تتصـــرف هكذا.. لِمَ تفعل هذا؟.. أقصى درجات تفاؤلي كان، أنها ســـتقبلني على خدي كما فعلت يوم الوداع، قبل أشهر.. ولكن صولة الشفاه هذه.. لماذا.. لم تكن مضطرة لذلك.. كدت أتملص مـــن يـــديها.. كدت أقفز مبتعدا عنها، ولكني لم أفعل لأني أيقنت من أن ما يحدث لا يمكن أن يكون واقعا.. هذا حلم بالتأكيد، وسرعان ما سأستيقظ منه.. ولكن الشفاه المسفرة عن أسنان لؤلؤية حافظت على الحلـــم، مستمرا.. وجدت ضالتها، أغمضت زها عينيها، فزممـــت شـــفتيّ.. تفتحهما وقد بدا الاستغراب فيهما.. ينتفض الـــذكر في داخلـــي.. فينقضّ.

كنت في الساعتين اللتين قضيناهما معـــاً في ذلـــك اليـــوم، محموما.. هي تحدثني كثيرا على غير عادتها.. وتبـــوح بـــالكثير، ولكني لم أفقه منها شيئا، فقد كان بالي مشغولا طـــوال الوقـــت بالبحث من حولنا عن أي مكان يصلح لأن نختفـــي فيـــه ولـــو للحظات، لأرتشف رحيق الشفاه، وأسكر بخمـــرة الرضـــاب.. وعندما عدنا معاً إلى الجامعة، وكانت تلك هي المرة الأولى الـــتي

نفعل فيها ذلك، كانت عيناي تختبران المخابيء المحتملة لفعل ذلك.. انتبهت هي فقالت مبتسمة:

- حسبك أيها الطماع.. إنهما لك.. إلى الأبد، فلا تهلك نفسك منذ أول يوم.

عند باب الجامعة التي فرضتها علي مثابة للوداع، إفترقنا، على أمل اللقاء في الغد.. عدت إلى القسم الداخلي، وهناك بدأت آلام جسدي، فقد حرصت طوال الوقت الذي تعانقنا فيه، أن أجعلها لا تشعر بمدى إهتياجي، أن لا أرعبها، ولذلك كانت وضعية جسدي غير مريحة معظم الوقت الذي قضيناه معاً.. لا، لم أكن لأتقبل في ذلك الوقت فكرة أن يختلط المادي مع المثالي في داخلي.. فقد كانت تلك القبلات بالنسبة لي، فعلا روحانيا صرفا.. قمة في التسامي، فكيف أسمح لدناءاتي أن تظهر؟!

في اليوم التالي، إنتظرتها عند بيتنا الواقع بين الشجرة والسور، وعندما أقبلت، لاحظت أنها تحمل عدة أكياس معبأة بأشياء.. لم أتساءل حتى مع نفسي عمّا كانت تحمله، فقد كان بالي مشغولا بما أريد، وكنت أعرف بالضبط ما أريده ذلك الصباح.. مواصلة حلم الأمس، فلجأت إلى حمى الشجرة الرحيمة وشفتاي مضطرمتان.. عندما أصبحت في متناول يدي، ضممتها حتى قبل أن تنزل حمولتها، ورشفت، أردت أن أرتوي قبل أن أتكلم، ولكن هيهات.. فضضنا اشتباكنا بعدما قاطعنا مستطرق، قدمت الأكياس لي وهي تقول:

- لقد قضيت أشهر الصيف في الأسواق، أنتقي لك هذه الملابس.

فقلت مستغربا:

- ملابس.. لي أنا.. ولكن لماذا؟!

فقالت بهدوء:

- ما هذه الـ (لماذا).. أليس من حقي أن أشتري ملابس لمن أحب؟.

كانت تلك هي المرة الأولى على الإطلاق التي تصرح فيها بحبها لي، ولكني لم أنتبه في حينها، لأن عقلي كان مشغولا بهواجسي السخيفة التي أطلقها تصرفها غير المتوقع.. تشتري لي الملابس.. ما الذي تظنه.. أتتصورني محتاجا.. أم أن ذوقي في إنتقاء الملابس، لا يروقها.. شعرت بانزعاج، تصور.. شعرت بانزعاج.. ألا لعنة الله على السماجة وقلة العقل.. ألم أكن (محافظات) في نظر نفسي، فما لي أغضب إذا ما حاول أحد يحبني أن يساعدني في تغيير مظهري.. على كل حال، لاحظت هي الوجوم على وجهي، فقالت برقة:

- هيّا يا يسار، أنا لا يهمني مظهرك كثيرا، لأن جوهرك هو ما اخترت، ولكني أود أن تبدو أنيقا.

سكتت ثم أضافت بعد قليل ضاحكة:

- لكي أستطيع أن أتباهى بك بين صويحباتي.

أعقبت ذلك بأن أمسكت بذقني بأصابعها، وطبعت قبلة سريعة على فمي.. تبدل مزاجي فورا، فهجمت عليها ولكنها حذرتني وهي تبتعد عني وتضحك:

- يسار.. الناس.

طابت نفسي بعد ذلك، وتقبلت منها هداياها، ثم شكرتها بسلسلة من القبلات الحارة، كلما أمنّا شر عيون الناس.

عندما أكملت إرتداء ملابسي الجديدة مع الحذاء الذي اشتريته بعد أن إفترقت عنها، في صباح اليوم التالي، لاحظت أني أبدو

(بغداديا) هذه المرة، لم أصدق نفسي، ولكن ناظم صاح عندما رآني وهو لا يخفي إعجابه بما يرى:

- ها قد حققت أمنيتك، لقد أصبحت (زمالا بغداديا) بشكل رسمي.

وعندها فقط، سكنت نفسي، وذهبت إلى الجامعة وأنا مرتد وجها وقورا.

في تلك المدة، عشت أجمل أيامي.. بل عشت حياتي كلها.. حياتي التي تسربت هباء بعد زها.. عشت الفرح، كل الفرح معها، وضيعت دربه بعدها. بعد أن أعلنت عليّ حبها، أصبح لقاءنا يوميا، وكل لقاء يزخر بكل ما يجعلني أشعر وكأني أعيش حلما إذ آوي إلى فراشي في الليل.. لم نكن نستطيع أن نتسلل دائما إلى أزقة حبنا، لنطفيء.. أو بالأحرى لنزيد نيران جسدينا إضطراما، بجحيم القبلات، ولكني أقسم أن لقاءاتنا (المسالمة) في الجامعة لم تكن أقل إثارة من الأيام التي كنا نزخرفها بالقبل.. فقد كانت تمتلك كل ما من شأنه أن يزيدني تعلقا وهياما بها.. تمتلكني بعقلها، مثلما تذهلني بجمالها.. قالت لي أحبك، ورددتها مرارا، ولكني لم أشأ أن أصدق.. لا، لا.. أقصد هناك.. في أعماقي، لم أستطع أن أصدق، فما قد تحبه امرأة مثلها في مسخ مثلي.. سألتها ذات يوم، فقالت:

- أنا أعرف لماذا أحبك، فأنت تمتلك ما يفتقده الكثيرون.

قلت:

- ولكن ما هو؟

قالت:

- طيبتك.

شعرت عندها بالخيبة.. أهذا هو كل ما في الأمـــر.. طيـــبتي.. فماذا عن عقلي.. ماذا عن رجولتي.. فقالت هي على الفور:

- أترى.. هذا هو ما أخشاه.

فقلت عندها باستغراب:

- وما هو الذي تخشينه؟

قالت:

- أن لا تفهمني مثلما أريد.

قلت وقد زاد استغرابـــي:

- ولكني لم أتفوه حتى بكلمة.

بانت ابتسامة حزينة على شفتيها وهي ترد:

- وهل تتصور أني بحاجة إلى كلمات لأفهم مـــا يـــدور في داخلك؟.

وكان هذا أشد ما يخيفني منها، فقد كنت دومـــا كالكتـــاب المفتوح أمامها.. صحيح أني كنت أحيانا أنكر عليها ما تقوله بشأني، ولكني كنت دوما أعي جيدا، مدى صحته.

إقترحت عليها ذات يوم أن نذهب معاً إلى جزيرة بغداد الـــتي كنت قد سمعت عن مدى روعتها من بعض صحبـــي الذين كـــانوا قد زاروها و لم أذهب معهم لإنشغالي بها.. رفضت هي مقترحـــي في الحال قائلة:

- تذكر إتفاقنا.. لا لقاءات خارج الجامعة ومحيطها.

كان ذلك هو الإتفاق، ولكني شعرت بإنـــزعاج، فبان ذلـــك على وجهي.. ما أن رأتني على ذلك الحال حتى ذابت رقـــة وهـــي تحاول التخفيف عني.. بالإبتسامات، والإيحاءات اللطيفة وهي تناديني "حبيبـــي، حبيبـــي" وأنا مصر على كآبتي الـــتي ســـرعان مـــا أن

أصبحت مفتعلة، بعدما قررت فجأة أن أستخدمها للضـــغط عليهـــا عسى أن تخبرني بعنوان بيتهم، قالت شبه متوسلة:

- أتريد أن نذهب للتسكع في أزقتنا.. هيّا.

رغم أنها كانت قد أخبرتني عن المحاضرة التي يجب أن تحضـــرها بعد قليل.. كان ذلك غاية المنى بالنسبة لي، ولكني هززت برأســـي رافضا الفكرة.. قالت:

- ولكن ما الذي تريده يا حبيبـــي.. أرجوك لا تعذبني.

عندها فقط تكلمت.. قلت:

- حسنا، إذا كنت تريدين أن ترضيني، فدعيني أصـــطحبك إلى بيتكم اليوم، قصدي إلى أقرب نقطة إليه.

إصفر وجهها عندها وصاحت:

- إلا هذا.. هذا مستحيل، ولن يحدث يوما.

عندها إنفجر غضبـــي، ووجدت صعوبة كبيرة في الســـيطرة على نبرات صوتي لئلا ترتفع.. قلت:

- يا له من موقف غريب.. فقط إعطيني مســـوغا معقـــولا واحدا لموقفك الغريب هذا.

قالت وهي تكاد تبكي:

- أرجوك.. يجب أن تثق بـــي في هذا.

سكتت للحظات.. بدت نظراتها وكأنها تخترقني، لتتطلـــع إلى بعيد، ثم قالت:

- ستعرف السبب يوما.. أقسم أنك ستعرف.

لا أعرف لِمَ شعرت في تلك اللحظات وكأنهـــا كانـــت تتنبـــأ.. شعرت، ولكني لم أسألها عن ذلك، لأني كنت مشغولا بغضبـــي، ولأني تصورت أن لدي من الوقت ما يكفي لكشف اللثام عن هذا السر.

حالما دخل من الباب الخارجية لدارهم، قرر أن يـدور حـول البيت عبر الحديقة، ليدخل من باب المطبخ، حيث أمه.. فقد عـزّت عليه نفسه، وانف أن يرى علامات الخيبة مرة أخرى على وجه والده وأخواته.. هو راسب للمرة الثالثة خلال خمس سـنوات.. "رقـم قياسي في بيتنا" هكذا فكر مع نفسه حـال استلامه للنتيجـة في المدرسة، رغم أنه كان قد كسر هذا الرقم منذ أول سنة رسب فيها لأنه لم يسبق لأخواته اللواتي سبقنه في المدرسة، أن رسـبن.. وهـو يسير، تذكر أيام دراسته الإبتدائية.. فشعر بالأسى على نفسه، لأنـه في حينها كان يتمتع برضا الجميع، لمستواه الدراسي المتميز.. حـين استدار ليدخل الممر الخلفي الموصل إلى باب المطبخ، تفاجأ بوالـده أمامه، جمد في مكانه على الفور.. ظهرت اللهفة على وجـه والـده وقال:

- ها يا يوسف؟

زاد ارتباكه، فلم يسـتطع أن يفعـل شـيئا غـير أن يقـول بتلعثم:

- السلام عليكم.

رد والده بغمغمة غير مفهمومة بعدما فطن إلى إمارات الإرتباك التي ظهرت على وجه ولده، ففهم.. أزاح نظره عنه وواصل سيره.. إنتظر هو حتى تجاوزه والده ليهرع إلى المطبخ.

استقبلته أمه بابتسامة فرح.. حشد هو كل ما يستطيعه من قوة على التمثيل، وجاهد ليرسم على وجهه إمارات حزن لا وجود له.. كان يريد أن يوصل إليها الرسالة من دون كلام، ولكنـها قالـت متسائلة:

- بشّر يا ولدي.

لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يحني رأسه دلالـــة لإنكســـاره النفسي، ولم ينبس ببنت شفة.. ضربت المرأة على صدرها وقالـــت بتساؤل، وتضرع:

- راسب مرة أخرى؟

بذل جهدا يائسا وأخيرا لإستدرار الدموع من عينيه الجاحـــدة، ولكنها أصرت على بخلها.. فلم يستطع إلا أن يهز برأسه "نعـــم".. فيما كادت الدموع تقفز سخية من عيني المرأة التي ظهر عليها الحزن الشديد، ولكنها تماسكت بصعوبة.. بقت عيناه معلقة بوجه أمه التي لم تخب ظنه، لأنها سرعان ما قالت، وإن بدا الحزن واضحا في نبرات صوتها:

- لا تهتم يا ولدي، ستنجح في السنة القادمة.

أعقبت قولها هذا، بأن مدت يدها إلى صدرها، لتخـــرج منـــه رزمة نقود، سحبت منها عدة أوراق من فئة الدينار وقالت بحنان:

- هون على نفسك، ولا تحمل هما، ستنجح.. أنا على يقين من أنك ستنجح.

أخذ منها النقود، ثم قال وهو يشير باتجاه الحديقة:

- ولكن أبـــي.

فردت عليه فورا، قائلة:

- لا تهتم له، فهو سرعان ما ينسى.. فقط هون أنت علـــى نفسك.

فخرج من عندها محاذرا أن يلتقي بوالده وهـــو في طريقـــه إلى الخارج.. وعندما تأكد من خلو الحديقة منه، إنطلق مســـرعا وهـــو يشعر بسعادة لا حدود لها بعد أن خرج من الموقف المحـــرج، بأقـــل الخسائر.. أو بالأحرى، بربح غير متوقع.

الليلة الخامسة

حينما وصلت في صباح اليوم التالي إلى الجامعة، الفيتها تنتظرني عند الباب، رأتني، فأقبلت علي.. لاحظت أنها تلبس (قمصلة) زرقاء وقد رفعت (سحابها) إلى أعلى حتى لامس مفتاحه نحرها.. أنا لم أنتبه كثيرا إلى ملابسها التي كانت ترتديها، رغم الأوقات التي قضيناها معاً، ولكني أذكر هذا لأني إنتبهت فورا في حينها إلى إفتقادها لأناقتها التي تتميز بها.. كنت قد فارقتها بالأمس وأنا مصرعلى دور الغاضب، ولكنها أقبلت عليَّ مبتسمة.. ألقت عليَّ التحية، وقالت فورا، وبلهجة بدت آمرة، أكثر منها طلبا:

- هيّا.

لم أسألها شيئا، بل تبعتها.. وصلنا إلى باب الجامعة، ولكننا تجاوزناه باتجاه الشارع.. أيقنت أنها تضمر لي مفاجأة، ولكني لم أسأل أيضا.. وصلنا إلى الشارع، هناك قالت لي:

- جدْ لنا سيارة أجرة تقلنا إلى جزيرة بغداد.

ألجمتني المفاجأة، ولم يسعني إلا أن أفتح عينيّ على سعتهما وأنا أتطلع في وجهها.. إبتسمت هي، وهمست:

- رغباتك أوامر يا حبيبي.

عندما وصلنا الجزيرة، كانت شبه فارغة في ذلك الوقت من الصباح، فعبّرت هي عن سعادتها بذلك.. وبعد جولة استكشافية قصيرة، توقفت فجأة.. تلفتت يمينا ويسارا، ثم بدا عليها أنها قد

حزمت أمرها لأنها أمسكت بيدي وراحت تجرني جرا باتجاه محـــدد.. كانت تسير بسرعة وأنا أحاول أن أجاريها.. بدا عليها وكأنها تبحث عن شيء، فسألتها عما تبتغي، لم تجبني، بل أكملت ســيرها الســريع باصرار.. فجأة، توقفت وهي تنظر باتجاه مكان قريب مـــن النـــهر.. كانت الأشجار تحف به.. فسحبتني معها باتجاهـــه.. توغلنـــا بـــين الأشجار حتى أمّنت عيون الطارئين.. نظرت إلي مبتسمة، ثم مدت يدا راجفة لتنـــزل سحاب (قمصلتها) إلى الأسفل.. فكرت مع نفسي، ما هذا الذي تفعله، تشعر بالبرد ومع ذلك تنـــزل السحاب! كشـــفت عن قميصها الأبيض الذي كانت ترتديه تحت (القمصـــلة).. ذهلـــت عندما توقفت نظراتي عند صدرها.. قلت بسري، لم لا ترتـــدي.. لم أفهم.. غلا الدم في عروقي، ولكني لم آت بأية حركة، بل بقت عيناي تترددان ما بين وجهها وذلكما البروزين النافرين حدّ التلاعب الشديد بأعصابـــي.. مدت يديها ببطء لتحرر الزر الأعلى من قميصها، مـــن محبسه.. بان نحرها، لم أفهم.. ثم فكّت إشتباك الـــزر الثـــاني، فبـــان جيدها.. زادت حيرتي.. ولكن، تملكني الإرتباك عندما فتحت الـــزر الثالث وكشفت عن.. انت تعرف عن ماذا.. إنتابني إرتبـــاك شـــديد حرمني من فرصة المبادرة، وهي تنظر في عيني التي لم تستطع أن تثبتـــا في محجريهما طوال تلك الثواني، وهي لم تزل محتفظة ببسمتها الرائعة.. إنتظرت.. ولكن ترددي وارتباكي أحبطا قدرتي علـــى التصـــرف.. تساءلت مع نفسي "لِمَ تتصرف هكذا".. إختفت بسمتها.. تطلعـــت في وجهي مليا، ثم غامت نظرة عينيها.. زررت قميصـــها بســـرعة، وسارت مبتعدة بصمت.. تداركت نفسي، فلحقت بهـــا لأســـير إلى جانبها وأنا أساير صمتها.. أو، لأني لم استطع أن أجد في داخلي مـــا يمكن قوله.. استطعت بعد لأي أن استجمع شجاعتي لأقول هامسا:

- أنا آسف.. ولكن.

توقفت فورا، ونظرت إلي.. قائلة:

- ما الذي تريده مني بالضبط يا يسار؟.

فاجأني سؤالها ولكني قلت بأقصى ما أستطيع من هدوء:

- أنا أحبك، فما قد يريده المحب من حبيبه.

قالت من دون أن تظهر أي نوع من المشاعر على وجهها:

- أمتأكد من أنك تحبني؟.

فرفعت عندها صوتي قليلا لأبين مدى احتجاجي على ما قالتــــه للتو:

- بالطبع أنا متأكد.

عندها قالت بصوت بان الحزن في نبرته بوضوح:

- فلماذا إذاً تتصرف معي هكذا؟.

- كيف؟

قلت، فتابعت هي:

- تدينني لأني قررت أن أمنحك نفسي.

صحت:

- أنا.

ولكنها قالت على الفور مقاطعة:

- لا أرجوك، لا تحاول أن تكذب.

أدركت عندها ضعف موقفي إزاء مقدرتها المذهلة على قـــراءة أفكاري، فقررت أن أسلك دربا آخرَ في الطرح، فقلت:

- أنا أحبك يا زها.. كثيرا، ولكنك تفاجئيني طوال الوقت وتدفعين بـــي إلى.. إلى.. أنا لدي حدودي، ولن أستطيع أن أتجاوزها بسهولة.

تمعنت هي في وجهي قليلا، قبل أن تقول بهدوء:

- في هذا أنت على حق.. ولكن هذا يسبب لي شعورا مريرا بالخيبة.

أردت أن أسألها عن الخيبة، ولكن لساني لم يطاوعني خشية أن أتورط في ما هو أكثر من ذلك.. سكتّ، فيما تابعت هي بعد قليل، قائلة:

- يجب أن تعرف أن الإنسان، كل لا يتجزأ، وعندما يحب، فلا يعود هنالك مجالا للتمييز ما بين هو جسدي وروحاني.

قلت وأنا أداري إرتباكي:

- ولكن الجنس.

ثم سكتّ لأن الخجل منعني من أن أخوض في حديث الجنس معها.. قالت:

- ما به الجنس؟

فقلت مترددا:

- إنه.. إنه مدنس.

بان العتب واضحا في نظرتها التي رمقتني بها وهي تقول:

- وكيف يكون سر وجودك نفسه، دنسا يا يسار؟!

فقلت وقد إزدادت حيرتي:

- نعم، ولكن.

فقاطعتني على الفور قائلة:

- هيّا، دع عنك أسطورة الحب العذري، فمثل هذا لا وجود له إلا عند من أصابت نفوسهم علة.. أما البشر الأسوياء، فلن تنتفي حاجتهم إلى الجنس يوما.

سكتت لتستطلع ردود الأفعال على وجهي، ولكنها لم تجد هناك إلا البلاهة، فأكملت:

- ثم إن كل عمل يقوم به الإنسان، يستمد شرعيته من نيته، فإن كانت خيرا، فخيرا سيكون، وإن لم تكن، فعندها ستبدأ الشرور.

ثم تركتني واقفا، لتعاود المسير.. لحقت بها مرة ثانية.. كانت حزينة، فعرفت أنها لن تستجيب لأي كلام يمكن أن يصدر مني في تلك اللحظات.. كان المكان من حولنا هادئا، ولم يكن حولنا إلا بعض العشاق الباحثين لأنفسهم، على بعد، عن أماكن يلجؤون إليها.. إنتابتني رغبة عارمة بتقبيلها، فقد كانت طريقة مضمونة لتقديم الإعتذار لها.. أوقفتها فجأة، وسحبتها نحوي.. لم تزجرني، أو تدفعني عنها، ولكنها أظهرت ممانعتها السلبية.. كررت المحاولة بعد قليل.. وبعدها مرة أخرى، حتى إستجابت.. قالت بعد أن خففت عنها حصار ذراعي:

- يا لك من غريب الأطوار، تقبّل هكذا، وترفض الحديث عن الجنس.. يا مسكين أتتصور أن القبلة فعل روحاني؟!

لم أفكر بمغزى ما تقول، بل أحطتها بذراعي، لأعاود مص رحيقها، فارتطم صدري بصدرها، سرى تيار لذيذ في جسدي، وعندها تذكرت منظر الناهدين اللذين رفضتهما كهبة، قبل قليل.. تعجبت في نفسي للحمار، الذي هو أنا.. تصاعد دمي الذي غلي، بخارا، إلى عقلي، فكلكل على تلافيفه، ليمنعها من العمل.. نسيت الشفاه الشهية، وراحت عينيّ تبحثان في جميع الاتجاهات عن مخبأ.. وجدته.. سحبتها أنا هذه المرة من يدها، فاستجابت بصمت.. وأنا أسير بها نحو عشنا المكتشف للتو، كنت أعتذر لها كالمحموم..

تحججتُ، سوغتُ.. بل توسلتُ، وكل ذلك لكي لا تمنعني مما أنا مزمع عليه.. إمتدت يدي، راجفة هي الأخرى، لتعيد فتح الأزرار.. أمسكت بيدي لإبداء ممانعتها.. همست بصوت راجف:

- حبيبتي.. أرجوك.

نظرت إلي بحزن، ثم أظهرت موافقتها بأن رفعت كتفها بحركة استسلام.. ففككت الأزرار، وأنت تستطيع أن تتوقع ما حدث بعدها.. ولكنك لن تستطيع أبدا أن تتصور مدى لهفتي وفجاجة حركاتي وأنا أنتقل ما بين شفتيها، و، و.. كنت كمن أصابه مس من جنون وأنا أرتع في ذلك الجزء من حلمي الذي تحقق.. لم أعر عينيها المغمضتين إهتماما.. تجاهلت الدمعات التي تجمعت في زاويتي أقصى جفونها المطبقات، قبل أن تسيل على الخدود، وأنا في مسعاي بين هاتين وذالكما.. لا، لا تحكم علي الآن، إذ لم يكن بإمكاني في تلك اللحظات أن أستخدم عقلي، أو أحكم ضميري.. مستحيل.. ولكن.. لم لا تحكم علي، بل أحكم علي، ولأذهب إلى الجحيم الذي يليق بأمثالي.. كنت ما أزال أحاول أن لا أجعلها تشعر بمدى اهتياجي، ولكني، وفي تلك اللحظات الهائلة.. في خضم ذلك الحلم الرائع، تذكرت ما قالته قبل قليل، ففكرت مع نفسي "إن كانت هي راضية، فلم لا أعطيها ما تريد" هكذا فكرت يا أستاذ، والله هكذا فكرت.. فبعد أن كنت أهصرها بذراعي، بدأت أدفعها رويدا بإتجاه شجرة خلفها، حتى أسندت ظهرها إليها، إستقمت بوقفتي.. و، وصدمتها بعنف، فسحقتها بجسدي على غصن الشجرة، تلامست خلايانا.. كل خلايانا، رغم ملابسنا، ومن دون مراعاة لأي شيء.. فتحت عينيها، وحدقت في عيني عميقا لوهلة، ثم أغمضتهما ثانية، وعندها فقط، بدأت تقبلني مثلما كنت أقبلها.

لا، لا، دعني أبكي، فهذا أفضل لي.. لقد استعدت كل هذا عشرات، بل مئات.. بل آلاف المرات طوال السنوات الثلاثين التي مرت، ولذلك تراني أحدثك عنها بتفاصيلها، وفي كل مرة استعيدها، ألمس مدى تفاهتي، ومدى رقيها وسموها.. لا يا أستاذ، هي لم تكن كذلك.. نعم ما تقوله يصح على النساء، وقد خبرت ذلك بنفسي بعدها، ولكن ذلك لا يصح عليها، إذ لم تمنحني امرأة ما منحتني إياه.. العطاء الخالص.. كانت إنسانة حقيقية، ومثل هذا الإنسان إبداع بشري لا يتحقق دوماً.. طوبى لمن ولد ليكون أنانياً، فاهتدى.. أرجوك صدقني، فأنا أعرف عمَّ أتحدث.. لا لا، لم تكن تريد شيئا لنفسها، فقد نَذَرَتْها من أجل نزواتي ورغباتي، ومع ذلك، ففي ذلك اليوم بالذات، بدأت شرور نفسي تترى.. أتعرف يا أستاذ.. انا لم أحدث رجلا بهذا، بل لم أحدث به بشرا كائنا من يكون، ولكن أنت.. أنت شيء آخر، أشعر عندما أحدثك وكأني أحدث نفسي.. أنت صديق.. صديق عزيز، ولن أخجل يوما من كشف خبايا نفسي لك.. أمثالك يا سيدي يعيدون للإنسان ثقته بالبشرية.. وأنا آوٍ لنفسي في ليلة ذلك اليوم، استعدت ما حدث بيننا خلال النهار.. تساءلت.. فحضر الشيطان.. نعم الشيطان، وهل الشياطين إلا الأسئلة عندما تعترض المسلمات.. تساءلت ليلتها إن كانت هي كما تصورتها، فاهتزت هالة الملائكية التي أسبغتها عليها.. يبدو يا صديقي أني سأعاني منذ الآن كثيرا وأنا أحدثك عن قصتي، لأني سأكون إزاء مهمة صعبة جدا في التوفيق ما بين مقصدي وبين الإنطباعات التي ستتولد لديك.. هي ستبدو لك وكأنها هي التي راودتني عن نفسي، ولأنك تعلم أني لست نبيا، فستسوغ لي الكثير حتى إذا لم يبد لك قميصي وقد قدّ من دبر.. لا، لا، دع عنك التعاطف الآن، وأعنّي

لأني سأعاني كثيرا وأنا أحاول أن أحدثك عن إنطباعـــات آنيـــة في حينها، وما بدا لي فيما بعد.. بعد أن فقهت. هي لم تغوني يوما، بل شَعَرَتْ بجوعي الرهيب، فأعطتني.. هي معطاء، والحب عندها لا يعني إلا العطاء، فيما كنت آخذ وآخذ وآخذ، ثم أكيل لها في أعمـــاقي.. أكيل لها على وفق ميزان المجتمع، ومعهوداته.. هي تعطي وأنا آخذ، فخبرني بالله عليك، من كان منا المحب، ومن كان المرائي.

كنت خلال تلك الأشهر قد تعودت المرور على بيت عدنان ابن خالتي بين الحين والآخر، وبقى هو وزوجته يحسنان استقبالي كما تعودا، ولطالما أبقياني حتى أتناول معهما طعام الغداء أو العشاء، حسب الظروف.. في يوم، مررت كالمعتاد لألقي التحية، ففرح عدنان جدا عندما رآني.. دعاني إلى الدخول، فاستجبت.. قال حين أصبحنا في الداخل:

- حسنا فعلت أنك قد أتيت، لأنك لو لم تفعل لكنت قد مررت اليوم على القسم الداخلي لأسأل عنك.

قلت:

- يا الله خير.. لماذا؟.

فابتسم لي وقال:

- كل الخير إن شاء الله.. إجلس أولا.

لاحظت أنه كان وحيدا في البيت.. سألته عن زوجته، فأخبرني أنها قد سافرت قبل يوم إلى الشمال.. إستغربت لسماع ذلك ولكني لم ألح في السؤال.. قال بعد فترة صمت:

- أريدك أن تفرغ نفسك لي، ولو ليوم واحد.

لم أفهم، فتساءلت قائلا:

- كيف؟

قال:

- ألا تستطيع أن تأخذ إجازة يوم من الدوام.

فضحكت وقلت:

- وهل رأيت يوما طالبا في كلية الادارة والاقتصاد يطلب إجازة من الدوام.. فقط أخبرني بالمطلوب مني وسأكون معك في أي وقت تشاء.

عندها أخبرني ما أذهلني، فقد أسر لي بأنه سيوفد من قبل دائرته، إلى دولة غربية، وأنه لن يرجع إلى العراق لأنه سيطلب اللجوء هناك، وأنه كان قد أرسل زوجته الكردية إلى الشمال، لتلتحق به من هناك بمساعدة أهلها.. أما المفاجأة الكبرى، فكانت أنه طلب مني أن أكون وصيا على بيته بموجب وكالة عامة يريد أن يوثقها لي عند كاتب العدل، حتى يطلب مني أن أبيعه وأحول له النقود بعدما يستقر، وبطريقة سيخبرني عنها في حينها.. تصور.. بيته، وبكل أثاثه ومحتوياته، يبقى لي وحدي إلى أجل غير مسمى.. يا لهذه الدنيا يا أستاذ، كيف تتصرف معنا أحيانا، فهي تكون كريمة معنا حتى تكاد تخنقنا فرحا، أو تبخل علينا حتى تخنقنا كمدا.. تصور، في تلك الظروف وأنا محتار في كيفية تهيئة عش يحتوينا أنا وزها، يصبح لي بيت خاص بي.. ولوحدي.. أية مصادفة سعيدة هي هذه.. وبالفعل، لم تمر إلا ثلاثة أيام حتى سافر إبن خالي، فنقلت حقيبة ملابسي إلى بيته لأستقر به، ولم أنس بالطبع أن أعتذر مقدما عن إستقبال أي صديق فيه، على أساس أنه أمانة في عنقي، ويجب أن أحافظ على حرمته التي ستنتهك بالتأكيد لو إجتمع فيه الشباب لوحدهم، ولكن الحقيقة كانت عندي مخططات شخصية بهذا الشأن.

في اليوم التالي، طلبت من زها أن نتنزه قليلا في شوارع حبنا، فوافقت.. وفيما كنا نسير، كنت أقود خطواتها خفية بإتجاه معين من دون أن تشعر، ولكنها لاحظت أني لم أحاول أن أقبلها ولو لمرة واحدة، فقالت:

- أمرك غريب هذا اليوم يا يسار، لا بد وأنك تخطط لشيء.

فاجأتني مرة أخرى، ولكني أخفيت إرتباكي بضحكتي وقلت:

- لا، ولكني لم أجد المكان الآمن بعد، لأقطف ثمار شفتيك أيتها الحبيبة.

ابتسمت لي رغم أن سمات عدم التصديق ارتسمت على وجهها الجميل.. بعد دقائق، وقفنا معاً أمام البيت الصغير.. ظلت تتنقل بنظراتها بيني وبين الباب الذي قابلناه.. قلت لها:

- أليس جميلا هذا البيت.

أومأت برأسها إيجابا، و لم تعلق بشيء، فقلت متابعا:

- ما رأيك لو رأيناه من الداخل؟.

فنظرت إلي باستغراب وقالت:

- ما قصدك؟.

فضحكت وأمسكت بيدها لأسحبها بإتجاه الباب الخارجي للبيت.. تمنعت، ولكني قلت لها:

- ألا تثقين بحبيبك؟.

بقيت هذه الجملة هي الحل السحري الذي ألجأ إليه طوال مدة علاقتنا للتغلب على إعتراضاتها القليلة، فطاوعتني مترددة، ولكنها عندما رأت المفتاح في يدي، بدت عليها علامات الإستغراب أكثر وأكثر.. لم أوضح لها شيئا حتى أصبحنا في الداخل.. خلف الباب المغلق.. لم تعلق بشيء على توضيحاتي، بل منحتني واحدة من ابتساماتها الرائعة، وعندها إقتربت منها.

أتعرف يا أستاذ، عندما قررت أن اصطحبها إلى عشي الجديد، كنت قلقا من ردود فعلها المحتملة، فما حدث بيننا حتى تلك اللحظة، إنما حدث في أماكن عامة وبعد أن نؤمن أنفسنا ضد أعين الغير، أي أنها يمكن أن تكون واثقة من أني لن أتعدى حدودي حتى إذا ما أردت، ولكن الوضع في هذه الحالة كان مختلفا جدا، فهذه

خلوة.. خلوة كاملة، وكان يمكن أن تعترض، ولكنها لم تفعل، بل إستجابت بتلقائية مذهلة.. وهذه التلقائية، هي ما كاد يقتلني فيما بعد، عندما استذكرها.. لا، لا، أنا لم أخطط لشيء، بل كنت أريد أن أريها البيت، ولكننا ما أن وجدنا أنفسنا وحيدين.. آمنين من أعين الناس، حتى فكرنا بما يجدر بنا أن نفعله، وفعلناه.. إقتربت منها، قبلتها، فاستسلمت لي، ولكن هذه المرة لم تكن القبلات كافية لأننا سرعان ما وجدنا أنفسنا عاريين.. وقد تكفلت أنا بعملية تجريدنا من الملابس.. عاريان تماما وأنا أقبلها وأشمها.. أقبلها وأشمها.. لا، كان لقاؤنا ملامسات.. ملامسات بمعنى الكلمة وأنا أردد بين الحين والآخر، هامسا في أذنها:

- لا تخافي.

ولكنها لم تكن لتخاف، فقد كانت في عالم آخر.. مغمضة العينين، مستسلمة كلية لي.. الله يا أستاذ.. أنا مارست الجنس من بعدها، ولكنه لم يكن يوما أروع من تلك الملامسات.. أبدا.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم بسهولة، فقد شعرت وكأن عالمي قد تغير نهائيا، بعد ما حدث بيننا.. بدا عقلي وكأنه يريد أن يعمل لأول مرة منذ زمن طويل.. وليته لم يعمل.. بدأت أتساءل، ماذا لو استمرت لقاءاتنا على هذه الشاكلة الجديدة، وهي ستستمر بالتأكيد.. ترى، هل سأستطيع أن أقاوم مثلما فعلت هذا اليوم.. هل سأستطيع أن أحافظ عليها، هي لم يبد عليها أنها تريد ذلك، بل لم يكن يهمها الأمر أبدا، فهل سأستطيع ذلك لوحدي.. ماذا سيحدث إذا ما.. أسئلة تلد أسئلة وأنا حائر، مضطرب.. ومثار.. لا أستطيع أن أبعد الموضوع عن بالي، ولا أستطيع أن أجد إجابات ترضيني.. وأنا في خضم ركام الأسئلة الهائل، برز سؤال جديد، فكدت أقفز

من مكاني.. ماذا لو حدث لي شيء، كأن يلقى القبض عليَّ، أو حتى أن أقتل، بعد أن يحدث ما كنت أخشاه.. نعم، كان ذلك ممكنا، بل ممكنا جدا في ظل تلك الظروف.. الحزب، وعيون الحكومة المحدقة بنا.. فقد تم إعادة الإتصال بي من قبل الحزب في حينها.. نعم، فرغم الظروف، وقسوة الرقابة الحكومية، كان الحزب يعيد تنظيم نفسه، ويحاول أن يتجاوز آثار الضربة القاصمة التي أنزلت به بعد مهزلة الجبهة الوطنية.. أنا يا سيدي كنت شيوعيا مخلصا.. لا، لا، لم يكن الحزب والتنظيم هو ما يروق لي، بل فكرة الثورة.. الثورة الشيوعية.. الثورة الانسانية الحقة التي تعيد للإنسان كرامته.. وما علاقتي بالحزب إلا لأنه هو من سيقود هذه الثورة.

في ذات يوم، وخلال الشهر الأول بعد بدء الدوام، أتاني من يخبرني أن فتاة ما تسأل عني، فتصورت أن زها تحتاجني لأمر ما، فاضطربت وهرعت للبحث عنها، ولكني سرعان ما اكتشفت أنها فتاة أخرى.. فتاة لم أكن أعرفها، ولا رأيتها في الجامعة يوما.. حين أقبلت عليَّ وابتسامتها تسبقها، صافحتني، وطلبت مني أن نتحدث على إنفراد، استجبت لطلبها، وعندما أصبحنا لوحدنا، أخبرتني أن الحزب كلفها بأن تعيد الإتصال بي.. أتعرف يا أستاذ كان غباء مني أن صدقتها على الفور، فقد كان للحكومة فنون في الإيقاع بالشيوعيين وكان بإمكانها أن تصطادني بأن ترسل إلي فتاة لتفعل ذلك.. ولكني صدقتها وتفاعلت معها على الفور.. لا أعرف يمكن أن يكون السبب لأنها فتاة.. أو لأن وجهها كان يوحي بالثقة أو بتأثير دماثتها ولطافتها.. ولكني صدقتها.. بل فرحت بمجيئها.. هي حذرتني منذ أول لقاء وأخبرتني بأن إتصالها بي يمكن أن يعرضني للخطر، بل خطر كبير، ولكني فرحت بلقائها.. آه، لقد نسيت

اسمها.. كيف يمكن ذلك، فقد كانت مسؤولتي الحزبية طوال شهرين أو ثلاثة وكنا نلتقي أسبوعيا، فقد كانت هي تأتيني إلى الجامعة في أوقات مختلفة.. كنت أحرص في أثناء لقاءاتنا على أن آخذها بعيدا عن عيني زها، لكي أتخلص من الأسئلة، ولكي لا أضطر لأخبارها بشأن إرتباطي بالحزب الشيوعي، فبالإضافة إلى تعليمات الحزب المشددة بشأن السرية التامة، كنت أعرف أن زها لا تؤمن بالعمل الحزبي، وتكره السياسة ولا تطيق العاملين بها.

قلت لها ونحن نسير معاً قبيل انتهاء الساعة الحرة:

- أنا مسرور جدا.

فقالت وهي تبتسم:

- عساك تكون كذلك دائما.. ولكن، لماذا؟

فتلعثمت وأنا أقول:

- بسبب ما حدث بيننا البارحة.

إفتر ثغرها عن ابتسامة أخرى، وقالت:

- آه.

عرفت أنها فهمت شيئا آخر، فقلت على الفور، معقبا:

- لا.. أقصد.. حسنا.. أقصد أنا مسرور لأنه لم يحدث بيننا ما قد يسبب لك مشكلة.. إذا ما غبت عنك.. لأي سبب.

فتوقفت عندها، وإلتفتت إلي.. تطلعت في وجهي وكأنها تريد أن تتأكد من شيء ما.. قالت:

- أتقصد أنك مسرور لأن الأمر لم يتم كما يفترض به.

فأومأت برأسي إيجابا وأنا أعلق بسمة على شفتي، ولكنها قالت متابعة:

- ومن قال لك أن ذلك يسرني.

تفاجأت بما قالت، ولكني لم أستطع أن أرد على الفور، فيما أكملت هي:

- ألم تفهم بعد يا يسار.. لقد أحببتك، فمنحتك نفسي.. منحتها من دون شروط، ولن يهمني أبدا ما قد يحدث بعد ذلك.

قلت عندها:

- ولكن، لن يرضيني أن تعاني من أية مشكلات إذا ما حدث لي شيء.

أتعرف يا أستاذ، كان ما قلته في تلك اللحظات كذبا.. نفاقا.. فبعدما عرفت استعدادها لمنحي ما كنت أريده أكثر من أي شيء آخر في الحياة، في حينها، عربدت الرغبة في داخلي، واستحالت الخشية أملا في وصال.. وصال كامل قضيت عمري أحلم به.. لا، أنا لم أكن كاذبا عندما عبّرت عن خشيتي في المرة الأولى، ولكني كنت كذلك في المرة الثانية.. أنا لا أسوّغ لك شيئا هنا، بل أريد أن أبين لك حقيقة مشاعري في حينها، وكيف تريدني أن أكون صادقا حينما أخبرك بأني تجاوزت كل معاناتي مع الكبت المستمر منذ بلوغي، ورفضت فرصة لا يمكن أن تتاح لمثلي كل يوم، ومع من، مع غادة حسناء يمكن أن يسجد لها رجال من أجل نظرة منها فقط.. المهم، كانت هي خلال تلك اللحظات تنظر مباشرة في عيني، ويبدو أنها قرأت أفكاري مرة أخرى، لأنها قالت فجأة:

- هيّا.

قلت:

- إلى أين؟

ردت قائلة:

- لنغادر الجامعة.

ثم أكملت بعد هنيهة:

- هيّا بنا إلى البيت.

البيت.. وأي بيت يمكن أن تقصد غير الذي فكرت به في تلك اللحظة، ومع ذلك تساءلت:

- أي بيت؟

قالت وهي تنظر إلي بنظرات ذات مغزى واضح:

- البيت.. بيتك الجديد.

وأنا مندمج بدور الحريص عليها، صحت:

- ماذا دهاك؟

ولكنها ابتسمت لي وقالت بصوت لم تحرص على إخفاء نـــبرة الأمر فيه:

- هيّا.

كادت الحيرة تشلني وأنا أحاول أن أتأكد من نيتها الحقيقيـــة.. قلت متحججا:

- ولكن المحاضرات ستبدأ.

فقالت على الفور:

- لتذهب المحاضرات إلى جحيم.. هيّا.

لم أر عندها بدا من أن أنصاع لأمرها.. سرنا معاً بإتجاه البيـــت وأنا على يقين مما سنفعله بعد قليل، ولكني لم أتوقف عن سؤالها عما تريده من الذهاب إلى البيت، وهي تغذّ السير صامتة.. بدأ قلبـــــي ينبض بسرعة وراحت حمى الشبق تستولي على جسدي.. هـــا قـــد حان الوقت.. لأول مرة سأقوم بالأمر مع فتاة حقيقية.. وأية فتـــاة..

ونحن نقترب من البيت، تناسيت خشيتي عليها، نهائيـــا.. رفضـــت إشارات العقل، واستسلمت كلية لهمس الغريزة، وجبروتها.. حـــين أصبحنا أخيرا لوحدنا في البيت، تخلصت مـــن ملابســـها بســـرعة، ووقفت أمامي، مبتسمة.. مرتجفة.. وعارية، فازدادت شياطين الشبق هياجا في جسدي، تخلصت من ملابسي أنا الآخر.. وإحتضنتها.

قطرة، قطرة، تحول الغيث إلى مطر.. قطرة، قطرة، تجمعت المياه في السواقي.. قطرة، قطرة، تســـربت إلى مجـــرى النـــهر.. قطرتـــان متعانقتان كنا والمياه من حولنا، هادئة.. سارت، ونحن متعانقان نمتطي صهوة الموجات الرقيقة.. تسارع التيار، فما فككنا عناقنا.. هاجـــت المياه من حولنا، وماجت، فصعدنا معها من دون فكاك، وما نـــزلنا.. سمعت صوت هدير، فتسارع النهر، وحين ألقـــى بنفســـه في هـــوة الشلال، إنفصلنا عنه.. عمنا في الفضاء، وأصبحنا قطـــرة واحـــدة.. ولكن ثمة قاع، ولا بد من العودة إليه.. سقطت قطرتنا.. غاصـــت.. عامت، فاختفى الهدير.. لم يكن ثمة غير سطح هـــاديء فإنفصـــلنا، وتشظيتُ قطرات.. آه، لا تهتم يا أستاذ إن لم تفهم مدلولات كلماتي هذه، ولكنك تعرف عم أتحدث بالضبط.. أليس كذلك، فأعذرني إذاً، ولكني عراقي مثلك وهذا أقصى ما أستطيعه من توضيح بهذا الشأن.. المهم.. إستلقت هي مغمضة العينين، يعلو صدرها ويهبط، بجنـــون.. إستلقيت إلى جانبها، يدمدم الدم في عروقي، وأنا أحاول أن أســـيطر على أنفاسي اللاهثة.. فجأة، فتحت عينيها على سعتهما، وراحـــت تتطلع في السقف صامتة.. إمتد الصمت بيننا.. تجمعت قطراتي، فبدأت احاول إستيعاب ما حدث للتو.

أنا لم أستطع أن أستعيد تفاصيل ما حدث بيني وبينها، فقد بدا لي وكأنه مجرد حلم، وقد لازمتني هذه الحالة طويلا قبل أن أستوعب

بالضبط ما كان يحدث، ولكني في ذلك اليوم كنت مشغول البال بسؤال واحد كان يحيرني.. لماذا تصرفت هكذا.. و لم أستطع أن أجد الجواب مع نفسي.. أيمكن أن تكون.. رباه، تساءلت عن.. رغم أني رأيت بنفسي دم عذريتها، آه يا أستاذ، أنا لا أريد أن أبرر لنفسي شيئا، فقد أخطأت كثيرا في تلك الأيام، ولكني كنت معذورا في حينها أيضا لأني لم أكن لأستطيع أن أفهمها أو أن أفهم تصرفاتها، فقد كانت أكبر من قدرتي على الإستيعاب.. لِمَ لَمْ تنتبه هي إلى هذه الحقيقة.. أو لعلها إنتبهت.. بل أكيد أنها إنتبهت، ولكنها كانت تحبني.. تحبني أكثر مما يجب.. رباه، لِمَ انتقتني أنا من دون غيري، لتهبني نفسها.. أما كان لها أن تكون أكثر دقة في الإختيار.. هي كانت تمتلك العقل اللازم لفعل ذلك، فلِمَ لَمْ تستخدمه.. ولكن، ما فائدة هذا الكلام، فما حدث قد حدث، ولا مجال لتغيير أقدارنا الآن.

لم يمت يسار القديم، ولكن طرأت عليه تغييرات كبيرة، فمع كل تجربة جديدة، كنت أستمد ثقة بالنفس، أكبر، حتى ظهر في أروقة الجامعة، يسار جديد.. يسار، كان يمكن أن يدير رؤوس بنات الجامعة الجميلات بعدما كان يمر من أمامهن كظل مهمل.. أنا لم أعرف يوما ما الذي تغيّر بي، ولكني فجأة بدأت أنتبه للنظرات المتفحصة.. أو التي تحمل دعوات وهي تنصب عليَّ، وممن.. من فتيات لم يكن يحسسن بوجودي من قبل.. أهي غيرة النساء، أم رغبتهن الجامحة في التنافس.. ولكن ما همّني ما دمت أستفيد حتى من نظراتهن لأني كنت أعريهن مع أول نظرة، بخيالي.. مستعينا بجسد زها الذي بدأت أعرف تضاريسه جيدا.. لا تنظر إلي هكذا، فهذا ما كان يحدث ولا تفسير عندي له، فقط كان يحدث.. أتعرف.. في

أيام إرتيادي للمواخير، كنت أحاول أن أستخدم تجاربي مع العاهرات لكي أتصور أجساد الفتيات اللواتي ألتقي بهن في الشارع، أو في أي مكان آخر، ولكني كنت أفشل في ذلك دوما لأني كنت أشعر أن تلك الأجساد المدنسة لا يمكن أن تقارن بأجساد الفتيات اللذيذة.. أما بعد عصر زها، فقد أصبح عندي من الرصيد ما يجعلني أنجح في تصور حقيقة الفرص المعروضة عليَّ عبر العيون المحدقة.. كنت في تلك الأيام منتشيا لأني شعرت بأني أعيش أحلى أيام حياتي، وهل بعد كل ذلك الكبت الرهيب الذي عانيت منه في بلدتي الصغيرة التي ضيعت شخصيتها وهي تعبر الدرب الفاصل ما بين القرية والمدينة، من حياة، أحلى من العيش مع هذه النماذج المختلفة من الفتيات المثيرات وأنت تشعر أنك تمتلك الفرصة لأن تمارس معهن كل ما كنت تحلم به.. إرجمني إن كان لديك حجرا، فأنا لن يهمني ذلك لأني سأستمر بهذا البوح ولن أخفي عنك أني وبدلا من أن أخلص لهذا الملاك الذي منحني كل شيء، بدأت أخطط لإقتناص كل الفرص التي يمكن أن تتاح لي في هذا المجال، كما رسمت لنفسي خطة طموح لكسر الأرقام القياسية في هذا المجال.. صحيح أني لم أنفذ خطتي هذه، و لم تتح لي الفرصة للتمتع بأي من تلك الفتيات الشهيات، ولكن ذلك كان لأن الظروف لم تسمح، ولأن الفشل في تحقيق حلمي في العيش في غابة من أجساد العذارى، كان مسألة وقت لا أكثر.. وأنا، لا، أدري.

ذات يوم، كانت تسير إلى جانبي في الجامعة وهي صامتة.. بدا عليها أنها مشغولة البال بأمر ما، ولكنها لم تكشف لي عن ماهيته رغم محاولاتي لإستكشافه.. إلتفت إليها وأنا أسير.. تطلعت إليها للحظات، وعندما أزحت عيني عنها، إلتفتّ فإذا بنظراتي تلتقي

بنظرات سحر.. سحر، ساحرة قسم السياحة، ومبعث آمال صيادي المتعة في الجامعة.. كانت تنظر إلي مباشرة وقد تخندقت بسمة صغيرة على حدود شفتيها.. ابتسامة أو ظل ابتسامة، ولكنها واعدة جدا.. آه يا أستاذ.. سحر التي كانت الفرصة المثلى لما كنت أشتهيه بالفعل.. جميلة.. جريئة.. ولعوب، أي أني أستطيع أن أعبث قليلا معها، من دون خشية من تأنيب الضمير، فقد كانت القصص التي سمعتها عنها تعد بالكثير إذا ما إستطعت تطوير علاقتي بها.. نظرت بطرف عيني إلى زها الصامتة، كانت لم تزل تبدو ساهمة وهي تسير، فإفترضت أنها لن تنتبه لما سأفعله.. مزجت رغباتي بسحري المفترض، وصببتهما ابتسامة على شفتي، أهديتها عبر النظر، إلى سحر التي كنت على يقين من أن مثلها لا يمكن أن يفوته مغزاها، ولكن.. في تلك اللحظة بالضبط، توقفت زها، فتوقفت مرتبكا وكأني مسكت بالجرم المشهود.. غاضت ابتسامتي.. إلتفتّ إلى زها فوجدتها تنظر إلي باستغراب واضح.. قلت متلعثما:

- ماذا؟.. ما بك؟

لم تجبني، بل تركتني واقفا، وسارت مبتعدة.. لحقت بها، ناديتها، فإذا بها تلتفت إلي وقد غام الليل في عينيها.. كانت هي تلك المرة الأولى التي أراها فيها غاضبة.. وكانت الأخيرة.. بدت لحظتها وكأنها زها أخرى.. زها غاضبة.. زها مخيفة.. شزرتني، فكادت روحي تطلب اللجوء خارج جسدي.. أرعبتني، فامتنعت عن اللحاق بها وهي تبتعد عني.

حسنا، لقد درجت حتى الآن على الصراحة معك، فلأكن معك كذلك هذه المرة أيضا.. مع تزايد الإشباع الذي كانت زها تمنحني إياه، بعد طول جوع، بدأت أشعر أحيانا بثقل إرتباطي بها..

كنت في أعماقي أتمنى أن تمنحني المزيد من الحرية لكي أستفيد من التغير الذي طرأ عليَّ بعد أن أطلت على حياتي المقفرة.. كان ثمة الكثير من الفتيات الجميلات، ولأول مرة أشعر أنهن قريبات المنال، فلم لا أغرف من معينهن، ولكن وجودها يعيقني.. هكذا كان الأمر، وأنا كنت أتمنى أن تخفف عني وجودها الآسر.. أتمنى فقط ولكني لم أجرؤ على طلب ذلك منها لأني كنت على يقين من أنها لن تسامحني لذلك، وأنا في النهاية لم أكن لأحتمل فكرة فراقها.

عندما تابعتها بنظري وهي تبتعد عني في ذلك اليوم، كان يجب أن أكون مرتاحا لأنها منحتني الفرصة أخيرا، وها هي سحر حاضرة ومثل سحر لا يمكن أن تخيب رجاء.. ولكني كنت في تلك اللحظات مزعزعا، خائفا وحزينا وأنا أرى زها تبتعد عن حياتي، غاضبة.. كنت على يقين من أنها تركتني لحظتها إلى الأبد، فهي تحتمل كل شيء مني، إلا الخيانة.. ولكن، أية خيانة، فمن المستحيل أنها قد رأت تلك الابتسامة، فقد كانت تسير إلى جانبي وقد طأطأت رأسها.. متى رأتني.. وكيف.. ولكنها زها يا أستاذ، ولا مستحيل لهذه الفتاة الخارقة التي كانت تبدو وكأنها تقرأ أفكاري طوال الوقت.. ولكن، سواء أكانت رأتني أم لا، فهي قد غادرتني غاضبة وقضي الأمر، وأنا على يقين من أنني لن أستطيع إسترضاءها مهما فعلت.

لم أرها مرة ثانية في ذلك اليوم.. بدا وكأنها قد غادرت الجامعة بعد أن تركتني مشتتا إلى درجة أني لم أعاود النظر إلى سحر التي بدت وكأنها لم توجد أصلا.. قضيت بقية اليوم وأنا في أسوأ حال، وعندما عدت إلى البيت، كنت حزينا، محطما ويائسا.. لم أفكر بتناول أي طعام، بل بقيت معظم الوقت أدور على غير هدى، في أنحاء البيت الصغير.. هدني التعب، فنمت.

أنا لا أذكر تفاصيل الأحلام التي راودتني في تلك الليلة، ولكني أذكر أنها كانت مزعجة وجعلتني أهب من نومي مرات عديدة، ولكني كنت أعود إلى النوم في كل مرة، من شدة تعبي.. في لحظة ما، سمعت قرعا خفيفا على زجاج نافذة.. نافذة ما في حلم كما تصورت.. تكرر القرع، فتنبهت حواسي، ولكني لم أغادر الفراش لأني كنت على يقين من أن أحدا لا يمكن أن يقرع عليَّ نافذتي في ذلك الوقت.. أنا يا سيدي لم أكن أنام في غرفة النوم الوحيدة في البيت والخاصة بابن خالتي وزوجته.. بل جعلت منامي في الصالة حيث تعودت أن أمد فراشي لكي أقرأ أي كتاب يتاح لي بعد أن تعودت القراءة بسبب زها، أو أن أتابع التلفاز حتى يأتيني النعاس أو أن أطفيء الجهاز بعد نهاية البرامج اليومية.. عندما تكرر القرع مرة أخرى وأنا بكامل وعيي، قفزت من فراشي متفاجئا.. مذعورا قليلا، أسرعت إلى الستارة لأزيحها لكي أعرف من القارع، فإذا بوجه زها يطالعني.. وجهها الجميل وهي تبتسم لي.. كدت أنكر على عيني ما ترى، ولكنها كانت واقفة بالقرب من الباب الداخلي بعدما تجاوزت الخارجي من دون أن أشعر بها، كانت تنظر إلي من خلال النافذة وقد أمالت رأسها إلى جانب في حركة مداعبة ورجاء، ثم قربت يدها المضمومة من فمها لتنفخ فيها وكأنها تريد أن تشكو لي البرد الذي كانت تعاني منه لحظتها.. عصفت بي السعادة، وطارت بي إلى الباب لأفتحه.. أقبلت عليَّ لتمنحني قبلة.. صارعت رغبتي في البكاء، وتلقفت شفتيها بلهفة.. ابتعدت عنها بعدما تذوقت شهدها، فتحت فمي لأعتذر منها على الفور، لعلي أستطيع أن أسوّغ ما فعلته بالأمس، ولكنها منعتني من الكلام بإقفال فمي بيدها وهي تقول:

- لا تقل شيئا أرجوك، فأنا لن أسمح لامرأة أن تنافسني بك، فأنت لي الآن.. كلك لي.

جعلتني يدها التي لامست فمي، أصاب برعدة لشدة برودتها.. فيما قالت هي متابعة:

- هن يستطعن أن يحظين بك من بعدي.. أما الآن.. فأنت لي لوحدي.

لم أعلق بشيء، بل أمسكت بكفيها لأبعث الدفء فيهما.. بدا الحزن عليها وهي تقول:

- أرجوك.. أنا لن أحتمل قصة حب فاشلة، فالفشل في حب تصورناه ولو للحظة، حقيقي، لأشد إيلاما على النفس، من الموت نفسه.

لم أجد في وجداني ما يمكن أن أجيب به عمّا قالت، فحاولت أن أتشاغل عنه.. عندها فقط، إنتبهت إلى أننا كنا لم نزل واقفين عند الباب المفتوح، سحبتها برقة، وأغلقت الباب من خلفها.. قدتها من دون مقاومة إلى الفراش.. جعلتها تستلقي، ثم استلقيت إلى جانبها، وسحبت الغطاء ليحتوينا معاً.. مددت يسراي لتمسد شعرها، فيما كانت اليمنى لم تزل محتفظة بيدها المقرورة.. واصلت اليسرى رحلة التعبد، فداعبت أذنها.. ذقنها.. مست شفتيها، فسرت رعدة على طول عمودي الفقري.. تسلل الدفء كالسحر من الغطاء، إلينا، ومع إنحسار البرد من يدها، كانت الحرارة تتجمع كالإعصار في داخلي لتصهر غرائزي التي بدأت تتململ.. دنوت منها، إبتسمت لي، فدنوت أكثر.. بدأت الحمم تغلي.. (تبقبق).. كان لا بد من التنفيس، وهاهي ملك يدي.. إستسلمت لي.. أغمضت عينيها، فصهلت فحولتي.. تمددت الحمم.. وتصاعدت، لم

تعد أعماقي تستوعبها، فبدأت تبحث عـــن مخـــرج.. تتصـــاعد.. تتصاعد.. تتصاعد.. كنت مفتونا برجولتي.. مأخوذا بقدراتي.. إنهـــا تتصاعد.. هدد البركان بثورته، فأمعنت في التسلق نحو ذروته.. كنت مقداما.. كنت شجاعا، فرحت أصعد وأصعد حتى نفثت الحمم وأنا أصيح من فرط اللذة.. خمدت أعماقي، وتجمدت الصهارة فيهـــا.. إستلقيت إلى جانبها مرة أخرى، أراقب وجهها الجامد مستغربا.. ما الذي حدث.. لم لا يبدو على وجهها أثر.. فتحت عينيها وراحـــت تراقب السقف مرة أخرى.. لم أجرؤ على سؤالها، فأغمضت عـــيني وغرقت في النوم فورا.

آه، يا لتلك الزيارات الصباحية!.. لقد كررتها بعد ذلك اليـــوم أكثر من مرة، وفي كل مرة، كانت تفاجئني.. تذهلني، وتجعلني أعيش ألذ أحلامي.. سألتها أكثر من مرة عن كيفية تمكنها من أن تصـــل بهذا الوقت المبكر، وما الذي كانت تقدمه لأهلها كعذر لخروجهـــا المبكر.. ولكنها لم تجبني أبدا.. ولم أكن أنـــا لألح في الســـؤال، لأني كنت أكتفي بالمتعة الهائلة التي توفرها لي.. نعم يا أستاذ، هي لم تكن بالنسبة لي في ذلك الوقت أكثر من أداة متعة.. وأية أداة.. هي زهـــا يا أستاذ.. زها بكل ألقها وسحرها.. زها التي كدت أبكي يـــوم أن بادلتني الكلام فقط، أصبحت أداتي لنيل المتعة واللذة.. أداتي لأختـــبر ذلك العالم الذي لطالما بقيت أبوابه موصدة بوجهي.. قبلها.. صحيح اني كنت أحبها بشكل ما، ولكنه كان حب إمتلاك.. حب إعتياد.. اللعنة.. ألف مليون لعنة.. فقط لو لم تستجب لي في ذلـــك اليـــوم اللـــ.. لا والله لا أستطيع أن ألعن ذلك اليوم، فقد كان أزهى أيـــام حياتي.. ولكنها فقط لو لم ترد عليَّ تحيتي، لكنت أتبعها كالكلـــب الذليل متمنيا ولو لفتة منها، بدلا من أن أتذمر من وجودها في حياتي

عندما أفكر في غيرها من الفتيات.. ولكنها لا تعرف غـــير العطـــاء عندما تحب، فعلمتني الأخذ الذي قادني إلى الأنانية.. هي تعطي وأنا آخذ.. هي تمنح وأنا آخذ.. تصور، لم أسأل نفسي يوما إن كانـــت تتمتع بما كان يحدث بيننا في تلك الأيام، أم لا، فقد كنت مشـــغولا بشلالات المتعة التي تنهمر عليَّ كلما إلتقينا منفردين.. صحيح إني لم أكن أعرف في حينها شيئا عن الطريقة التي تصـــل بهـــا النســـاء إلى ذروتهن، فأنا كنت خريج مدرسة العاهرات مثلما تعـــرف، وهـــمّ العاهرات دوما هو أن يجعلنك تنتهي بسرعة لكي يأخذن أجـــورهن ويتهيأن للزبون التالي، فمن أين كان لي أن أعـــرف.. لا، لا، بـــل لو كنت أحبها بالفعل، لعرفت، ولكن من أين للمشغول بنفســـه أن يشعر بالآخرين.. ثم كانت هناك مشكلة السرعة.. إذ لم يكن الأمر يستغرق مني أكثر من ثلاثين أو أربعين ثانية في أحسن الأحوال.. أو حتى دقيقة.. لم يكن بمقدوري فعل شيء في هذا المجال، فذلك هـــو يسار الذي أنتجه الكبت وهصر الحرمان روحه.. كنت مليئا بالعقد والحاجات غير المشبعة يا أستاذ، فلبّت زها الكثير من حاجاتي بدأب المحب، وعالجت عقدي الواحدة تلو الأخرى بعطائها، ولـــو بقـــت معي، لكنت الآن أسعد إنسان، ولكني لم أستطع أن اقـــدرها حـــق قدرها في وقتها و لم أحافظ عليها فعاقبتني الأقدار.. أتعرف؟.. لقـــد جعلتني أتجاوز حتى عقدة القطار.. أكيد أنك لا تعـــرف، ولكنـــها كانت موجودة.. تصور، كنت أشعر بالإثارة الجنسية لمجرد مـــراقبتي للقطار وهو يمر.. أرأيت شيئاً أسخف من هذا، ولكنه حقيقـــة.. في حينها، لم أستطع تفسير الأمر، ولكن الآن، أنا أتصور أن أحاديثنـــا ونحن صغار عن الجنس الذي كان يمارس بحرية وكثرة في مدن بعيدة عن بلدتنا المبتلاة بالتابو وتحريم الجنس.. بلدتنا الضائعة ما بين تقاليد

الريف، وأثر المدينة.. كان البعيد أيامها، مكان كل المتع الجنسية التي تصورها لنا مراهقتنا المقبلة، والتي حرمنا منها.. مكان التحرر من كل القيود، ولذلك افترضت أن كل مسافر إلى ذلك البعيد لا بد وأن يكون متحررا، جريئا وعابثا، فقد كانت الأفكار تترى في رأسي إذ أسمع تلك الأحاديث التي لم أكن أشارك بها أصلا، لخجل يمنعني من ذلك، فكيف كان يمكنني أن أسأل عمّا غمض عليّ.. كنت أجتر الأفكار وألوكها مع حيرتي، وما من مجيب.. كان القطار يمر بالقرب من بلدتنا من دون التوقف فيها.. وفي ذات يوم سألت أبي ونحن قريبان من القطار الذي مر للتو، عن المكان الذي يذهب إليه، فقال لي على الفور، أنه يذهب بعيدا، ويبدو اني ربطت منذ تلك اللحظة القطار بالجنس.. أنا لا أستطيع أن أكون على يقين من ذلك، ولكن هذا هو التفسير الوحيد المحتمل وإلا ما الذي يمكن أن يربط القطار به.. المهم، مع الأيام بدأت مخيلتي تصور لي ما كان يحدث في ذلك القطار المندفع من أمور محرمة.. ولكنها مشتهاة.. وبشدة.. كان عقلي الصغير يحلق في خياله لكي يستطيع أن يتصور كل الفسق والمجون اللذين يقترفان في حفلات العربدة التي تقام في تلك العربات التي تلاحق بعضها، بإصرار، وشغف.. في ظلمات مراهقتي، عرفت شكرية.. لا لم أعرفها بذلك المعنى، بل كانت جارتي، هي لم تكن جميلة، ولكنها كانت أقرب فتاة لي، مكانيا، في ذلك المجتمع المكبوت.. في أيام الصيف، كانت هي تنام مع جدتها على سطح دارهم، كما نفعل نحن، بل نفعل جميعا.. كنت استيقظ مبكرا، وأظل أتلصص عليها لأقتنص، ولو جزءا ضئيلا من مفاتنها.. ولكنها، والحق يقال، كانت كريمة في ذلك، خاصة بعدما تستيقظ جدتها وتنزل لتتركها نائمة لوحدها.. كانت تفتح لي أبواب الجحيم بما

تعرضه وهي تتقلب في فراشها، فأظل مهتاجا، ثائرا، وأنا لا أعرف إن كانت نائمة أو تمثل.. ولا أستطيع أن أتأكد من شيء.. أنزل بعد أن يدعوني للإفطار، فلا أصيب منه الكثير لأني لا أستطيع أن أتناول الطعام وأنا على تلك الحالة.. أنهي وجبتي بسرعة ثم أسارع إلى دراجتي فأمتطيها، لأطير إلى مخبئي السري في ضواحي البلدة.. كان عبارة عن أجمة، وشجرة، وأهم ما به، أنه كان قريبا من سكة القطار.. لا أطيق صبرا على إنتظار القطار لأبدأ طقوسي.. أترك دراجتي، وأسارع إلى السكة، أضع أذني عليها وأنصت.. حين يقترب، أشعر بإضطراب السكة.. هي عبارة عن ذبذبة خافتة جدا، ولكني كنت دوما أشعر بها.. أقطع نفسي وأبذل جهدا أكبر في الإنصات، فأسمع صوت العجلات البعيدة وهي تتجاوز الفواصل.. تتك.. تتك.. يكون الصوت في البداية خافتا إلى درجة أني أخلط بينه وبين دقات قلبي، فأغمض عيني وأركز بعد.. تتك.. تتك.. إنه يقترب.. عندها، يبدأ الشعور بالإثارة يستفحل ويبدأ ذلك اللعين يمتلك جسدي الذي يتحول بأكمله إلى.. أنت تعرف ماذا، ولكني لا أستعجل، بل أنتظر وصوله لكي يحل النظر محل التصور.. تتك، تتك.. يعلو صوت العجلات فأفتح عيني مذعورا مخافة أن تداهمني وأنا في وضعيتي تلك.. أنسحب إلى مخبئي لأراقب من هناك وأنا أداعبه وأداعبه.. عندما أراه، استحضر كل قدراتي على التخيل.. استدعي شكرية فنقتحم القطار.. أضيق بزحمة المتهتكين، فأطردهم.. يخلو لنا القطار، أنا وشكرية.. أتعرف يا أستاذ، كان دأب القطار أن يصفر عندما يقترب من حدود البلدة، كما هي عادة القطارات، فإذا ما صدف وتزامنت صافرته، مع ذروتي، فعندها أشعر بلذة مجنونة لم أستطع أبدا أن أبلغها إذ تعديت مرحلة مراهقتي.. إلا مرة واحدة.

كان بإمكانه أن يعود على الطريق العام، ولكنه فضل أن يختصر الطريق بسلوك الدرب المار بين البساتين.. كان يعشق منظر الأشجار المثمرة التي تشرف أغصانها على الدرب الضيق، وهي تطل عليه من فوق أسوار الطين، وتوفر له الظل الذي يفتقده الشارع العام المبتلى بكرم شمس ظهيرة الصيف الحارقة.. وسبب مضاف، أنه كان قد عرف أن الكلاب السائبة التي تعشق مطاردة راكبي الدراجات، كانت تكثر على جانبي الطريق العام، فيما يندر مصادفتها هنا، في هذا الطريق الذي يتلوى في قلب البساتين الكثيفة.. كان قد أنهى للتو، زيارة لصديقه الجديد، في بيتهم الواقع في ضواحي البلدة، ضمن بيوت الموظفين التي بنيت لهم هناك مؤخرا.. كان صديقه من بغداد.. تلك المدينة الأسطورية التي لم يزرها سوى مرة واحدة، فرأى فيها عجبا.. في ذلك اليوم، قضى وقتا ممتعا مع صديقه، وتناول معه طعام الغداء، فرأى من أصناف الطعام ما لم يتصور وجود مثله من قبل.. يا لهؤلاء البغداديين!.. أهم نوع آخر من البشر.

عرف أنه إقترب من نهاية الدرب، فلطالما سار فيه مع أصدقائه، للنزهة، أو للدراسة أيام الإمتحانات.. وهو يستدير مع المنعطف الأخير له، رأى نفسه بمواجهة امرأة مرتدية عباءة.. تعجب لرؤيتها هناك وحيدة.. تلاقت نظراتهما فورا، فعرفها، كانت شكرية بنت الجيران، شكرية، التي تعيش مع جدتها لوحدهما في البيت المجاور لبيتهم.. إبتسمت له، فارتبك، لأنها كانت المرة الأولى التي تبتسم له فيها.. لم يرد لها ابتسامتها، بل أسرع بدراجته، فتجاوزها، ولكنه سرعان ما سمعها تناديه:

- يوسف.

إزداد إرتباكه عندما أدرك أنها تعرف اسمه، توقف على الفور، وكاد يقع عندما حاول الترجل عن الدراجة.. إلتفت إليها وقال بصوت متلعثم:

- نعم.

قالت وهي مبتسمة:

- أنا ذاهبة للبستان لوحدي.. جدتي مريضة اليوم.. أتستطيع أن تساعدني قليلا؟.

لم يعرف بم يرد، فهو لا يعرف شيئا عن البستنة.. مع ذلك، أومأ برأسه إيجابا، ثم سار وراءها وهو يقود دراجته بيديه.. وصلت إلى باب البستان القريب فعالجته بالمفتاح الخشبي الذي كانت تخبئه تحت عباءتها، فصرّ الباب ليفسح لهم المجال اللازم لدخول البستان الفسيح.

أغلقت الباب بعدما دخلا، وألقت بالمفتاح على الأرض قريبا منه، فيما أسند هو دراجته على الحائط الطيني، ووقف مرتبكا، إبتسمت له وهي تسير نحو الكوخ الملاصق للحائط، دخلت، ثم خرجت بعد قليل من دون عباءة.. عندما رآها بلباس النوم الطويل الذي يكاد يسفر عمَّا أؤتمن عليه.. شعر وكأن حجرا كبيرا ألقي في معدته.. دارت عيناه في محجريهما وهو يداري خجلا يبعدهما عنها، وشبقا مفاجئا يجعل جسدها الممتلئ، مغناطيسا لهما.. إقتربت منه كثيرا.. كثيرا جدا.. قالت بصوت هو إلى الهمس أقرب وكأن أحدا يمكن أن يسمعها في ذلك البستان المترامي الأطراف:

- إذا أنت تحب أن تتلصص على الفتيات وهن نائمات، أيها الشقي.

صدم حينما سمعها تقول ذلك، فغادر الشبق جسده مذعورا.. قال بصوت مبحوح:

- أنا؟!

فمدت هي يدها لتغلق فمه، قائلة:

- إياك أن تنكر.. لقد ضبطتك أكثر من مرة وأنت تفعل ذلك.

كانت تلك هي المرة التي يستطيع أن يتمعن فيها بوجهها الأسمر، القريب منه.. كانت تفتقد إلى الجمال كثيرا، فخمدت رغبته نهائيا.. حاول أن يدافع عن نفسه، ولكنها منعته بإصرار من الكلام، وهي تقول ضاحكة:

- يجب أن تكون ممتنا لأني لم أقل لأحد.

ثم قرصت شفته برقة، واستدارت، لتبتعد وهي تهز أليتيها اللتين زادهما كبرا، القماش الملتصق بهما.. كان عقله يشتغل بسرعة هائلة، لقد ضبطته، ولكنها لم تخبر أحدا.. تمسك بفمه بالفة، وتقرص شفته برقة، وها هي تسير أمامه بمنامتها، وهي تتقصد أن تهز تلك الآله الجهنمية.. عاد الشبق منتصرا ليقود دماءه الفائرة إلى مكان التجمع.. أيمكن أن تكون هذه هي فرصته للتخلص من عذريته التي كانت تثقل عليه.. توقفت شكرية، والتفتت إليه.. قبل أن تتكلم، حانت منها نظرة إلى أسفل بطنه، ارتدت نظراتها وقد بدت فيهما الدهشة، إلى عينيه، قبل أن تعود، لتستقر حيث أشعرته بحرج كبير.. حاول أن يخفي جريمته بيده، ولكنه أدرك أنه لن يزيد بذلك، الطين، إلا بلّة.. افترّ ثغرها عن ابتسامة وقالت:

- هيا لندخل في أعماق البستان.

أعماق البستان.. أدرك أنه نائل بغيته لا محالة.. ولكن لِمَ أعماق البستان.. قال:

- لم لا نفعلها هنا يا شكرية.. ألا يكفينا هذا الكوخ.

ولكنها لم ترد عليه.. لأنه لم يستطع أن يقـــول ذلـــك، إلا في خياله.. تابعها بعينين شبقتين وهي تسير باتجاه الغابة الممتدة أمامـــه.. تحرك ليلحق بها.. لاحظ الأعشاب التي تغزو الأرض الطينيـــة وهـــو يسير، فقلق.. تذكر (العربيد) فجمد في مكانه.. العربيد الذي لطالما أكد له أصدقاؤه خلال أحاديثهم، انه يسكن هذه البساتين.. لم تكن الحيات غريبة عليه، فقد رأى الكثير منها خلال حياتـــه في بلدتـــه، ولكن متراً أخضرَ، أو بنياً، منهن، كان كافيا لجعله يتسمر في مكانه عندما يراه.. فما بالك بوحش أسود طوله خمسة أمتـــار أو أكثـــر، وبسمك جذع شجرة، والأنكى من ذلك أن لـــه قـــرون.. هـــو لم يستطع أبدا أن يتصور يوما تلك القرون، ولا عرف إن كانت تشـــبه قرون الثيران، أم هي لقرون الماعز أقرب، ولكنها كانـــت ترعبـــه.. ولكن ماذا عن شكرية، هي تتصرف مثل الكلبـــة عنـــدما تتملـــق الكلب، وتتقافز بخفة حوله، لكي.. أيضيع هذه الفرصـــة.. وتلـــك القطعتان المتراقصتان منها.. هما تعدان بالكثير.. ولكنه العربيد، فمـــا العمل.. وهو يعاني من الحرب الدائرة ما بين رغبته الناريه وخوفـــه المحبط، تذكر أهل شكرية، فلطالما سمع من أصدقائه أيضا، عن أخوة شكرية العديدين، وأخوالها الكثيرين الذين إختفوا جميعا.. بعـــد أن ثأروا لوالدي شكرية اللذين قتلا في حادث غامض أيام كان طفـــلا صغيرا.. كان بعض من أصدقائه يؤكد.. بـــل يقســـم، أن أولئـــك الأخوة والأخوال، يختفون في هذا البستان الفسيح.. ترى، ماذا لـــو كشفه ذلك الجيش، وهو يعبث مع شكرية، وفي بستانهم.. ســـجلت حالات فرار جماعية لكريات حمر وبيض في مكان تحشد الـــدماء، في جسده.. سقطت رغبته، فإحتله الرعب.. إلتفتت شكرية التي كانت قد ابتعدت عنه أبان ذلك، فألفته واقفا في مكانه لا يتحرك، صاحت:

- هيّا يا يسوفي.

أجفل عندما رفعت صوتها هكذا.. قال:

- لقد تذكرت، يجب أن أذهب إلى البيت حالا.

صاحت مرة أخرى:

- ماذا، ولكني بحاجة إليك.

فقال بصوت متوسل وهو يجهد أن لا يرفعه:

- لا أستطيع.. يجب أن أذهب.

صمتت قليلا، ولكنها قالت بعد حين وقد رسمت ابتسامة ذات مغزى على شفتيها:

- ولكنك ستخسر.

كادت الدموع تطفر من عينيه حنقا، ولكنه لم يستطع غير أن يقول:

- أرجوك.

تمعنت في وجهه على البعد.. لم يبد عليها أنها فهمت شيئا.. رفعت كتفيها دلالة على الاستغراب، ثم تحركت راجعة إليه، ولكنه لم يصبر حتى تأتي، بل استدار ليركض باتجاه الباب الذي عالجه عشوائيا بمفتاحه الذي إلتقطه من الأرض، حتى فتح، تناول الدراجة، وما أن أصبح خارج الباب، حتى إمتطى دراجته، وانطلق بأقصى سرعته.

الليلة السادسة

كان لذلك اليوم أن يكون عاديا، لولا أن زها قررت فيه أن تفاجئني مرة أخرى، فقرعت علي زجاج النافذة في الصباح.. قفزت من فراشي لأهرع إلى الباب ملهوفا.. عندما فتحته، ألفيتها لابسة فستانا أبيضَ، موشحا بورود سوداء، لا الزي الموحد كما يفترض بها.. كانت تبدو كحسناء اسطورية فرّت من لوحة مذهلة لرسام مقتدر إذ أبرز الفستان بتماهيه مع وجهها وعينيها، كمال خلقتها.. وقفت مذهولا أمامها إذ لم أستطع استيعاب فكرة أن كل ذلك الجمال ملكي، بدت الفكرة في تلك اللحظات غير قابلة للتصديق.. انتزعت نفسي من ذهولي بصعوبة وقلت ممازحا:

- ورود سوداء.. من أين أتيت بها.. هي مستحيلة.

فابتسمت لي بطريقتها المحببة وقالت بهدوء:

- هي موجودة.

لم أناقشها بل عاجلتها بقبلة، وأسرعت بها إلى الفراش الممدود، أزحت الفستان.. و.

في ذلك اليوم، لم نخرج في نزهة كما توقعت.. بل لم نذهب للجامعة حتى، ومكثنا في البيت حسب طلبها، فقد كانت تريد البقاء معي فقط. وفيما أنا مضطجع على الأريكة وقد وضعت رأسي في حجرها، بدأت تداعب شعري برقة حتى إنصاع النوم لعيني المغمضة، او كادت، ولكني لم أرد أن أنام هذه المرة، وهي معي، ففتحت عيني

لأراها تحدق بــــي.. إبتسمت لها، بدا لي وكأنها تجبر نفسها لترد لي الابتسامة.. قلت لها:

- ما الذي يثقل عليك اليوم يا حبيبتي؟.

قالت لي بطريقتها المعهودة في تجنب الإجابة، بسؤال:

- حبيبتي!.. هل تحبني حقا؟!.

فاجأني قولها، ولكني لم أشأ أن أعطيها إنطباعا بأنها على حــــق، فقلت على الفور:

- وهل عندك شك بذلك؟.

فابتسمت لي بعفوية هذه المرة، ولكن ابتسامتها لم تمنع القلق من التسرب إلى نفسي.. رفعت رأسي من حجرها وجلست.. فقالــــت هي:

- أنا آسفة يا حبيبــــي إذا كنت أثقل عليك بمشاعري.

فقاطعتها قائلا وقد إختلط القلق بتأنيب الضمير عندي:

- لا تقولي هذا يا حبيبتي.

ولكني لم أستطع أن أكمل لأني لم أجد ما يمكن قوله.. مــــدت يدها البضة الرقيقة، داعبت وجنتي وقالت:

- أتعرف ما دليل الحب عند الإنسان العادي؟.

فتحت فمي لأقول شيئا، ولكنها لم تدعني أقول شــــيئا، بــــل أكملت هي:

- هو حرصه على أن يكون الحبيب له وحده.. فغاية الحب هو إمتلاك المحبوب، وإلا أيعقل أن نحب شخصا لنهديــــه للآخرين.

قلت بلا شعور:

- ولكن هذا كثير.

فابتسمت ابتسامة ذات مغزى، ولكن متفهمة، وقالت:

- أنا لم أدّع أنه شيء مثالي، ولذلك قلت الإنسان العادي، وهو مخلوق أناني كما تعرف، ولا يستطيع أن يتعامل مع الأشياء إلا إنطلاقا من نفسه وحبه المضمر لها.

لا أدري لِمَ شعرت أن في كلامها شيئاً كثيراً من الصحة، ومع ذلك قلت مراوغا لأكسب بعض الوقت لعلي أعرف ما ترمي إليه:

- ولكنك حيرتني.. أتتكلمين عن حب الإنسان لحبيبه أم عن حبه لنفسه.

فضحكت ضحكة خفيفة وقالت:

- أو ليس الأمر سيان؟

فقلت ممعنا في مراوغتي:

- مستحيل أن يكون الأمر كذلك.

ردت بهدوء:

- بل هو كذلك، ولكن يوجد من يرتضي بالحرمان من حبيبه لمجرد أن يشعر به أنه سيسعد في مكان آخر.

فصحت:

- أرأيتِ.

ولكنها أجهضت فرحتي الوليدة بأن قالت:

- لا تفرح يا يسار فأمثال هؤلاء قليلون جدا، وهم واحد من اثنين.. إما نبـي أو متنبيء.. أو.. مجنون.

قلت ممازحا لعلي أستطيع أن أكسب المزيد من الوقت لعلي أفهم:

- ولكن هؤلاء ثلاثة.

فقالت بهدوء:

- لا يهم.. المهم هو أني أحببتك، ولربما أثقلت عليك، ولكن هذا هو مذهبي في الحب.. وإن لم أسمح لك أن تعبث مع غيري، فلأني لا أريد أن.. أن.

لم تكمل قولها.. بدا وكأن الحياء منعها عن ذلك، ولكني فهمت.. فهمت بكل وضوح.. أدركت لحظتها كم كانت على حق، ولكني لم أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، فلم أجد ما أعلق به.

لم تدعني نهبا لحيرتي، بل إقتربت مني.. أمسكت بوجهي بيديها ثم قبلتني.. تعلقت برقبتي.. ثم قبلتني.. احتضنتني وقبلتني بعد وبعد.. كنت أشعر بحرارة جسدها، فعرفت أنها تريد أن نكرر الأمر للمرة الثالثة في ذلك اليوم.. إستجبت لندائها بالطبع.. إحتضنتها فأغمضت عينيها واستسلمت لي.

في البدء، كانت الذبذبة، فتنبهت حواسي.. تتك..صوت القطار من بعيد.. تتك.. أغمضت عيني وركزت.. لأول مرة كنت أعرف ما أفعل.. اشعر بكل شيء.. وأحس.. تتك.. تتك.. إنه يقترب.. تتك، تتك.. صار أقرب.. أنا في القطار ومعي شكرية، يا إلهي ما الذي أتى بشكرية.. فتحت عيني مذعورا، فرأيت زها تتململ، شعرت بفرح وحشي.. أغمضت عيني.. تتك، تتك.. أنا في الأجمة، أعانق شجرتي.. أغوص فيها.. تتك، تتك.. إنه قريب، ففتحت عيني.. تتك تتك.. صار أقرب وأقرب.. سيطلق صافرته عما قليل.. يجب ان أكون حذرا، فهي في قمة فترة إخصابها.. تتك تتك تتك، حان الوقت، ولكني ما أن تحركت حتى فتحت هي عينيها، كان وجهها الأحمر، متغير الملامح، وقد بانت في عينيها لأول مرة نظرة أخرى، غير نظرة الإستسلام المعهودة.. حاولت الإنسحاب، منعتني.. همست في أذني (خلّيك).. أردت أن ازجرها،

ولكن الصافرة إنطلقت.. كانت حركاتنـــا متوافقـــة.. متناغمـــة.. تحررت من القطار وإرتفعت معها في الجو، مـــنطلقين كعصـــفورين بريين طال أمد إحتجازهما.. حلقنا وحلقنا وحلقنا.. ولكن الخيـــوط التي تربطنا بالأرض سرعان ما أعاقتنا، فسقطنا مرة أخرى.

استلقينا ذاهلين.. صامتين، ولكني سرعان ما قلت معاتبا:

- هل جننت.. ما هذا الذي فعلت؟!

لم تلتفت إلي، بل قالت وهي مغمضة:

- لم يعد الأمر يهم.

هالني ما قالت فغارت بقايا النشوة فيّ.. قلت مضطربا:

- ما الذي تعنينه؟.

مرة أخرى أجابتني بهدوء وهي لم تزل مغمضة:

- لا تشغل بالك يا حبيبـــي.. لا شيء مهم.

قلت:

- ولكن.

ولكنها قالت مقاطعة إياي:

- فقط ثق بـــي.

لم يزايلني الإضطراب، ولكني لم ألح بالسؤال لمعرفتي أنهـــا لـــن تجيبني مهما حاولت، ولأني كنت متعبا، كما أني لم أشأ أن أفقد تلك اللحظات الهائلة التي عشتها قبل لحظات، روعتها.. بقيت مســـتلقيا إلى جانبها، واغمضت عيني، وفيما أنا أغوص في لجة النوم القـــادم، تحركت هي، فانتبهت.. سألتها:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

أجابت:

- يجب أن أعود إلى البيت.

فقلت:

- ولكن لم لا تبقين معي.

لم ترد، فاضفت قائلا:

- لم لا نتغدى معاً؟

قالت وقد بان الحزن في نبرات صوتها:

- ومن الذي سيستطيع أن يأكل؟

عندها، عاودتني خشيتي، فقلت:

- ما الذي يحدث لك.. لم لا تخبريني؟.

قالت بهدوء:

- لا شيء.

فقلت:

- وما لك مستعجلة بالعودة إلى البيت، فالدوام لم ينته بعد.. أليس من المفترض أنك في الجامعة الآن؟

إلتفتت إلي.. تمعنت في وجهي قليلا، ثم قالت:

- لن يغير التأخير شيئا.

"لن يغير التأخير شيئا" تصور يا أستاذ، وهل هناك أوضح من هذه الكلمات للتعبير عن سوء الحالة التي كانت تعاني منها، ولكني لم أفهم.. لم أع.. بل، لم أهتم.. وبقيت أدعوها للبقاء مرددا كلماتي كالببغاء، ولكنها لم تستجب لدعواتي، بل أكملَتْ إرتداء ملابسها وتهيأتْ للخروج.. نهضتُ وفتحتُ لها الباب الداخلي، ودعتها بقبلة ووقفت أراقبها وهي تحاول أن تفتح الباب الخارجي.. فجأة، تجمدت حركاتها.. إلتفتتْ، فلمحتُ الدموع في عينيها.. ركضت بإتجاهي، وعانقتني.. قبلتني بطريقة محمومة ودموعها تسيل مدرارا.. شعرت بخوف شديد.. توسلت متسائلا:

- رحماك زها، أخبريني.. ما الذي يحدث؟

بدا عليها وكأنها لم تسمعني، بل همست في إذني بعد أن تعلقت برقبتي:

- أحبك.

ثم تركتني، لتلتفت وتبتعد مسرعة كما جاءت.. فتحت الباب.. خرجت وأغلقت الباب وراءها فغابت عن ناظري وأنا واقف كالتمثال أراقبها.. آه يا أستاذ.. لقد قبلتني يومها ونحن في الحديقة وكان من الممكن أن يرانا من في الشارع لأننا لم نأخذ حذرنا كما كنا نفعل عندما كنا نسترق القبلات به.. كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمح فيها بمثل هذا.. والأخيرة.. ولكني لم أعرف بذلك في حينه.

بعد أن غادرتني، بقيتُ مشغول البال بأمرها لعشر دقائق.. أو ربع ساعة، بأكملها! ثم اقنعت نفسي بأنها تعاني من مشكلة ما في بيتهم ولذلك فهي ستكون بخير في الغد.. أو بعد غد على أبعد تقدير.. ثم عدت لهمّ نفسي فأحترت في كيفية قضاء المتبقي من ذلك اليوم.. أأبقى في البيت لأنام معظم الوقت، أم أخرج.. أأذهب لزيارة أصدقائي بعد الدوام، أم أذهب لشرب زجاجتي (بيرة) أو ثلاث.. وأنا في حيرة محاولة الرسو على خيار لأنفذه، تذكرت (نرجس) الجميلة التي بعثت لي بطاقة دعوى بابتسامة رائعة أهدتني إياها قبل يومين.. لم أتردد كثيرا هذه المرة، بل بدلت ملابسي فورا وخرجت أسعى بإتجاه الجامعة.

وأنا أغذّ في سيري، رأيت (محمود) مقبلا عليَّ، فلم أرتح لرؤيته وهو على حالته المضطربة.. محمود هذا يا أستاذ كان هو الرفيق الذي حلّ بديلا لصالح، مسؤولي الحزبي المباشر، عندما منعته الظروف

من اللقاء بـــي لمدة قصيرة.. ولكني كنت قد اجتمعت بصالح قبـــل يومين، فما الذي أتى بمحمود من كلية القانون والسياسة إلى هنا.. لا بد أن يكون الأمر جللا.. بادرني بالقول حال إقترابه:

- أين كنت؟.. لقد قلبت الدنيا بحثا عنك.

غادر قلبـــي تجويفي الصدري، وأمعن في الغوص، حتى شعرت به قد تجاوز بطني نـــزولا، عندما سمعت ما قاله.. قلت متلعثما:

- كنت في البيت.. ولكن، ماذا حدث؟!.

قال وهو يتلفت من حوله:

- ماذا حدث.. حدثت كارثة.. هيّا لا وقت لدينا، يجب أن نختفي عن الأنظار فورا.. لقد أتيت لأحـــذرك فقـــط ثم أذهب بعيدا.

قال هذا، ثم تحرك مبتعدا، فصرخت ملتاعا:

- إلى أين أنت ذاهب، فأنت لم تخبرني بعد بما حدث.

توقف.. إلتفت.. نظر يمنة ويسرة، ثم قال:

- لقد قبضوا على صالح.

كتمت صرخة إرتياع بصعوبة، فقد أدركت حجـــم الكارثـــة فورا، ولكن ذلك لم يمنعني من أن أستفهم ببله واضح:

- ماذاّ؟

فقال وهو يبتعد بسرعة:

- لقد أتوا إلى الكلية اليوم، وألقوا القبض عليه.. هيّا تحرك.. إذهب، فهم يمكن أن يأتوا إليك في أية لحظة الآن.

ثم بدأ يركض وأنا واقف في مكاني، محتارا.. لم يكن لعقلي أن يسعفني في تلك اللحظات الرهيبة.. ها قد حدث ما كنت أخشـــى منه.. وهل هناك أرهب من إحتمال أن تقـــع في أيـــدي هـــؤلاء

المجرمين.. يجب أن أتصرف.. ولكن، ماذا أفعل.. إلى أين ألجأ.. فجأة أصبحت الدنيا من حولي، أصغر من أن أجد فيها ملجأ لنفسي، ضاقت بي على وسعها.. مرت بي مجموعة من الطلاب، حانت من أحدهم التفاتة إلي.. التفاتة سريعة فقط، ولكن رعدة خوف سرت في جسدي بسببها.. حاولت أن أتماسك.. ولكن كيف؟.. يجب أن أتصرف.. ولكن كيف؟.. وأنا أتخبط في دياجير رعبي، تذكرت.. ألا يمكن أن ألجأ إلى بيت أهلي؟.. بالطبع يمكن، فمن يعرف عنوانهم.. هكذا تصورت وأنا مكبل بشلل الخوف في تلك الشوارع غير الآمنة، فتحركت فورا لأنفذ قراري.. ولكن.. ماذا لو كانوا قد عمموا اسمي.. كيف سأتجاوز نقاط التفتيش التي تفصلني عن بلدتي.. توقفت مرة أخرى.. والآن ماذا أفعل، ولكني سرعان ما تذكرت الهويات المزورة التي نصحنا الحزب بأن نستعملها في حالات الطواريء.. وهل من طاريء أخطر من الوضع الذي أنا فيه.. ولكن الهويات في البيت، فهل من المأمون أن أذهب إليه.. أدركت عندها أنها مخاطرة لا بد من القيام بها، فرحت أركض كالمجنون باتجاه البيت وأنا أردد كل ما يخطر ببالي من أدعية وآيات.. تصور.. أدعية وآيات.. المهم، وصلت فلبثت لدقيقة أو إثنتين أراقب البيت من بعد لأرى إن كان مُراقَباً.. لم أجد أحدا في الزقاق في ذلك الوقت من الظهيرة فأسرعت لأقتحم الباب بعد فتحها، اقتحاما.. وجدت الهويات حيث خبأتها تماما فطابت نفسي قليلا ولكني سارعت بمغادرة ذلك العش الجميل.. لم أفكر بأخذ ملابس أو أية أغراض أخرى، بل نفذت بجلدي واقفلت الباب وابتعدت.. وكان ذلك آخر عهدي به، إذ لم أره مرة ثانية، ابدا.

وصلت إلى بيتنا أخيرا.. ولكن، بعد رحلة رعب أليمة، شعرت بساعاتها وكأنها قرون من عذاب.. كانت أنفاسي تكاد تتوقف مع توقف السيارة التي تقلني في كل سيطرة تفتيش.. لم يسألني أحد عن هويتي، ولكن كيف كان لي أن أطمئن.. لكن، دعنا من ذلك، فالمهم هو أني قد وصلت، وعندما رأيت وجه أمي، شعرت بالراحة، والإطمئنان، وفارقني شعور الخوف المقيم ولو لبعض الوقت.. إنتفض جميع من في البيت لخدمتي، وبدأت أمي طقوسها المفضلة في المطبخ، وحرصها على إشعاري وكأني أمير قصرها المفضل.. لم أخبرهم بشيء إذ لم أر فائدة في أن أجعلهم يقلقون.. قصدي يخافون، بل بقيت أعاني من خوفي، لوحدي.. كنت أعرف أن البيت يمكن أن يصبح غير آمن فجأة، لأني سرعان ما اكتشفت أني يمكن أن أكون على خطأ في أمر العنوان الذي أوهمت نفسي به، فهؤلاء الشياطين يمكن أن يصلوا إلي حيثما كنت.. إذا ما حدث شيء، فإلى أين سأذهب، هذا إذا لم يلقوا القبض عليَّ.. لم أستطع أن أجيب على هذا السؤال، فبقيت تلك الصخرة تثقل على معدتي وتجعلني لا أهنأ بطعام أمي.. وبقيت لياليّ، معاناة مستمرة وأنا أغازل النوم الذي أبى إلا أن يجافيني، ليوم.. وآخر.. وفي اليوم الثالث، وفيما أنا أسير مع صديق لي أردت أن أراه لكي أشغل نفسي بشيء مخافة أن أجن، لمحت ابن خالتي مقبلا علينا وهو يركض، تشاءمت، صاح عندما اقترب:

- إنهم يفتشون بيتكم.

توقف وهو يلهث.. بدا عليه أنه ينتظر مني أن أهرع معه لكي نتلافى المصيبة.. ولكن.. كنت أنا أعرف عمّ يبحثون، فكيف أذهب.. مادت الدنيا تحت قدمي، فالتفتّ إلى صديقي.. قلت مستنجدا به:

- إنهم يبحثون عني.. ما العمل؟.

صعق ابن خالتي عندما سمع ما قلته، ولكنه بقي صامتا.. فيما إسترد صديقي توازنه بعد أن بان عليه أنه تفاجأ أيضا.. قال:

- عليك بدار حسن العارف، فهناك ستكون بأمان.

فقلت بيأس:

- ومن الذي سيتورط بإيواء هارب من الحكومة.

فقال بثقة ظاهرة:

- حسن العارف.

بدأ الأمل يتسرب إلى نفسي.. تطلعت في وجه صديقي فبدا عليه أنه جاد فيما يقول.. كان الإحساس بالوقت الذي يمر يكاد يطحنني، ولكني تساءلت:

- وما أدراك بذلك؟

فقال وابتسامته تجتاح قلقي:

- يا أخي، مضيف حسن العارف لن يرفض ضيفا محتاجا.. كما أن للشيوعيين معاملة خاصة عنده.

هالني ما قاله للتو، فأنا لم أصرح له بشيء عن ارتباطي بالحزب.. قلت وقد بدأ الشك يتسرب إلى نفسي:

- وكيف عرفت أني شيوعي.

فضحك وقال همسا:

- وهل هناك من أمر يدخل الناس السجن، ويغيبهم، مثل الإنتماء إلى الحزب.. هيّا لا تخف يا يسار، فشيوعي أنا الآخر.. هيّا.

تسربت الطمأنينة إلى نفسي المضطربة، فهممت، ولكني سرعان ما تذكرت أن دار حسن العارف تقع بين البساتين في ضواحي

البلدة.. والشمس أوشكت على المغيب، فكيف أصـــل إلى هنـــاك لوحدي.. ولكني يجب أن أصل ولا وقت الآن للخوف غير المـــبرر.. بل أن وحوش الفلاة لأهون شرا من هؤلاء المجرمين.. ولكن.. أنقذني صديقي من حيرتي لأنه قال لي وهو يستعجلني:

– هيّا لنذهب فورا، سأوصلك لأطمئن عليك.

أوصيت ابن خالتي أن يراقب لي الوضع وأن يبلغني بما يحدث.. وطبعا أن لا يخبر أحدا أبدا عن مكاني، وأكد صديقي على ذلك، ثم هرعنا إلى بيت حسن.

إستقبلنا حسن خير استقبال، وفرش لي بعد أن غادرنا الصديق في مضيفه وقال:

– تبقى هنا ما تشاء من الوقت، ولا تخف، فلن يصـــلك إلى هنا أحدا.

ولكن، إلى متى كان لي أن ألجأ إلى بيت هذا الشخص الكريم.. وإذا غادرت.. فإلى أين أذهب.. ظلت هذه الأسئلة تقضّ مضـــجعي طوال اليومين اللذين قضيتهما عنده معززاً مكرماً.. ويبدو أنه لاحظ الوجوم الذي بدا واضحا عليَّ، سألني عمّا بـــي، فأخبرته بشجوني.. فكر قليلا ثم قال:

– لم يبق أمامك غير أن تلجأ إلى الشمال.

فاجأني قوله، فتساءلت ببلاهة:

– الشمال؟

فقال ضاحكا وهو يحاول التخفيف عني:

– شمال العراق يا ولدي.. أتتصور أني أشرت لك إلى شمـــال أرتيريا.

قلت وأنا أحاول أن استجمع تركيزي:

- ولكن.

فقال بلا تردد:

- بلا ولكن.. فالحزب بخير هناك ولن تجد ملجأ خير منه في والوقت الحاضر.

قلت:

- ولكن، كيف الوصول إلى هناك.

فقال لي مطمئنا:

- لا تبتئس، فكل ما عليك هو الوصول إلى أبـــي هلال في كركوك، وهو الذي سيتكفل بإيصالك إلى بر الأمان.

تغير مزاجي على الفور، وشعرت أن الأبواب بـــدأت تتفـــتح بوجهي بعد طول ايصاد.. ناقشت الأمر معه وأشـــبعناه تفصـــيلا.. وعندما أتى ابن خالتي ليطمئنني على حال أهلي ويخبرني أن كل مـــا أرادوه هو أنا.. وعندما أخبرني أن أمي تريد أن تأتي لتراني، صـــاح حسن العارف الذي كان حاضرا:

- إياك أن تدعها تفعل ذلك، فهؤلاء الخبثاء لن يتركوا بيتكم من دون مراقبة أو كمائن تسعى إلى الإيقاع بك عنـــدما تفكر بزيارة أهلك.

إتفقت معه في الرأي، ثم طلبت من إبن خالتي أن يأتيني مـــن أمي بأي مبلغ من المال يمكنها تأمينه وبأسرع وقت، وأكد عليـــه حسن أن لا يجلب غير النقود بعد أن يخفيها جيدا لأنه عـــرف أن أمي سوف تحاول أن ترسل إلي كل البيت لكي تطمئن علـــيَّ.. في تلك الليلة، أتاني بالمبلغ، وكان كبيرا بالطبع كما هو متوقـــع مـــن أمي.. في الصباح الباكر من اليوم التالي، بدأت رحلتي إلى كركوك على أساس أني طالب في جامعة الموصل، كنت في بغداد وأنـــا في

طريقي إلى كركوك لزيارة بيت أختي.. أم هلال.. ولكن هذه الإحتياطات لم تكن لتقيني من الرعب الذي كان ينتابني كلما اقتربنا من سيطرة تفتيش في الطرق الخارجية.. المهم هو أني وصلت أخيرا إلى بيت أبي هلال الذي إستقبلني خير استقبال هو الآخر، وقضيت أياما في بيته بدت فيها عائلته وكأها مشاركة في مسابقة لإظهار الكرم وطيب الأخلاق.. وعندما حانت ساعة الصفر وقرر (أبو هلال) أن يصطحبني إلى غايتي، إنتابني قلق شديد لأني حدست أن الأمر سيزداد صعوبة مع السيطرات كلما أزددنا قربا من هدفنا.. ولكن الرجل الطيب أبا هلال جعل رحلتنا تلك بسيارته، سياحية بامتياز، وهو يجتاز بي السيطرات الحكومية، الواحدة تلو الأخرى وهو يوزع ابتساماته على أفرادها.. ونقوده طبعا، وقد لاحظت أهم كانوا يعرفونه جيدا.. ولاحظت ايضا، عندما غادرنا كركوك، ومن خلال اللافتات الموجودة على جانبي الطريق، أننا متجهون نحو مدينة (السليمانية).. التي وصلناها بعد وقت أظنه لم يكن طويلا، ولكنه كان كذلك بالنسبة لي.. لم نتوقف فيها، بل اخترقناها فقط.. عندما خرجنا منها، سألت أبا هلال لأول مرة عن المكان الذي نقصده، فقال (عربد) فتصورت أني سأكون هناك في أمان.. ولكننا عندما وصلنا، لم نتوقف فيها، بل غادرناها فورا، فبدأت السيطرات تكاد تكتم على أنفاسي، فقد تبدلت السحن كثيرا وبدت نظرات أفرادها ثقيلة الوطء.. كان أبو هلال قد أوصاني بأن أدّعي بأننا قد أتينا بحثا عن قريب لنا وهو جندي في وحدة تقاتل في هذا القاطع، ولكنة كفاني شرورهم لأنه تكفل بكل الحديث معهم، حتى أني لم أنبس ببنت شفة مع أحد.. أذكر أننا كنا حينذاك نتبع طريقا مبلطا، ولكني لا أذكر متى غادرناه،

وكيف.. فقط شعرت أن المناظر من حولي قد تغيرت فجأة وحلت الخضرة والألوان محل لون الجدب الأغبر.. كان سهلا كبيرا، أذكر أشجار التوت التي عجبت لمرآها هناك.. وأثارني منظر مزارع الكروم.. مررنا بأكثر من قرية، كان أبو هلال في كل منها يتركني لدقائق ويهرع لتبادل أحاديث مع أناس بدا أنه يعرفهم جيدا، ليعود إلي ويطمئنني بابتساماته التي أبت أن تفارق شفتيه طوال الرحلة.. بدت الجبال البعيدة وكأنها تقترب.. وأخيرا، طلب مني النزول عندما وصلنا إلى قرية تنام تحت أنظار جبل عملاق جعلتني قمته السامقة، أشعر برهبة.. أتانا شخص ما راكضا.. تعانق مع أبي هلال وراحا يتبادلان الكلام بالكردية التي لم أكن أتقنها، ولكن الرجل كان بين الحين والآخر يلتفت لي ويبتسم بمودة.. في النهاية إلتفت إلي أبو هلال وقال:

- الآن، سأتركك برعاية (كاك حمة) وهو الذي سيوصلك إلى حيث تبغي.. هو يقول أن القمر سيغيب اليوم بعد الواحدة، وعندها سيكون الدرب سالكا إلى قمة الجبل.. يريدك أن تذهب معه إلى بيته لتصيب بعض الطعام، وترتاح قبل أن تبدآ رحلة الصعود الصعبة.

شعرت وكأن يدا أمسكت بقلبي وراحت تضغط عليه.. كدت أبكي لولا أني تماسكت، لم أتوقع أن يتركني قبل أن أصل هدفي، ولكن ما الذي يمكن أن أطلبه أكثر مما فعل لي حتى تلك اللحظة.. حانت مني نظرة إلى الرجل الثاني، فلمحت معالم الطيبة في وجهه وهو يتطلع إلي، ساعدني ذلك، عانقت أبا هلال وأنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى شكري وامتناني له.. بدا عليه وكأنه تذكر شيئا، فقال:

- أوصاني أن أخبرك بأن لا تنبس ببنت شفة عندما تسرون في الليل، لأنكم ستكونون عندها بين ربايا الجيش، وإذا ما شعروا بكم، فستكونون في عداد الميتين حتما.. أواضح كلامي.

إزدردت ريقي بصعوبة بعدما سمعت ما قال، أردت قول شيء، ولكنه تركني وذهب.

طلب مني (كاك حمة) بالإشارات أن أدخل معه إلى بيته.. هناك رأيت زوجته الجميلة التي حيتني بسلسلة من الكلمات التي لم أفهم منها شيئا، ولكنها بدت كلمات ترحيب دافئة.. كان الفقر المدقع واضحا في ذلك البيت البسيط، ولكنهم حرصوا على أن يعرفوني على الكرم الكردي جيدا بإحضارهم أنواعا متعددة من الأشياء الصالحة للأكل.. تباعا.. ثم مدّ (حمة) الطيب فراشا لي وطلب مني بالإشارة أن أتمدد عليه.. لم أتصور أني سأستطيع النوم، بل أردت أن أقضي المزيد من الوقت مع الأطفال الحلوين الذين كانوا يمدون رؤوسهم ليتفحصوني بنظراتهم الفضولية.. حاولت أن استدرجهم ليأتوني، ولكني لم أستطع أن أجد في بالي كلمة واحدة يمكن أن يفهموها.. طردهم أبوهم بعيدا، وما أن تمددت، حتى غبت في لجة النوم من شدة تعبي.

شعرت بيد توقظني، ففتحت عيني.. على ضوء الشمعة الخافت، رأيت (كاك حمة) يبتسم لي وهو يؤشر إلى السماء.. عرفت أنه يعلمني أن القمر قد غاب وحان وقت الرحيل.. لم أستطع أن آكل الخبز أو أن أشرب (اللبن) الذي قدم لي، بل إكتفيت بشرب الشاي، وخرجنا.. كانت الظلمة حالكة في الخارج، ولكن الذي صدمني هو، البرد القارس.. كانت ملابسي خفيفة لأني عندما خرجت من البيت

قبل أيام لم يخطر ببالي أني سأصعد بها إلى جبل، في ليـــل الشـــمال البارد..قال لي (حمة) شيئا لم أفهمه بالطبع، ثم انطلق سائرا.. سرت وراءه لخطوات، ولكنه سرعان ما ابتعد، وقفت في مكاني وأنا أحدق في الأرض، فلا أتبينها.. افتح حدقات عيني على سعتهما، استجدي الرؤيا.. ولكنها إمتنعت.. كنا لم نـــزل في الأرض المنبسطة، فكدت أقنط عندما فكرت بالجبل الذي يجب أن اصعده.. بل اتسلقه كمـــا يبدو.. أصخت بسمعي، فلم أسمع خطوات صاحبـــــي، فشـــعرت بخوف عظيم.. ولكنه سرعان ما عاد إلي، أمسك بيـــدي وســـحبني برفق.. سرنا صامتين، حتما، لأننا شعرنا بأن لا فائدة من كلمـــات كان كل منا يعرف أن صاحبه لن يفهمها، ومع ذلك كان يمد يـــده ليضعها على فمي كلما توقف فجأة وأوقفني ليصيخ الســـمع كمـــا يبدو.. وكنت أعجب له، كيف يمكن أن يهتدي إلى فمي في ذلـــك الظلام.. أنا لا أريد أن أطيل عليك، ولكنها كانت ليلة من اصـــعب الليالي التي مرت عليَّ في حياتي وقد تجمعت عليَّ المنغصـــات مـــن خوف وحذر وقلق ويأس.. وأخيرا الألم، إذ كتمت صـــرخات الألم أكثر من مرة في تلك الليلة، لأني كنت أصطدم بأشياء كـــثيرة وأنـــا أتخبط في سيري، وخاصة تلك الضربة المؤلمة التي تلقيتها من صـــخرة أصابت عظم الساق مني.. نعم، تعودت بعد حين علـــى الظلمـــة، وبدأت أرى اشباحا، ولكنها لم تكن تكفي لتمييز الأشياء.. خـــلال صعودنا، أوقفني فجأة، فسمعت خرير مياه.. وضـــع فمـــه في إذني وهمس:

- (بخو).

لم افهم ما يريد بالطبع، ولكنه مد يده ودفع رأسي برفق نحـــو الأسفل.. ثم لامس يدي وسحبها باتجاه الماء الجاري، ففهمت.. إنـــه

يريد مني أن اشرب، وهو ما كنت بحاجة شديدة إليه في تلك اللحظة بعد أن كاد الجفاف في فمي، يبكيني.. حين وضعت يديّ في المـــاء، شعرت وكأن الدم قد تجمد فيها، فاغترفت من الماء بسرعة وشربت أكثر من جرعة قبل ان أجففهما بملابسي، وأخفيهما تحت أبطيّ.

مع بزوغ الفجر.. وبعد تلك الرحلة الصاعدة البطيئـــة الـــتي إستمرت ساعات طويلة، وصلنا إلى مخيم من نوع ما، في مكان مـــا من مجاهل الجبل الكبير شعرت بأنه لا يمت للمدنية بصـــلة.. تلقتنـــا الأعين المستفهمة المزروعة في الوجوه الباسمة رغم التعب الذي بـــدا عليها.. أدركت عندها أن حربـــي الخاصة ضد النظام، نصـــيرا في الحزب المقاتل، قد بدأت.

في ذلك اليوم الخريفي البعيد، شعر بفرح طاغ منــذ اللحظــة الأولى التي لامست فيها عجلات السيارة التي كان يستقلها ووالده، شوارع بغداد.. بدت له مكانا سحريا بطاقات مذهلة، فشــوارعها تختلف عن شوارع البلدات الأخــرى، وكــذلك بيوتهــا.. زحمــة السيارات فيها، وتنوعها، جعلته لا يكف عن إدارة عينيه في جميــع الاتجاهات، وهي تتابع في كل مرة، إكتشافاً جديداً.. وزحمة ناس، لا يعرف من أين يظهرون، ولكنه شعر أنه يحبهم كلهم.. كان الفــرح يزداد طغيانا، في نفسه الصغيرة كلما إنتقلت به السيارة، إلى منطقــة جديدة.. وعندما ترجل أخيرا من السيارة، سارع لركــوب ســيارة أجرة بدت له جديدة، وجميلة جدا، مع والده الذي استأجرها، فتابع بذلك رحلته اللذيذة مع مناظر بغداد التي سلبته لبه حتى انتهت أمــام بيت.. عندما دخل مع أبيه، لم يعرف أهله الذين تلقوهمــا بالعنــاق والقبلات، حتى طلب منه والده أن يقبل عمتــه.. إذاً هــذه هــي (السعلوة) كما تســميها والدتــه.. ولكنــه لم يجــد بهــا شــبها بــ (السعلوات) البشعة، كما كان يتصورها، ومع ذلك شعر بغصة لأنه لم يتصور أن والده سيغتال فرحته بجلبه إلى بيتها في أول زيارة له لبغداد.

في تلك الليلة، أخذه ابن عمته الشاب، في جولة بعــالم بغــداد الليلي، العجيب.. فقد سحرته الأنوار المتلألئة والمتحركة فلم يستطع أن يبعد عنها عينيه حتى اختفت بعيدا عن نظره.. تمشيا طويلا علــى أرصفة نظيفة، تبتسم واجهات المحلات التي تطــل عليهــا، لــه.. اصطحبه إلى (أكسبريس فلسطين) حيث عرفه على (الآيس كــريم) الذي جعل مذاق (الدوندرمة) يتوارى خجــلا في أعمــاق ذاكــرة لسانه!.. إنتبه للافتات (السينمات) الألف! التي اعترضت طريقهما،

فأخذه ابن عمته ليتفرج على صور لقطات الأفلام المعروضة.. تمنى لو كان بإمكانه أن يدخل، ولكن ابن عمته وعده أن يصطحبه إليها في يوم آخر.. مرّا بذلك المثلث العظيم الذي قال له ابن عمته أنه نصب (الجندي المجهول).. وقف خاشعا يتطلع إلى ذلك البناء المهيب الذي يحنو على الشعلة المتوهجة في قلبه.. واصلا بعدها مسيرتهما العجائبية التي قادتهما أخيرا إلى (بارك السعدون) تلك الحديقة الفردوسية التي بدت له كبوابة لعالم حلمي جميل.. هناك رأى الأنوار المتلألئة، والعوائل المفعمة بالصحة، والفرح، فانطلق يلعب بأقصى طاقته، يعينه على الفرح، الشاب الذي عاد إلى طفولته، فظل يعاني من حالة رفض لتصديق أنه يعيش حالة صحو، لا مجرد حلم جميل.

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، طبعت عمته قبلتين على خده، فاستغرب، لأنه لم يكن يعرف أن (السعالي) يمكن أن تقبل أيضا.. بعد تناول طعام الافطار، بحث عن والده، ولكنه لم يكن موجودا، فقد كان قد غادر لينهي المهمة الرسمية التي جاء من أجلها إلى بغداد، فانزوى في مكان قصي، وقد ملكت الكآبة، نفسه، ولكن إبن عمته الذي عاد من الخارج لم يتركه وشأنه إلا بعد أن ملأت كركراته، أرجاء البيت الفسيح.

بعد الغداء، شعر بضجر لأن أهل البيت، ووالده الذي عاد، لجؤوا جميعا إلى قيلولة، فاستعاد بذهنه كل ما مر به منذ الأمس.. حاول أن يعدد الأشياء الرائعة التي حدثت له، ولكنه لم يستطع لأنه في كل مرة، يكتشف أنه نسي شيئا.. ولكن، كل تلك الروعات كانت لتغور أمام ما حدث له مساء اليوم التالي، عندما وقف مع والده فجأة، أمام مدينة الألعاب.. مرة أخرى ينتابه شعور الداخل إلى عالم مسحور لا يمكن أن يتصور له وجود.. زاد من فرحه

الطاغي، أنه لم يشعر بإختلاف عن الأطفال الآخرين، فقد كان مرتديا (الطقم) الذي كان قد اشتراه له والده صباحا.. (سترة خضراء وبنطال بني من قماش (السرج) الانجليزي، عندما ارتداهما ونظر إلى نفسه في مرآة المحل، شعر أنه أصبح من أهل بغداد، ولذلك كان أكثر ثقة بنفسه في المساء وهو يقف في الدور ليجرب اللعبة تلو الأخرى من ألعاب المدينة التي بدت له وكأنها لا تنتهي، بل أنه تبادل الحديث مع غيره وكأنه واحد منهم، فشعر بزهو لذيذ.. لم ينتبه وهو في غمرة اللعب إلى إنسدال ستارة الظلام على السماء، فقد كان ينعم في عالم اللاليل المزدان بالأضواء البراقة والألوان الزاهية المتراقصة على أنغام الموسيقى حيث أدار ناظريه.. في تلك الليلة المنيرة، إكتشف أن والده يمكن أن يبتسم.. وأن يفرح أيضا، فقد رأى الجذل يتألق في عيني ذلك المخلوق الحزين، وهما تتابعانه وهو يغرق في خضم أمواج الفرح الغامر.. وفي تلك الليلة أيضا، تعرّف على (اختراع) لم يكن له وجود في بلدته المنسية.. (الشامية) التي لم يستسغ طعمها، ولكنه أجهز على الكيس الذي اشتراه له والده لمجرد تفكيره بأنه سيخبر أصدقاءه عنها، وكيف التهمها التهاما.. لكن خيبته بطعم (الشامية) عوضها مذاق (لفة الفلافل) التي سرعان ما أضيفت إلى قائمة مكتشفاته البغدادية.. هو لم يكن ليشعر بجوع، ولا فكر بأكل، ولكن والده كان قد إختار الوقت الذي يجب أن يتناولا فيه عشاءهما، وكانت (الفلافل) هي الخيار.. عندما رآها، تعجب كيف يمكن لطعام صنع من الفلفل الأخضر أن يبدو بهذا اللون المغاير.. ولكنه عندما قربها من أنفه قبل الأكل، بدت له رائحتها واعدة، ولم يندم قط لأنه قرر أن يأكلها على الفور.. كانت تلك، ألذ (فلافل) أكلها طوال حياته، ولطالما

حاول، حين عاد إلى بغداد شابا، أن يستعيد مذاقها، ولكن، هيهات.

عندما قرر والده أن ينهي تلك التجربة المذهلة، قبيل أن تغلق المدينة أبوابها، شعر بالحزن، ولكن تلك الليلة لم تكن قد قررت بعد أن تنهي سلسلة مفاجآتها له، فقد قرر والده أن تكون رحلة العودة إلى بيت عمته، عن طريق ذلك (الباص أبو الطابقين) الذي يبدو وكأنه كائن خرافي أحمر.. أسرع هو بالصعود إلى الطابق الثاني رغم توافر المقاعد في الأول، فتبعه والده.. هناك فاضت مشاعره أخيرا، ففعل ما لا يفعله كثيرا، طبع قبلة (فرح) على خد والده فجأة.. تسللت دمعة من عين الرجل، تأثرا، ولكن الطفل لم يرها، لأنه كان مشغولا بذلك العالم المضيء الذي يطل عليه من علو.. وكانت النسمات الخريفية المنعشة الهابة عليه من النوافذ المفتوحة، هي آخر ما يتذكره من تلك الليلة الأسطورية، فقد بلغ به التعب أقصى مداه، فنام.

الليلة السابعة

في البدء، تمتلكتني الحياة الجديدة بنحو شبه تام.. هي لم تكــن حياة سهلة بالمرة، كما قد تتوقع، ولكني أقبلت عليها بلهفة.. بدأت بالتدريب العسكري فأنا لم أكن أعرف شيئا عن السلاح رضــوخا لأوامر أمي التي كانت تخاف حتى من ذكر السلاح ففرضت الأمــر علينا.. المهم هو أني خضعت للتدريب مــدفوعا بحمــاس الشــباب واندفاع الإلتزام بالمبادئ التي فرضتها على نفسي.. ولكــن لقــول الحق، لم يكن ذلك هو السبب الوحيد، بل كان هناك السبب الذاتي، فأنا قد وصلت إلى هناك مذعوراً، ذليلاً ومهاناً بسبب مشاعر الخوف التي إنتابتني طوال الطريق الموصل إلى تلك القمم المتربعة في أحضــان الجبال الشاهقة.. نعم، كنت أشعر بالذل لأني شعرت بكــل ذلــك الخوف، وقد واتتني الفرصة لأن أقلب ذلك الخوف حماسة وانــدفاعا لأكرّ على مخاوفي الشخصية.. هناك شعرت أني يجب أن اتخلص مــن يسار القديم.. يسار المدلل، الخجول، المرتبك وغير الواثق من نفسه.. أن أتحول إلى يسار الثائر، يسار المتمرد على السلطة التي سببت لــه كل ذلك الخوف فأرتكبت بذلك، الخطأ المعتاد.. أن أوجه غضبــي بإتجاه النتائج من دون أن أعير الأسباب إهتماما.. ولكن لا بأس، فقد كنت شابا غير مجرب في حينها.

كانت حياتنا هناك غير سهلة.. من اشتباكات مع الجــيش، إلى الحراسات الدائمة، ليلا ونهارا.. فقد كنا في خوف دائم من قــوات

الجيش التي لا نعرف متى تداهمنا.. كما كان علينا تجشم العناء طوال الوقت لتهيئة طعامنا وتوفير المياه الصالحة للشرب، وللإستعمالات الأخرى.. والأهم من هذا وذاك.. الجحيم الأبيض.. نعم يا سيدي، فقد كانت تلك القمم تلبس ثوباً ثلجياً أبيض في الشتاء وعندها تبدأ معاناة من نوع آخر.. معاناة البرد وهي واحدة من أقسى أنواع المعاناة.. عواصف ثلجية وانقطاع كامل عن العالم وبرد قارس لم أتخيل يوما وجود مثله حتى عانيت منه.. كانت حياة صعبة وشاقة يا أستاذ، ولكني سرعان ما تفاعلت معها لأني لم أكن بالشاب العليل الجسم.. بل يبدو أن دلال والدتي واعتناءها المستمر بي أثمر عن شاب قوي البنية، وكل ما كنت بحاجة إليه هو الفرصة للتعبير عن تلك القوة وهو ما حدث هناك.

كنت كلما أزداد حنكة، أزداد حماسة واندفاع، حتى استطعت بعد حين أن أتسلق المرتفعات مثل الماعز الجبلي.. وأحمل أثقالا كالبغال.. أثقال لم أتصور يوما أن بإمكاني أن أحمل مثلها.. والظلام.. كنت دوما يا سيدي أخاف من الظلام، ورغم أني كنت أشعر بالحرج من التصريح بذلك الخوف للآخرين، ولكن مواجهة الظلام لوحدي كانت تشلني وتسلب مني إرادتي دوما.. هناك، تعلمت كيف أواجه مخاوفي بهذا الشأن، وأن أتغلب عليها.. خلال أشهر، تغيرت نحو الأحسن، على جميع الصعد، وكنت أغذي معنوياتي حينذاك بنار حقدي على النظام الذي أذلّني وجعلني أفر كالجرذ بعيدا عن أحبتي.. هناك في تلك الجبال، كنت اشعر بأن الوقت قد حان لأجعله يدفع ثمن ما فعله بي.. نعم، كنت منذ أن وعيت، شيوعيا وكانت لي مبادئي التي تجعلني مستعدا من أجل البذل والتضحية لهذا الحزب، ولكن هذا لا يقلل أبدا من شأن الدوافع

الشخصية التي كانت تدفعني إلى العمل بكل جدية لكي أستحق لقب (نصير مقاتل) ضد كل الأشياء التي أكرهها والتي يمثلها النظام.. وأمر آخر، فقد كانت فكرة أني لجأت مضطرا إلى الجبال، لا مختارا، تضنيني.. ولكني أشهد الله أني قد بذلت اقصى جهدي من أجل أن أعوض ذلك بإخلاصي وتفانيّ بالقتال وتنفيذ الأوامر.

أتقنت إستعمال السلاح وسرعان ما بدأت ألفت أنظار الآخرين بنشاطي وإقبالي على تنفيذ ما يطلب مني.. لم أرفض أية مهمة قد توكل لي، ومهما بلغت درجة خطورتها.. لا أنا لا أقول أني لم أكن اشعر بخوف، بل كنت أشعر به دائما، ولكن إحساسي بقيمة ما أقدمه جعلني أقدم ولا أرفض.. شيئا فشيئا بدأت أفقه تصرفات الموت، ونزوات الحظ..بدأت أدرك قيمة القضاء والقدر في تقرير مصائرنا، فكان هذا الإدراك يجعلني بالتدريج مطمئنا بإضطراد إلى صحة قراراتي حتى إذا ما بدت خطيرة في حينها.

كان أجمل ما حدث لي في مقر قوات الأنصار، حيث قضيت الأشهر الأولى من حياتي هناك، هو تعرفي على النصير (أبو الأنصار) وزوجه.. كانا رفيقين جمعهما الحزب وقررا أن يشتركا معاً في حرب الأنصار، بدلا من الهروب إلى خارج العراق كما فعل الكثيرون غيرهما، رغم أن ذلك كان بإمكانهما، ولكنهما كانا أقرب إلى المثالية في إيمانهما، ويعتقدان أن مقارعة النظام في الداخل هو الطريق الذي يجب أن ينتهجه الحزب.. عندما إلتحقا، إرتأت قيادة الحزب أن يبقيا معاً في المقر لأنه كان يميل إلى تكليف النصيرات بالأعمال الإدارية ويترك القتال للرجال، فرفضت طلبات أبي الأنصار المتكررة للمشاركة في الأعمال القتالية تكريما لزوجته رغم أنها لم تكن لتعارض ذلك أبدا.. إنتبذا لهما كهفا قريبا، ورفضا أن تبنى لهم غرفة

كما هو الحال في ذلك المقر الذي تكاد أن تطبق عليه السماء في قمة ذلك الجبل الشامخ.

منذ أول لقاء لنا، أصرّت أم الأنصار على أن تعاملني كالولد الذي تمنّت إنجابه، رغم أنها لم تكن تكبرني بكثير، إذ يبدو أن عواطف الأم فيها جعلها تشعر بمدى إفتقادي لأمي في تلك الظروف العصيبة، فجعلها حنانها تبسط جناحها عليّ وتغمرني بعواطف صادقة سأبقى ممتنا لها ما حييت.. لم تكن لديهما أشياء كثيرة يقدمانها لي عندما أزورهم في كهفهم، ولكن العواطف التي غمراني بها، كانت تجعل تلك الزيارات أمرا مرغوبا إلى حد أني كنت وخلال تأديتي لواجباتي كمقاتل سواء أكان ذلك في الربايا أو أثناء تنقلي بين القواطع، كنت أحرص على أن يكون طريقي باتجاه الموقع، فقط لأراهما وأتمتع بصحبتهما قليلا.

أصبح اسم النصير يوسف، الذي هو اسمي الحركي، معروفا في جنبات تلك الجبال الصخرية التي صارت مسرحاً لنشاطاتنا المضادة للنظام، بعد أن جذبت الأنظار بنشاطي وحيويتي وإندفاعاتي التي لم يتوقعها أحد من الإبن المدلل الذي كنته عندما التحقت أول مرة.. كنت جذلا وفخورا بما حققته، ولم يخطر ببالي أن هذا هو نفسه الذي سيكون السبب في الكارثة التي حلّت بي.. لم أكن أعرف.. ولكن لم نستبق الأحداث، فأنا مخبرك بكل شيء ما دمنا جالسين معاً هنا.

قد تتساءل مع نفسك الآن "وماذا عن زها؟".. حسنا، أعترف لك بأني وفي ظل انشغالي بظروفي الجديدة، لم أكن أفكر بها كثيرا، بل لم تكن تخطر لي ببال إلا عندما.. أنت تعرف.. عندما، يهجوني النوم، بسبب الحاجة.. أقصد الرغبة.. عندها أتذكرها بكل حنين،

واستعيد كل التفاصيل التي حدثت بيننا، أو ما أستطيع أن أتـــذكره منها، فلا بد وأن تعرف أننا في المرات الأولى نكـــون مـــنفعلين إلى درجة تجعلنا لا نستطيع أن نتذكر التفاصيل بعـــد إنتـــهائنا منـــه.. أتذكرها وأنا أعاني من الحمّى التي تلتهم جسدي وتمزقـــه بســـياط الرغبة.. أما في بقية الأوقات، فإن واجباتنا الكثيرة تمنعنا من الـــتفكير بالكثير من الأمور التي قد تستغرقنا في الظروف الطبيعية، وأنا، وكما قلت لك استغرقت في تلك الحياة إلى درجة لم أعد فيها أرى ما يدور من حولي.. أنا كنت مأخوذا بروعة أحلامي التي كانت قد إنتقلـــت بوجودي هناك إلى مرحلة التجسد أكثر وأنا أتخيل كيف سنســـقط النظام بضرباتنا الصاعقة، وندخل بغداد الحبيبة مكللين بغار النصـــر ومزهوين بهتافات الشعب لنا، حيث نقيم العدل ونحل السلام أخـــيرا على هذه الأرض التي حرمت منه طويلا.. آه يـــا أســـتاذ، كنـــت مشغولا بروعة أحلامي وأنا أخوض حربـــي الخاصة ضد هذا النظام الذي أكرهه كره الموت لأنه حرمني من أمي، من أهلي.. قضى على مستقبلي.. و.. و.. قتل خالي.. كنت مشغولا بهذه الأحلام، فلم أر كل ما يمكن أن يكون واضحا لكل ذي عقل منذ أول لحظة.. ولكن لم يكن ذنبـــي أن الوضع كان معقدا جدا هناك.. على قمم الجبـــال التي كانت تشتعل نارا ونلوذ بها بعيدا عن قبضة الجيش الذي نجابهه.. لم يكن عندي شك في حينها بعدالة قضيتي، بل كنت أشعر أني على حق ولذلك سأقاتل.. ولكن.. من هم أعدائي؟! ذلك هو الســـؤال الذي خطر لي في لحظة ما فهزّ كياني وأفقدني يقيني.. أعـــدائي هـــم جنود عراقيون.. عجيب.. أقسم لك أني لم أنتبه للأمر في البدايـــة، فقد كان حقدي يحركني، ولكنه بدأ يفرض نفسه عليّ بعد انقضـــاء الأشهر الأولى.. كيف أقتل عراقيا لا أعرفه إذا ما تواجهنا؟ أنا أعرف

الآن أن السؤال كان يجب أن يكون، كيف أقتل إنسانا، ولكن في حينها كنت شابا يافعا وتكفيني حيرة السؤال الأول.. سألت نفسي كثيرا.. كيف أقتله.. ألا يمكن أن يكون أحد أقاربي.. أو حتى يكون أخي لو كان قد قدّر أن يكون لي أخ.. أو صديق.. ماذا لو كان مهدي.. أو ناظم.. أو عادل.. أو، أو، أو.. لا، لا.. ماذا لو اضطررت لقتل أخو زها.. آه ليتني فعلت.. المهم، أنا اعرف أننا كنا على حق، ولكن هذه الأسئلة أيضا كانت منطقية وشرعية.. لا تستغرب هكذا يا سيدي.. كل هذا مر بخاطري في تلك الأيام السحيقة.. أواه يا أستاذ ما الذي فعلته بنا السياسة.. و لم تزل تفعل.. أنا أعرف أن ذلك الجندي يمكن أن يقتلني إذا ما تمكن مني، فلذلك هو جاء وأنا لا أعرف ما الذي أخبروه عني، ولكني بدأت أعي أنه عراقي مثلي، فكيف أتناسى ذلك.. ثم كأن هذا لم يكن يكفي، لتضاف إليه محنة التعاون مع الإيرانين.. فلطالما كنا نلوذ بهم بعد أن يزداد ضغط الجيش العراقي علينا، فأنت تدري أن إمكاناته كانت تفوقنا بكثير.. نعم أنا أعرف أنه إزاء الخطر لم تكن أخلاق الفرسان لتفيدنا، لأن المباديء تريدنا أحياء أكثر مما تحتاجنا شهداء، كما أنهم كانوا يقنعوننا بأن النظام الذي نحاربه كان هو البادىء في الحرب، وأن الإيرانيين كانوا هم المظلومين، مثلنا، وهم يقاتلون دفاعا عن بلدهم.. لا أخفي عليك أن هذا كان يخفّف عليّ تمرّد ضميري المتنامي.. ولكن الوضع قد ساء كثيرا، أقصد وضعي النفسي، بعد أن إنسحب الجيش العراقي من الأراضي الإيرانية وبدأ الإيرانيون بطرق أبواب العراق بقوة وإصرار، و لم تعد حجة الحزب أنهم يساعدوننا فقط على إسقاط النظام تقنعني، أنا لم أتهم الحزب بالكذب، فمن المستحيل أن يكذب حزب ثوري كما كنت أؤمن في حينها، ولكني

بتّ أعرف حينها كيف تتصرف الدول، وكيف تدّعي الأمور وتفبركها.. المهم، عانيت من تناقضات شتّى في أفكاري طوال الوقت الذي قضيته في الجبال بعد ذلك.. أنا أعرف الآن أن النظام كان وحشيا.. قاسيا، ولكي نزيله، كان لا بدّ من مقاتلته.. ولكن أكنا أحسن منه بأساليبنا؟.. أكنا أبرأ منه؟.. لم أعد أعرف الآن.. بل الحقيقة هي أني اشك.. في السويد، حيث استقريت بعد سنوات، اجتررت كل تلك الأفكار وتذكرت كل ما مرّ بي هناك.. بل كل ما مرّ بحياتي، واشبعت كل ذلك تحليلا ونقدا.. أتعرف ما هي النتيجة التي توصلت إليها، قد تستغرب، ولكنها الحقيقة.. أو هي كذلك في نظري في الأقل.. لقد أيقنت أن العلّة لا تكمن في الحكومة أو الأحزاب أو الإتجاهات، او أي شيء آخر، بل العلة.. كل العلة، كانت وما تزال تكمن في شخصياتنا.. في حقيقتنا نحن.. ولكن، ما لنا وهذا الحديث، فجلّ ما أريد أن أحدثك عنه هو زها.. زها التي بدأت تسطع بالتدريج في ذاكرتي مع تزايد الأسئلة المحيرة في عقلي عن الذي يجري من حولي.. زها التي اختفت من حياتي.. أو بالأحرى أنا الذي إختفيت من حياتها فجأة كما تصورت حينها.. قلت لك أني كنت أتذكرها كلما تضنيني رغباتي المحمومة.. أتعرف؟.. مع مرور الوقت هناك، ومع غياب الفرص للتخفيف عن تلك الرغبات المحتدمة، كانت تزداد قسوة على الجسد وإيلاما للنفس، حتى أني بدأت أشعر بالغيرة من صديقي أبي الأنصار لأنه كان يمتلك الفرصة للتخلص من رغباته بوجود زوجته معه.. يمتلك المرأة التي كنت أشعر بأشد الحاجة إليها.. لا، لا، لم أقصد أن أمتلك أم الأنصار.. أقسم لك بأني لم أنظر إليها كامرأة صالحة للـ.. أنت تعرف ما أعني، لا أبدا، فقد كانت تعاملني كابنها ولم يكن ممكنا

بالنسبة لي أن اجعلها هدفا لأحلامي الجنسية.. ولكـــني أعتـــرف أن ذلك الكهف الذي كانا يشغلانه بدأ يشعرني بالإثارة لم أكن بحاجـــة إليها وأنا أعاني من الكبت هناك.. فقد كان الزواج في ذلك العمر لا يعني لنا غير الجنس، والجنس فقط.

ذات يوم، اضطر هذان الزوجان العزيزان أن يذهبا إلى قـــاطع آخر لأداء مهمات احزبية، وصادف أني كنت موجـــودا في المقـــر، ولذلك طلبا مني أن أقضي ليلتي في كهفهما.. ما أن اصبحت وحدي فيه حتى بدا لي كئيبا ومظلما.. كان مفتقـــدا لـــروح أم الأنصـــار وحيويتها.. وحضور أبـــي الأنصار الطـــاغي ونكاتـــه اللطيفـــة.. استغربت من عدم إرتياحي للبقاء وحيدا فيه، فأمضيت اليوم في زيارة معارفي في المقر حتى جنّ الليل.

في تلك الليلة زارتني زها.. زها معي في ذلك الكهف الذي فقد ويا للغرابة كل كآبته التي شعرت بها طـــوال النـــهار، وراح يتـــألق بهجة.. لم تكن زها مغمضة العينين هذه المرة، بل كانـــت الفرحـــة تنبلج من ليلهما المبتهج وهي تهمس في أذني بكلمات لم أعد أذكـــر منها الآن غير وقعها الهائل على نفسي في حينها وأنا أكاد أرقص مع نبضها المتسرب إلى أوردتي.. موسيقى راقصة تنتاب جسدي وتجعله يتحرك بإيقاع يزداد إنتظاما باضطراد.. أهيم مع الـــ "دو" وأتسامى مع الـــ "ري".. أتبعثر مع الـــ "مي" فيلمّني الـــ "فا".. يوســـوس لي الـــ "صو" أن أكون أكثر عنفا فيردعني شغف الـــ "لا".. ألتـــهب.. أشتعل.. أركز نظري على وجه زها المتألق نشوة.. أراقبـــها وهـــي تتأوه.. تتأوه!.. يتملكني الرعب فجأة، ويختفي الـــ "ســـي".. إنهـــا تتأوه مثل.. لا مستحيل.. ولكنها الطريقة نفسها، بل يكاد يكـــون الصوت الذي خلد في ذاكرتي هو نفسه.. ولكن مستحيل.. اين هي أمي الآن؟ فأراني أتحدث مع أبـــي.. أعاتبه.. لِمَ إرتضى بجر البساط من تحت قدميه.. لِمَ لَمْ يهتم بعلاقته بـــي أكثر.. لم تقبل مني العداء الكامن الذي لم أكن احرص كثيرا على إخفائه.. أنا أعرف يا أبـــي أنك تحبني.. تحبني كثيرا، ولكن لِمَ التهاون.. لم تركتها تسرقني منك..

لو أخذت دورك الطبيعي أما كان ذلك كفيلا بتغيير قدري.. ولكن لِمَ العتاب، فأنا أعرف أن أحداً لم يهتم بك لتدرك قيمة الاهتمـــام.. أدركت في تلك اللحظات، وبطريقة غامضة، أني أحلـــم، ولكـــني فشلت في الإستيقاظ حتى أيقنت أنه لـــيس كـــذلك.. إستســـلمت للإحباط والحيرة بعد أن إختفى أبـــي من أمامي وتلاحقت الصـــور حتى لم أعد افقه منها شيئا، وفجأة.. سمعت صوت قرعـــات علـــى زجاج النافذة.. زجاج النافذة!.. لقد أتت زها.. ولكن زها معـــي هنا.. أين زها؟.. لقد إختفت منذ أن بدأت أتحدث مع أبـــي.. مـــا هذا؟ زها تظهر وتختفي.. تأوهات أمي.. نظرات الحـــزن في عـــيني أبـــي.. القرع على الزجاج.. أيقنت أنه حلم فأجبرت نفسي علـــى الاستيقاظ لأفتح الباب.. هببت واقفا، فلم أر غير الظلام من حولي.. إحتجت لأجزاء من ثانية لأدرك أين أنا.. نعم أنا في الكهف ولكـــن لا باب لهذا الكهف ولا نوافذ.. فعلى أي زجاج قرع.. ومن الـــذي قرع؟!.. أقسم لك يا أستاذ أني سمعت القرعات.. أنا لا شك عندي بذلك، ولكن لم يكن ثمة زها.. صرخت "أين انت يا زها" ولكن لم يجبني أحد.

كان ذلك اليوم.. والذي تلاه، والحلم، والحديث الذي دار بيني وبين أم الأنصار في مساء اليوم التالي بداية نقطة فاصلة في حيـــاتي.. كان بداية التغيير البطيء والمؤلم الذي عشته لسنوات طوال.. آه يـــا استاذ لم لا ندرك الأشياء إلا متأخرين.. ما كان ضرّنا لو استفدنا من الآخرين، واستمعنا إليهم.. لم لا نعرف أن الإدراك لا يأتي إلا مـــن خلال الإهتمام.. الإهتمام الحقيقي بالأشياء من حولنا، والحـــب يـــا صديقي هو الذي يجعلنا نهتم بشكل حقيقي.. في ذلك الحلم شعرت بحب لأبـــي فانـــزاحت عن عقلي الغشاوات.. عثرت على ما تـــاه

عني العمر كله.. أقصد عمري حتى تلك اللحظة.. تذكرت أبـــي الذي تركته في آخر مرة غادرت بها البيت جالسا علـى الأريكـة، وكأنه جزء منها.. نعم، كان في حينها مجرد جزء من أثاث البيـت.. كأية منضدة، أو كرسي.. أو.. أو.. هكذا، مجرد شيء، لا أكثـر.. ترى، ماذا لو كانت علاقتي به أوثق، ألم يكن ذلك ليغير شيئا؟! أنـا أتصور نعم.. بكل تأكيد كان ليغير.. ولكن ما فائدة ذلك الآن، فقد رحل هو وكبرت أنا ولا يتوافر لي وقتا كافيا للتغيير المطلوب.

في ذلك اليوم استعدت ايضا مسألة تلك القرعات التي سمعتها في الحلم مرارا.. لقد بدت حقيقية بنحو غريب، حقيقية تماما.. أنـا أعرف الآن أنها لم تحدث إلا في الحلم، ولكني سمعتها والله.. سمعتـها بأذني.. المهم.. جعلني ذلك استعيد اللحظات الرائعة التي عشتها مع زها.. لا، لا.. لا أقصد اللحظات الحميمية فقط.. بـل اسـتعدت اللحظات البهيجة كلها التي عشتها معها.. وحتى غير البهيجة.. كان الحلم شريطا مصورا يعرض في بالي وأنا استعيد تلـك اللحظـات المهملة.. في ذلك اليوم شعرت بزها كائنا آخرا.. كائنـا حبيبـا.. ملاكا معبودا كما يجدر بها، لا كما آلت إليه صورتها بعد ما حدث بيننا.. حاولت أن أسوّغ لنفسي تصرفاتي معها، ولكني لم أنجح إلا في أن أدين نفسي.. حاولت أن أقنع نفسي بأني كنت علـى حـق في حينها، فلم أنجح إلا في أن ألعن نفسي.. لقد كنت نذلا معهـا يـا أستاذ ولا مفر من الاعتراف بذلك.. نذلٌ، ومن طراز خاص.

أنا لا أذكر تفاصيل ذلك اليوم الآن، ولكن معظـم سـاعاته مضت وزها لا تفارق مخيلتي، حتى عاد الزوجان الصـديقان قبـل الغروب فأراحاني من الأفكار التي كادت تبهظني طـوال سـاعات النهار.. حين استأذنت منهما لأتركهما لوحدهما يستريحان من عناء

التنقل الصعب في تلك الطرق الوعرة، أقسما أن لا يدعاني أذهب حتى أتناول طعام العشاء معهما.. بعد ان نقضي سوية على زجاجة (العرق المستكي) التي جلباها معهما لا أدري من أين.

كانت أمسية أكثر من رائعة.. نتبادل الأنخاب ونشرب حتى الثمالة، وتزيدنا الأحاديث الممتعة ونكات أبي الأنصار نشوة واستمتاعا.. في أعماقي، كان وجه زها يلازمني ويأبى مفارقة مخيلتي.. وكأن هذا لم يكفني، ففجأة، طلب أبو الأنصار من زوجته أن تسمعنا أغنية لأم كلثوم.. حين إنسابت أنغام الموسيقى إلى مسامعي، لم استطع أن أركز معها، فقد كان أبو الأنصار المنتشي يستحوذ على إنتباهنا بحديثه المتواصل ونكاته، ويمنعني من الأصغاء كما يجب، ففاتني ما أنشدته أم كلثوم في البداية و لم ألتقط منها غير "عينيك" و"الهوى".. لم يمر وقت طويل حتى انسحبت أم الأنصار معلنة إكتفائها بما شربت من نزر يسير، فهلل زوجها فرحا لأن ذلك كان يعني المزيد بالنسبة له.. جلست جانبا وقد أسندت ظهرها إلى جدار الكهف الصخري وراحت تراقبنا بصمت، أبو الأنصار يهذر وأنا أضحك حتى غادر لقضاء حاجة فعمّ السكون، وعندها فقط ركزت مع كلمات الأغنية التي كانت تتحدث عن نظرة حالمة وطرف أكحل وكيف تصلي الأضلع بنيران المراجل.. تداعيت مع الألحان وبدأت تباشير السكر الذي شعرت به، تندحر أمام وعيي للكلمات الهائلة التي كنت أسمعها فتزداد صورة وجه زها بحسنه الأمثل، وضوحا في بالي..زها الفاتنة التي اصطفتني من دون الجميع ولكن لا هزّني وجدها ولا طعم هواها طاب لي.. يا ويح نفسي.. عاد أبو الأنصار ودعاني فورا إلى المزيد من الشرب ولكني رفضت متعللا بعدم تعودي على العرق وعندما أصر، زجرته أم الأنصار التي

بدت في تلك الدقائق وكأنها كانت تراقبني بإنتباه شديد، فكفّ عن المحاولة.. أسلمت نفسي لذلك الصوت الرائع ليخترقني ويطير بـــي إلى دنيا أمست بعيدة عني جدا وأنا في ذلك المكان.. إنفصلت عـــن صديقيّ أكثر، ويبدو أنهما إحترما ذلك، أو لنقل أن أبا الأنصار فعل ذلك لأني أتصور أن زوجته كانت قد أعدّت لي خطة في بالها بعدما لاحظت وجومي وتبدل تعابير وجهي.. بدت أول ملامح خطتـــها عندما أعلنت أني يجب أن أبيت معهما في الكهـــف تلـــك الليلـــة فاستحسن زوجها ذلك ولم تفد معهما محـــاولاتي في الاعتـــراض.. عدت إلى أم كلثوم وأنا أطير مع الزهر والطيب والجداول.. والشدو والبلابل.. والسهى والنجوم.. وأنا أردد معها "هذا فؤادي فأمتلـــك أمره" شعرت وكأني طعنت في قلبـــي عندما قالت "وأظلمه"، فمـــا الظالم بيننا إلا أنا، أما هي فلم تواجهني إلا بالبذل والعطاء والجود.. بدأت دموعي تطرق أبواب عينيّ وأم كلثوم تتوسل الحبيب ولو رجع صدى وتعده بأن لن يشغلها عنه شـــغل أو شـــاغل، ومنـــذ تلـــك اللحظات، لم أعنِ بعدها أو أنشغل بشيء كما شغلت بزها طـــوال حياتي.

تعتع السكر أبا الأنصار وأفقده رشده لأنه لم يترك ما تبقى من الزجاجة حتى أفرغ آخر قطراتها في جوفه، فلم يكمل تناول العشـــاء الذي أعدته لنا زوجته على عجالة.. نام وهو يمضغ لقمة!.. وعندها بدأت عملية حصار بطيئة ولكن دؤوبة مارستها أم الأنصـــار علـــيّ وهي تحاول أن تجعلني أتكلم.. صمدت كما يجب في البداية، ولكـــن مع الوقت تداعت دفاعاتي إزاءها، وأنت تعرف طبع النساء عنـــدما يلححن بالتأكيد.. وفجأة، بكيت.. نعم يا أستاذ بكيت.. لا أنـــا لم اصطنع ذلك، بل بكيت بصدق.. يبدو أن السكر رغم أني لم أشرب

كثيرا كان قد ضعضع وعيي.. كان عرقا يا أستاذ وأنا لم أتعود عليه.. (مستكي)، ما أروعه.. المهم، بكيت ففاجأني ذلك كثيرا لأني لم أتوقع أني سأبكي بسبب زها، ولكن هذا ما حدث.. بكيت لإفتقادي لزها.. بكيت وأنا أدرك في كل لحظة تمر، مدى شوقي لها.. بكيت، فبحت بقصتي لأم الأنصار.

لم أخفِ عنها أي تفصيل.. ما عدا ذلك الأمر، أقصد عندما نكون منفردين وآمنين من عيون الآخرين.. فقد كانت امرأة ومن المستحيل أن أخوض معها في مثل هذه المواضيع خجلا، وكذلك إحتياطا، من أجل زها.. كانت أم الأنصار تراقبني طوال الوقت وأنا أتكلم ويبدو أنها كانت تتفحص تعابير وجهي وأنا أخوض في أعماق ذاكرتي لأستحضر لها التفاصيل التي سألت عنها.. أصغت كما يجدر بالمصغي الجيد أن يفعل، ولكنها سألتني فجأة:

- ألم يحدث بينكما أكثر من هذا؟

فاجأني سؤالها طبعا، فكرت قليلا، ثم أجبت بالنفي هازا رأسي.. فقالت وهي تداري ابتسامة أطلّت من ملتقى شفتيها:

- أنا لم أسألك بدافع الفضول، ولكني أستطيع أن أعرف إن كانت المرأة عاشقة من خلال طبيعة علاقتها الجنسية بالرجل.

ثم سكتت وهي تتمعن في وجهي، وكأنها تستطلع أثر كلامها عليَّ.. قالت بعد حين:

- أنا أعرف أنك لن تخبرني حتى إذا ما حدث بينكما شيئا، لا بأس، بل هذا هو خير ما تفعل، ولكن دعني أخبرك، إن منحتك المرأة نفسها وهمّها أن تشاركك لذتك، فتلك

امرأة إعتيادية واغلب النساء كذلك. أما إن كانت تمنحك نفسها من أجلك، من دون أن تفكر بنفسها ولا يهمها إن لم تبلغ ذروتها ومن دون شكوى أو تذمر، فهذه المرأة تحبك.. بل تحبك كثيراً.

سرى تيار بارد على طول عمودي الفقري وأنا استعيد صور زها في بالي ونحن في تلك الحظات. كانت أم الأنصار تراقبني بعيني نسر.. إبتسمت بعد دقيقة أو اثنين وقالت:

- لا داعي للكلام يا عزيزي، فقد أخبرتني للتو.. هي تحبك.. تحبك كثيراً.

ثم سكتت للحظات، قبل أن تضيف فجأة:

- فكيف فرّطت بها؟!

فقلت على الفور:

- لم أفرّط بها، بل الظروف هي التي..

ولكنها لم تدعني أكمل، بل قالت مقاطعة:

- دع الظروف وشأنها.. هي تحبك فأذهب إليها.. اسرع قبل أن تفقدها.

تطلّعت فيها بذهول، ثم قلت متسائلا:

- ولكن كيف؟!

فقالت بإصرار:

- ماذا تعني كيف.. إنتقل إلى التنظيم المدني فورا، وإن كان يهمّك أن تقدّم شيئا لحزبك، فالوضع في الداخل ليس أقل خطورة من الوضع هنا.. هيا أترك هذه الجبال فورا وإذهب إليها، صدقني أنت محتاج إليها مثلما هي بحاجة إليك بكل تأكيد.. إذهب.

أتعرف يا أستاذ؟.. أحيانا أتمنى لو أنني لم أخض ذلك الحـــديث مع تلك المرأة المذهلة.. ولكنه حدث، وكان مفترق طرق كـــبير في حياتي.. فمنذ تلك الليلة إستقرت زها نهائيا في بـــالي، ولم تغـــادره أبدا.. حتى في أحلك الظروف التي واجهتها فيما بعد.. نعم، كنـــت أشتهي زها أحيانا.. وأشتاق إليها في أحيان أخرى، قبل تلك الليلة، ولكن ذلك الحديث، بل تلك الليلة.. والتي سبقتها، جعلتني أعشـــق زها بعمق إلى درجة أنني بدأت أرى الأشياء من حولي بعيني زهـــا، نعم والله.. فلطالما شعرت بعد ذلك كلما واجهت أمـــراً غريبـــاً، أو إجتذبني منظر أعجبني، أن زها تتطلع معي، ومن خلال عيني.. أنا لا أستطيع أن أشرح لك، ولكنها كانت موجودة طـــوال الوقـــت في أعماقي، ولم أستطع أن أزيحها من هناك حتى هذه اللحظة.

أنا لم أنفذ طلب تلك السيدة الكريمة فورا، بل بقيت في الجبال لأخوض حربـــي ضد النظام الذي أكرهه، وكان وجـــود زهـــا في أعماقي ومشاركتها لي في حواسي، وشعوري أنها تـــراقبني، مـــن خلالي، وأني لا يمكن أن أبدو ضعيفا أو سخيفا أمامها، سببا مضـــافا لي لأقدم أكثر وأزداد إصرارا على الإتقان، وهذا ما جعل أســـهمي تزداد إرتفاعا في بورصة التقييمات حتى سمعت ذات يوم أن الحـــزب قد قرّر أن يرقّيني إلى رتبة أعلى في جيش (أنصاره).. نعـــم، كـــان للرتب وجود هناك.. وقد أفرحني هذا كثيرا لأنه في الأقل كان يعـــد ثواباً وهو أمر يرضي غروري.. فرحت جدا، ولم أعرف أنه سيكون له تأثيرا سلبيا عليّ.. لم أتوقع.. ولكن هذا ما حدث، وكان له أثرين في حياتي.. أما الأول فسرعان ما عرفته عندما بدأ اللغط بين رفـــاق كنت أعدهم حتى ذلك الوقت أخوة لي.. أنت تدري، ملاحظـــات تافهة مثل "كيف اتلقى الأوامر من النصير يوسف وهو بعمر ابني" أو

"ما الذي قدمه النصير يوسف و لم أقدمه أنا" وغيرها من الملاحظات التي لا تدل على غير قوة تأثير الحسد والغيرة على نفسياتنا، فتفسد علينا تفكيرنا وتسيء إلى علاقاتنا بالآخرين.. أما الثاني، فلم أعرف مدى كوارثيته إلا بعد حين من الزمان.

إذ أستعيد ذكرى تلك الأيام الآن، أستطيع أن أؤكد لك أن تطوّر الأحداث كان يأكل من جرف معنوياتي بالتدريج وأنا لا أشعر.. فقد بدأت حياتي هناك بإصرار على العطاء والتضحية.. حتى بالروح.. نعم، حتى بالروح لأني كنت مؤمنا بقضيتي، فأنا ولدت شيوعيا كما بتّ تعرف، ويبدو أن عقد السبعينات كان قد أذكى حقدي لما تعرّض له الحزب من أذى وغدر على يد الحكومة.. وعندما بدأت الحرب، وما تلاها من أحداث على مستوى شخصي، أصبحت مفعما بكل ما يزيد ذلك الحقد استعارا، ولكن ما رأيته في أعالي الجبال أثار عجبي وكبح جماح إندفاعي كثيرا، لقد كنت شابا بلا تجارب واقعية و لم أكن ارى إلا الجوانب المثالية من الأمور، ولذلك لم أر في تلك المنغصات أمرا طبيعيا كما هي بالفعل.. إذ أستعيد ذكرى كل هذا، أعجب كيف أمكن لذلك الشاب أن يفقد كل ذلك الإندفاع ويقرر في لحظة أن يبتعد.. ولكن لِمَ الإطالة، فالمهم هو أني أمضيت بتلك المعنويات المتراجعة أياما أخرى وأنا أكتوي بلظى حب متنامي بشدة.. حب سلبني لبي منذ ليلة أم الأنصار وعرقها وأم كلثوم.

أنا أعتقد الآن أن أمر مغادرتي الجبال كان أمرا محتوما، ولكن لا بد دائما من أسباب تدفعنا إلى إتخاذ القرارات المصيرية في حياتنا.. وأتصور أن ما حدث في تلك الليلة كان الدافع الأكبر لقراراتي التي إتخذتها في تلك الأيام وغيّرت وجه حياتي نهائيا.. كانت ليلة تعجز

كلمات مثل حالك ودامس وداجي ومعتم عن وصف ظلامها.. ليلة أبت شمس نهارها أن تطلّ علينا وبخلت علينا بشعاعها وهي قابعة خلف غيوم أمطرتنا غيثا مستمرا، فأتت ظلماء تعطّل حاسة النظر فينا.. شاء حظنا في تلك الليلة أن يكون واجبنا في الربية الأخطر في قاطعنا، كانت تقع أعلى جدار صخري يصعد عموديا من واد سحيق.. وكان المفروض أن نكون أربعة هناك ولكن ظروف لم أعد أذكر ما هي، حتّمت علينا أن نجد أنا والنصير صالح نفسينا وحيدين هناك يلفنّا ظلام مرعب وشبح عدو لا يمكن أن نتوقع خطواته.. أقسم لك أني حاولت في تلك الليلة أن أرى أصابعي وهي على بعد سنتمرات من عيني، فلم أرها، ولم نكن نستطيع حتى أن ندخن خوفا من أن ترصدنا عيون العدو الكامن في روابيا مشرفة على ربيتنا.. كانت دقائق الليلة تمرّ بنا متثاقلة وكأنها تريد أن تعرّض أعصابنا لمحنة الإختبار بعد أن آزر البرد تلك الظروف فبدا وكأن كل منغصات العالم قد تكالبت علينا في تلك الليلة.. كنا قد أصبنا شيئا من طعام قبل أن نتحرك إلى الربية، ويبدو أن فسادا من نوع ما، قد اصابه، لأني كنت اشعر طوال الوقت بأمعائي تتحرك بطريقة مثيرة للأعصاب، ولكن أن أستجيب لها كان أمرا مستحيلا بالنسبة لي، فالذهاب إلى الخلاء محفوف بالمخاطر في مثل ذلك الظلام، كما أن فكرة أن انزع سراويلي الثلاثة التي كنت أرتديها لأعرض مؤخرتي لذلك البرد الظالم، كانت تجبرني على أن أنتظر الصباح لنعود إلى المقر حيث المراحيض الأكثر نظامية.. ولكن يبدو أن حظ النصير صالح مع أمعائه لم يكن جيدا، ولم يعد يطيق صبرا عليها لأنه قال لي فجأة "أنا ذاهب لأقضي حاجتي".. حاولت أن اثنيه عن نيته خشية عليه، ولكنه أبى وأكد أنه لم يعد بإمكانه أن يحتمل أكثر، فذهب.. ذهب ولم يعد

يا أستاذ!.. إنتظرته طويلا، ولكنه لم يعد فتناوشتني الأفكار وأزرت بي الظنون.. لم يكن بإمكاني أن أخرج للبحث عنه، ولم يكن أمامي إلا الإنتظار.. بل أن الإنتظار نفسه أصبح في لحظة شبه مستحيل بعد أن ظننت أنه يمكن أن يكون قد إستغل تلك الليلة ليسلم نفسه إلى الجيش.. لِمَ لا، فقد حدث مثل هذا من قبل، وهرب البعض إلى الجيش فيما هرب آخرون إلى الإيرانيين.. ما يدريني أنه لن يخبرهم عن بقائي وحيدا فيأتون لأسري من دون عناء.. كان الوقت يتلاعب بأعصابي، فكلما مرّت دقيقة ولا يظهر فيها صالح، كنت أشعر وكأن ملاك الموت يزداد إقترابا مني وهو يرفرف فوق رأسي بجناحاته الرهيبة.. فكرت أكثر من مرة أن أترك الربية وأعود إلى المقر لأبلغهم بما فعل صالح ولكني كنت أتراجع.. فقد خشيت من تأثير ذلك على سمعتي والأهم أني لم أكن لأستطيع أن أصل إلى المقر في ذلك الظلام المدلهم.. لم أعرف كم مرّ من وقت حتى بانت تباشير الفجر واستطعت أن أتبين طريقي، فلم أضيع دقيقة أخرى، بل سارعت بالإنسحاب.

أبلغت المسؤولين عمّ حدث فقرروا تشكيل دورية للبحث عن النصير صالح.. تطوعت فورا للذهاب معهم رغم إعتراضهم، ولكني أصررت فقد كنت مدفوعا بحبي له وبحثا عن جواب عن ظنوني التي حامت حوله.. سرت على الطريق نفسه رجوعا، ولكن من دون خوف هذه المرة بفضل صحبي من حولي.. لم تمض فترة طويلة ونحن نبحث حتى رأى أحد الرفاق كتلة في أعماق الوادي السحيق.. خفق قلبي بشدة عندما رأيتها بعيني المجردة ولكن كان من الصعب تمييزها من دون ناظور.. عشت ثوان في حيرة ما بعدها حيرة، فقد كنت أتمنى لو لم تكن تلك الكتلة صالح الذي كنت أحبه ولطالما

تبادلنا أحاديث ممتعة وتشاركنا طعامنا.. ولكن لو لم تكن هو، فـــإن هذا يعني أن شكي بهروبه كان في محله.. حدّد رفيق أن الكتلة إنمـــا هي جثة إنسان، فأسقط في أيدينا وأصبحنا في شبه يقين أننا قد فقدنا رفيقا لنا.. لم يكن بإمكاننا أن ننـــزل جميعا إليه لخطـــورة ذلـــك، فتطوعنا أنا ورفيق آخر للنـــزول وجلب الجثـــة إن كانـــت تعـــود لرفيقنا.. كان الطريق إلى اسفل الوادي سهلا وهو لا يشـــبه ذلـــك السفح العمودي المجاور للربية بشيء.. عندما إقتربنا زحفا من الجثة، تأكدنا من أنه صالح.. فجعني مرآى الجسد الممزق شر ممـــزق.. يـــا للصخور اللئيمة!.. ما لها لم ترحم هذا الشاب الجميـــل.. ســـحبناه برفق وثبات ونحن نبكي، ثم صعدنا حاملين إيـــاه لنعـــود إلى المقـــر صامتين.

قضيت بقية ذلك اليوم حزينا، منهكا وخجلاً من نفســـي لأني شككت بهذا الرفيق الصالح فجافاني النوم، ولكن الذي منـــع عـــني الراحة التي كنت أحتاجها هو الشعور بخوف مفاجيء إنتابني حـــال رؤيتي لمصير صالح، فقد نبهني إلى شكل آخر للموت لم أكـــن قـــد حسبت له حسابا.. نعم يا استاذ، فقد كان الموت هناك عبارة عـــن رصاصة أو شظية أو لغم مدسوس في أحد الطـــرق النيســـمية الـــتي نستخدمها.. أما أن يتسبب خطأ بسيط في الاتجاه، بموتك، فذلك أمر لم أكن قد تهيأت له بعد.. الإتجاهات في الظلام وعلى شـــفا أوديـــة ومنحدرات خطيرة مهمة جدا لأنها قد تعني موتا مثلما تبين لي أخيرا، وأخافني ذلك رغم أني لم أكن غافلا عن فكرة الموت.. كان صـــالح قد حدثني ذات مرة، وهو يضحك، عن نصير إتجه لنقطـــة حراســـته ويبدو أنه أضاع اتجاهه من خلال سيره في الظلام ففي لحظة شعر أن قدمه اليمنى ضلّت صلابة الأرض وحطّت في فراغ، فقرر في جزء من

لحظة أن يتبعها بقفزة من اليسرى ليعبر الحفرة الـــتي تصـــور أنهـــا إعترضت دربه، وما كان أكثرها في دروبنا تلك.. في الصباح عندما عثروا عليه وهو ممدد مكسور الظهرعلى كومة التراب الناتجـــة عـــن انهيار حديث في سفح الجبل والتي هبط عليهـــا بطريقـــة عجائبيـــة، حدثهم وهو يضحك رغم الآلام الشديدة عن فكرته العبقرية الـــتي أراد بها أن ينتقل من جبل إلى آخر بقفزة! في تلك المرة ضحكت مع صالح بعد أن أنهى حديثه، ولكني في هذه المرة سألته في بالي ملتاعـــا "أحاولت أن تقفز أنت أيضا يا صالح؟!" ثم بكيت.

عندما حلّ عليَّ ليل ذلك اليوم أخيرا، كنت مريضا من شـــدة الإعياء.. أردت أن أتخلص من أفكاري المضنية، فاستحضرت ذكرى زها وهي بفستانها الأبيض بوروده الســـود.. استحضـــرت تلـــك اللحظات المجنونة التي عشناها طوال ذلك الصباح.. تذكرت وجهها الجميل وهي تطلب المزيد من دون أن تنبس ببنت شفة.. المزيـــد.. المزيد.. شعرت حينها كم أفتقدها ولمت نفسي لأني أضعتها بعـــدما كانت ملك يدي.. كيف جعلتها تذهب وهي على تلك الحـــال؟.. بل لعلي فرحت في حينها لأنها ذهبت بعد أن استنفذت رغـــبتي و لم أعد بحاجة إليها.. وفجأة.. نـــزلت عليَّ فكرة كالصـــاعقة.. مـــاذا لو.. يا إلهي كيف غاب ذلك عن تفكيري طوال الوقت الذي مضى منذ أن رأيتها آخر مرة.. ماذا لو عادت إلى ذلك البيت بحثا عـــني.. بل هي ستفعل حتما بعدما تلاحظ غيابـــي.. أنا أعرفها واعرف أنها فاعلة ذلك لا محال.. تعود إلى ذلك البيت، وهي لا تعرف أنه لا بد وأن يكون قد وضع تحت مراقبة عيون السلطة التي لا ترحم.. أيمكن أن تكون قد أعتقلت؟!.. مادت بـــي الدنيا وأنا أتصور أنها يمكن أن تكون الآن تحت رحمة أولئك القتلة.. لم أكن شخصيا قـــد جربـــت

وحشيتهم بعد، ولكني أعرفهم جيدا وسمعت الكثير عـن أساليبهم اللاإنسانية في التعامل مع ضحاياهم ولا أتصور أبدا أن جمـال زهـا الملائكي سيشفع لها عندهم.. بل لعله سيكون دافعا لهم للتفـنن في تعذيبها.. أو حتى لـ.. المهم، جافاني النوم في تلك الليلـة أيضـا، ولكن شمس الصباح التالي لم تشرق حتى كنت قد إتخـذت القـرار النهائي.. يجب أن انتقل إلى التنظيم المدني رغم خطورة رجـوعي إلى بغداد، ولكني يجب أن أعود لعلي أجد خيطـا يوصـلني إلى زهـا وأطمئن عليها.. وإذا أردت الصدق، لأرتشف مـن معينـها مـرة أخرى، أيضا.

لم يكن أمر النقل إلى التنظيم المدني سهلا، فقد كـان الحـزب بحاجة إلى مقاتلين أكثر مما يحتاج إلى إدارة التنظـيم المـدني، رغـم أهميته.. ولكني بإلحاحي وإصراري على موقفي، وبمعونـة أبـي الأنصار وأمهم، نلت تكليفا من قبل القيادة لأداء بعض الواجبـات المتعلقة بالتنظيم المدني في بغداد، وكان ذلك يعني أياما معـدودات هناك تصورت أنها كل ما أحتاجه لإيجاد حبيبتي والإطمئنـان علـى سلامتها.

بعد تمكن رسل الليل السوداء من دحر زرقة نهار ذلك اليـوم معتدل البرودة نسبياً، وسيطرتها على السماء، إبتدأنا، أنا ورفيقـيّ، رحلة النـزول إلى أسفل.. منطقيا، كان من المفتـرض أن يكـون النـزول أقل عناء من رحلة الصعود التي خبرتها قبل ذلـك بأشـهر طوال، ولكن اضطرارنا إلى الإلتفاف أحيانا، أو للـركض فجـأة في تلك الأرض الوعرة والبحث عن ساتر يخفينا، للتخلص مـن عيـون (ربيّات) السلطة ودورياتها التي نخشى منها رغم أن دليلنا كان قـد تعامل مع أخرى (بالدنانير) لتسمح لنا بالمرور، جعل رحلتنا مضنية..

عندما شعرت وكأن الأرض قد استوت تحت أرجلنا أخـــيرا، كـــان التعب قد أخذ مني كل مأخذ، ولكن عذابـــي لم يطل كثيرا لأننـــا سرعان ما وصلنا إلى قرية مظلمة، صامتة، تنام تحت أقـــدام ذلـــك الطود العظيم.. وهناك قادوني باتجاه بيت محدد حيث أستقبلنا خـــير استقبال وجعلونا نأكل على ضوء مشاعل الزجاجات الممتلئة نفطـــا، لقيمات معدودات من عشاء فقير قدّم إلينا على عجالة، ثم سرعان ما مدّت الفرش لنصيب قسطا من الراحة قبل أن أتوجه مع بزوع الفجر إلى الطريق العام، ومن هناك إلى بغداد حاملا هويتي كطالب، كمـــا كنت بالفعل قبل أن يحدث كل هذا، ولكن باسم آخر.

كان يوسف في الخامسة من عمره، عندما توشح بيتهم بالسواد، بعد يومين بهيجين قضاهما باللعب في الخارج.. كان شيئا ما قد حدث، ففرض (منع التجوال) في بلدهم، فلم يفقه من الأمر شيئا غير أن فرصة كبيرة للعب في الشارع منذ الصباح وحتى المساء، قد أتيحت له.. كانا يومين بطعم خاص حيث يجتمع الشباب للعب الكرة، والشيوخ للتداول في أمور لا تعنيه، رغم أنه ما كان يبدو عليهم من جدية، أو حتى من عصبية في نقاشاتهم الدائرة.. الشعب.. الثورة.. الإنقلاب.. الزعيم.. وزارة الدفاع، وكل ذلك في مكان اسطوري اسمه (بغداد).. ولكن ما همه إن كان يستيقظ صباحا ليهرع إلى الشارع بعد الإفطار ليلتقي أترابه الذي كان يتفنن وإياهم في استحداث المزيد من اللعبات كلما ملوا من واحدة.. هو لاحظ السعادة والارتياح اللذين بديا على وجه أبيه رغم أنه لم يجهر بهما، كما لاحظ القلق والحزن الضاري اللذين بديا على والدته، حتى إنها بكت في اليوم الأول عندما تغيرت الأوضاع فجأة، ولكنه لم يهتم ما دامت أمه تسمح له باللعب في الخارج طوال الوقت، ولا تستدعيه إلى البيت، إلا في وقت الغداء، وبعدما تغيب الشمس.. في اليوم الثالث، سمع أصوات صرخات آتية من بيتهم، وثب قلبه هلعا وهرع إلى هناك مهزوز الجنان.. عندما دخل البيت، لاحظ أن بعض نسوة الحي كن قد سبقنه إليه.. رأى والدته وهي تلطم على وجهها وصدرها كما لم تفعل من قبل، وقد أحاطت بها أخواته والنسوة.. بكى قبل أن يسأل عمّ حدث، ولكن إحدى أخواته انتبهت إليه، فأقبلت لتحتضنه وهي تبكي.. سألها وهو يغالب دموعه، فأخبرته أن خاله الضابط قد مات.. بل قتل.. قتله البعثيون وهو يقاومهم، فبكى عندها بحرقة ما بعدها حرقة، لا بسبب خاله الذي لم يعرفه جيدا

يوما ما لأنه كان غائبا طوال الوقت، بل بكى لبكاء والدته المر.. في ذلك اليوم، ارتدت أمه ملابسَ سودا، فلم يرها بعد ذلـــك بغيرهـــا، أبدا، وذهبت إلى بيت أهلها بعد أن طلبت من بناقا أن يعتنين به.

طوال أيام تلت، كان يقضي وقته بانتظار عودة أمه، لأنـــه لم يكن قد تعود فراقها بعد.. ولأن أخواته لم يكن ليلبين جميع طلباتـــه كما تفعل هي.. في الليل، عندما تعود متعبة، متقرحة الأجفان مـــن فرط البكاء، تبدأ نساء المنطقة بالتوافد عليها لتعزيتها، فكان يســـمع صوت بكائها الهستيري المخلوط بلعناقا المنصبة على رؤوس البعثيين الذين قتلوا أخاها الحبيب، اثيرها.. وعندما تحاول النسوة أن يخففـــن عنها، أو أن تخفض من صوقا في الأقل، خوفا من (البعثيـــة)، كـــان صوقا يزداد إرتفاعا، وتتنوع لعناقا.. في تلك الأيام، أقسم في ســـره أن ينتقم من البعثيين عندما يكبر، وأن يقتلهم حتى يزيل عشيرقم من الوجود.

بدا وكأن الحزن الكبير لم يكفه، بل لازمه الشعور بعدم الأمان مع إنهيار عالمه القديم، ولم يتخيل أنه سيكون قادرا على الفرح مـــرة أخرى، رغم أنه عندما عاد للعب في الشارع بعدما عادت أمه إليـــه، سرعان ما إنخرط باللعب مع أصدقائه، وعادت ضحكاته وصـــيحاته تملأ أرجاء الزقاق الصغير الذي كان يضم بيتهم.

الليلة الثامنة

وصلت بغداد عصر يوم غائم، كاد جوه الكئيب يجعلني أشعر بالتشاؤم لولا أني قاومته لأني لم أكن لأحتمل فكرة الفشل في العثور على زها والإطمئنان عليها.. الغياب يا أستاذ، مؤلم.. قاسٍ، والموت أهون منه لأنه يعالج بالسلوان.. أما أن يغيب عنك حبيب فجأة، ومن دون أن تعرف عنه شيئا، فذلك حال مدمر لأنك تصبح به، أسير تناوب الأمل واليأس الذي يبعد عنك راحة البال ويحرمك رحمة اليأس.

كنت قد أعددت خطة متكاملة للبحث هذه المرة لأني كنت قد خبرت محنة البحث عن شخص في مدينة كبيرة كبغداد، قبل أكثر من عام، ولم أكن أعرف أن تلك التجربة الماضية ستبدو كالنزهة بالنسبة إلى هذه التي أنا مقبل عليها.. بالحقيقة، كنت مزودا بتعليمات صارمة من الحزب أن لا أغامر، وأن لا أخرج من الملاذ الآمن الذي وفره لي في بيت أحد الرفاق البعيدين عن الشبهات، إلا للضرورة القصوى، فقد كان زمن حرب واستنفار أجهزة الدولة الأمنية قد بلغ درجاته القصوى، ولكن كان عندي مخططاتي الخاصة والإلتزام بتلك التعليمات صعب جدا عليّ.. كنت أخرج طوال الأيام التي أمضيتها في بغداد، ومنذ بواكير الصباحات، متوجها إلى ساحة الميدان لأستقل الحافلة رقم (57).. الآن فقط انتبهت.. يا لهذا الرقم الذي لعب دورا في حياتي منذ ولادتي.. المهم، أستقل الحافلة

وأغادرها في كل مرة في إحدى المناطق السكنية التي تمر بها، لأمشط شوارعها وأزقتها لعلي ألتقي بزها وهي تسعى إلى الجامعــة، ولــو صدفة.. كنت ملتزما بهذا حتى في أيام الجمع رغم عدم وجــود دوام فيها.. ولكن الأيام مرت ولم يفلح مسعاي ولا استجابت الأقــدار لتوسلاتي.. آه يا سيدي، لم يكن يبهضني شيء في تلك الأيام بقــدر الإحباط الذي أشعر به وأنا أعود خائبا في كل مرة، حتى إن الــدنيا بدت لي أضيق من الكهوف الصغيرة التي كنا نلجأ إليها كلما كرمتنا الحكومة بقصف مدافعها التي لا ترحم.. كان وعيي يتشتت باضطراد كلما مر يوم من دون أن أهتدي لزها، فأنسى خططي القديمة وأبتدع جديدة لا يزيدني إخفاقها إلا اضطرابا وحيرة وشعورا بالإحبــاط.. كانت الخيبة تنخر في نفسي حتى بدأت اتناسى قيمـــي وتتــهاوى مبادئي التي آمنت بها، وفجأة، وجدتني لا أؤمن بغير يقين واحد، هو أني أحب زها ولا بد لي من العثور عليها.

درت ودرت في الشوارع بحثا عن زهــا، حــتى أن الكــلاب السائبة فيها بدأت تتلقاني بهزات أذيالها بعدما كانت ترمقني شزرا في البداية.. وعلى الأسلاك، كانت العصافير تتجمع لتراقبني وهي تردد اسمي زقزقة وأنا أتخبط كالضال في أزقة لا تنتهي.. ولم أعرف يومــا إن كانت زقزقتها سخرية أم تعاطفا.. كنت أيامها أبتكر تفــاؤلا لا وجود له في داخلي لأستطيع أن امضي في البحث، وحتى عندما كان يمضّني عمى حيرتي، كنت أهرب من نفسي لأهرع إلى تلك الشوارع ثانية، فأجوس في الأزقة وأنا أتطلع في الأبواب المغلقة.. أتساءل مــع نفسي "أأقرعها؟!".. "أأستنطقها؟!" لأستجدي أهلها صدقة أن يمنّوا عليّ بإثر خطى زها.. ولكن، لا أنا تجرأت على القرع، ولا رحمــت السماء، وزها كانت تزداد غيابا مع كل ساعة تمر

كما قلت لك، كنت أغادر الوكر مبكرا لأصل إلى المناطق الواقعة على خط الحافلة بالتسلسل وقبل أن يبدأ الدوام بساعة وأبدأ البحث وأنا أتطلع في وجوه الفتيات وأقتنص هيئاهن، ولكن بلا جدوى.. أعود عند الضحى لأكمل واجباتي وألتقي بمن يجب عليَّ أن ألتقي بهم، ثم ألوذ بالبيت الوكر.. ولكن هيهات، فلطالما أقدمت في حمى الليل وتسللت إلى تلك الشوارع مرة أخرى، يحدوني أمل.. أو قل مدفوعا باليأس، لأني كنت في أعماقي أزداد يقينا باستحالة العثور عليها بتلك الطريقة.. أطلق روحي لتخترق النوافذ المضاءة، لعلها تهتدي إليها، ولكنها ترتد إلي كسيرة، مثخنة باللوعة.. كان الأمر واضحا جدا، فقد رفضت الشوارع والبيوت والأزقة إلتماساتي، وبدت القضية محسومة.. هي قيد الإختفاء، وأنا أشكو الجزع.

جعلني اليأس أتهور، فقررت أن أنتظرها قريبا من الجامعة ذات ظهيرة.. لذت بظل موقف الحافلات التي تلي المقابلة لبوابة الجامعة، ورحت أراقب الفتيات العابرات للشارع باتجاه الموقف حيث تعوّدت زها إنتظار الحافلة المتوجهة إلى منطقة الميدان.. كنت على ثقة من أني سأميزها حال رؤيتي لها وإن على بعد.. ولكن آه لو تدري يا أستاذ كم من مرة وثب قلبي عندما أخال أني قد رأيتها أخيرا.. ولكن سرعان ما يخيب رجائي.. الإنتظار يا سيدي، أمر ممضّ لقليل الحيلة، وتكمن خطورته في أنه يأكل سريعا من هامش المعنويات الضئيل، وقد يدعو إلى التهور، وهو ما حدث لي ذلك اليوم.. لا، لا أقصد وجودي قريبا من الجامعة، بل ما هو أسوأ.. كنت قد تجاوزت موعد عودتي بعدما أنجزت الواجبات التي كلفت بها من قبل الحزب، ولكني أجّلت موعد رحلتي أكثر من مرة حتى قبل محاولتي الأخيرة تلك، ولكن الوقت كان يمضي بسرعة مرعبة، ولذلك قررت فجأة أن

اقترب أكثر.. وأن أدخل الجامعة بحثا عنها إذا ما رأيت الأمر ممكنا.. أربك التردد خطواتي الأولى، ولكن لحظة نــزق أوهمتني، فرحـــت أحثّ الخطى غير هياب باتجاه الجامعة بعدما مـــلأني أمـــل برؤيتـــها حتما.. عندما أصبحت على بعد أمتار قليلة من بوابة الجامعة التي لم أكن قد قررت بعد أن ألجها أم لا، ألفيت نفسي أمام "حميد" فكـــاد يشلّني الرعب.. حميد عضو الإتحاد الوطني الذي لم يكلف نفسه يوما أن يخفي إنــزعاجه مني.. كاد يقابلني وجها لوجه، لولا أنـــه كـــان مشغولا بالحديث مع السائر إلى جانبه.. إستجرت برعبـــي، فأجارني إذ استطعت أن أستدير وأركض كما لم أركض من قبل أبدا.. كنت أدرك جيداً أن الركض بتلك الطريقة كان يمكن أن يجلب الأنظار لي، ويفضحني، ولكني لم أستطع إلا أن أركض!.. ركضت وركضـــت حتى شعرت أني إبتعدت مسافة كافية، فتوقفت.. ولكني لم أطمـــئن حتى إلتفتّ إلى الوراء وتأكدت من أن أحـــدا لم يـــركض خلفـــي، وعندها فقط بدأت محاولة استعادة أنفاسي.. لم اشعر بالســـعادة لأني تخلصت للتو من مأزق كاد يطيح برأسي بسبب إســـتهتاري.. بـــل عانيت من الشعور بتلك الصخرة الرابضة على معدتي، والألم الـــذي بدأ يعربد في أحشائي.. أهذا يعني أني يجب أن أعلن هزيمتي وأعـــود من دون اللقاء بها.. أيعني أني لن أستطيع رؤية وجهها الحبيب ولـــو لدقائق.. أيعني أني سأظل أعاني من القلق الرهيب عليهـــا.. هكـــذا بدأت الأسئلة الحائرة تترى في وجداني وتزيدني إيلاما، ولكن فجأة.. كدت أقفز من الفرح.. لا لا، ليس لأني رأيتها فجأة أمـــامي.. بـــل لخاطر لا أعرف من أين إنبرى وهداني إلى حل تصورته في حينه هـــو نهاية عذاباتي الأكيدة.. ضحكت مسرورا وأنا أدرك مدى غبائي لأني لم أفكر بهذا منذ البداية.. كان حلا بسيطا ويجب أن أفكر به، وهـــو

أن أذهب إلى القسم الداخلي.. إلى حيث أصدقائي الذين يمكـــن أن أثق بهم.. وأن اعتمد عليهم.. يا لله كيف نسيت ناظم؟.. أو حـــتى عادل.. أسألهم عن أخبار زها التي لا بد أن يكونوا على علم بها وأن اجعل أحدهم واسطتي إليها إن كانت بخير، عسى أن يـــتم اللقـــاء المرتجى.. وهكذا اسرعت إلى حيث القسم الداخلي القريب وأنا أكاد أطير بعد تحرري من كل ضيقي ومخاوفي وإحباطاتي.. لقـــد انتـــهت محنتي وحان وقت الوصال.. ما هي إلا دقائق حـــتى وقفـــت أمـــام البيت.. الذي.. كان.. قسما داخليا.. لم أر ثمة غير عمال مشغولين بما بدا كأنه ترميم للبيت الذي إختفت من فوق بابه الرئيسة اللافتـــة التي تشير إلى أنه قسم داخلي مخصص لطلبة الجامعـــة المستنصـــرية.. للوهلة الأولى تصورت أني أخطأت الزقاق.. ولكن ذلك هو بيت أم علي الطيبة التي كانت تعاملنا وكأننا أولادها.. وهذا هو بيت ســـناء الصبية اللعوب التي أحبها أكثر من نصف ساكني القسم.. لا مجـــال للشك.. ولكن أين هو القسم الداخلي.. ما الذي حلّ به.. بقيـــت واقفا بمكاني أكاد أبكي لشدة إحساسي بسوء الحظ حتى مرّ صبـــي بدا عليه أنه من سكنة الحي فسألته ليخبرني أنهم قد نقلـــوا القســـم الداخلي مع بداية العام الدراسي الجديد، ولكنه لم يستطع أن يسعفني بالعنوان الجديد فأسقط بيدي.. آه يا أبا خضير، لكم تبدو الأقـــدار مجحفة بحقنا عندما نكون بحاجة إلى عونها.. لم تناكدنا وتأبى علينا أن ننال ما نشتهي.. المهم هو أن الحظ أبى عليّ طوال الأيام التي قضيتها في بغداد أن أجد ضالّتي، ولأني كنت قد تماديت في تأجيل عودتي إلى الجبل، رجعت في اليوم التالي مرغما.

أنا لا أعرف يا سيد عباس ما الذي إقترفناه نحـــن العراقيـــون، فكلما مررنا بمحنة نقول أنها أسوأ ما يمكن أن يمرّ بنا، ولكن الأقدار كانت دوما تتعمد أن تجعلنا نبدو مخطئين، فهي تصرّ على أن ترينـــا الأسوأ والأسوأ.. والأسوأ.. هكذا كان حالي وأنا أصعد الجبل للمرة الثانية، ففي الأولى تصورت أني لن أجد نفسي في وضع أسوأ يومـــا وأنا أعاني ما أعانيه من ذلك الصعود العسير، ولكن المعاناة في هـــذه المرة كانت أكبر بكثير.. هكذا بكل بساطة، أكبر بكثير جـــدا.. لا، لم تكن المعاناة بسبب التسلق، فلا تسلق في الأمر ولا حبال، إنما هو صعود بطيء لأننا كنا نسلك دروبا نيسمية تقودنا إلى القمم وهو ما كنت قد تعودت عليه طوال الأشهر التي مضت، بل وبدأت أتمتـــع به.. كانت المعاناة بسبب وضعي النفسي الرهيب الذي عـــدت بـــه على الطريق نفسه الذي ذهبت به إلى بغداد، حسب الاتفاق، حيث كان ينتظرني الدليل في بيتهم بتلك القرية البائسة، لنبدأ عملية التسلل والصعود.. كانت المدفعية تزمجر طوال الوقـــت ودوي إنفجاراتهـــا البعيدة تهدد بموت زؤام، كانت ومضات خاطفة تبدد الظلمـــة مـــن حولنا وتضيء القمم التي نسعى إليها، فتبعث في النفس القشعريرة.. ولكني لم أكن خائفا كمـــا في المـــرة الأولى فقـــد أزاحَ الخـــوف والاكتراث من داخلي، الهمُّ، ولم يبق غير حزن مقيم وشعور مميـــت بإحباط يهددني بفتح سيول عينيّ في كل لحظة، لولا خجلـــي مـــن رفيقي.

حين اقتربنا من وجهتنا بعد ساعات، كـــان قـــرص الشـــمس البرتقالي يطلّ علينا من بين قمم الجبال الأبعد.. وكأن التعب الهائـــل الذي كنت اشعر به، لم يكفني، ولا الطنين المقرف في أذني، فراحت اشعة الشمس الوليدة تناكد عيني المسهدة، إذ لم أكن قد ذقت طعـــم

النوم منذ ليلتين خلتا، وتفرض عليَّ المزيد من الشعور الممض بالنعاس وأنا لم أزل أحثّ الخطى.. كنت أسير كالمنوّم مغناطيسيا خلف دليلي، قائدي إلى ذلك المكمن الأمين، الذي هو محطتنا الأولى والأخيرة قبل الوصول إلى المقر البعيد، فاستقبلنا الرفاق خير استقبال وبدأت أسئلتهم المعتادة عن الوضع في بغداد بعد أن علموا أني قادم للتو منها.

كان من المفترض أن نبقى ساعات لنرتاح هناك قبل أن نواصل المسير، ولكني أبيت إلا أن أغادر إلى المقر الرئيس فور إنتهائنا من تناول الفطور الفقير الذي قدموه إلينا.. إعترض الدليل وأصرّ على أننا كنا بأشد الحاجة إلى الراحة بعد تعب ساعات الليل الطويل التي قضيناها ونحن نسري صعودا تحت عبء ضغط الأخطار المحتملة التي قد تصادفنا في طريقنا، وقد كان محقاً، ولكن أنّى كان لي أن أفكر بمنطق وأنا على تلك الحال التي كنت فيها، فقررت أن أكمل المتبقي من الطريق الذي أعرفه، لوحدي.. فودعتهم وسرت مدفوعا بالأمل الذي استقيته من ظلمات إحباطي، أن أقدم للرفاق تقريري عن مهمتي، ثم أطلب منهم السماح لي بالعودة إلى بغداد لإكمال عملية البحث التي أصبحت مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.

بدأت رحلتي بمعنويات مرتفعة نسبيا بسبب فكرتي التي طرأت على بالي، ولكن مع امتداد المسافات، بدأت المعنويات تتسرب من مكان ما في داخلي، ليعاودني الشعور بالاحباط، إذ لم أكن واثقا من أنهم سيستجيبون إلى رغبتي ويتركوني أعود إلى بغداد.. إلى زها التي يجب أن اعثر عليها.. يا لله يا أبا خضير لكم تخطر ببالنا أحيانا أفكارا قد يكون الحل كامنا فيها لو نفذناها فورا، ولكننا نتردد فتضيع الفرصة، فمع محاذاتي بالسير لواد سحيق خطرت ببالي فجأة فكرة

الإنتحار.. بدت لي معقولة في ظل الشعور بالمرارة الذي كان يسمّم جوفي.. هكذا، من دون أن أتوقف، أو أن أخفف من سرعتي حتى.. فقط أستمر في سيري وأن استدير فجأة إلى اليسار ثم، خطوة وثانية، ومع الثالثة أقفز فتكون النهاية.. بدت فكرة منطقية جدا وحلا ناجعا.. قلت مع نفسي، من يدري لعلي ألتقي هناك بصالح.. هناك، أقصد الحياة الثانية إن وجدت، وبالنظر لهول أعداد البشر افترضت أنهم لا بد أن يصنفوهم حسب طريقة موهم، ولذلك تكون فرصة التقائي به واردة جدا، وعندها أفهم منه ما قد يزيل الغموض عما حدث ليلة موته.. ولكن ماذا عن زها؟!.. فأنا لم أعرف شيئا عن مصيرها.. الن يكون غدرا أن أنتحر وأتركها تواجه مصيرها لوحدها؟!.. لم أحتج إلى الكثير بعد هذه التساؤلات لأبعد فكرة الانتحار عن بالي، وأتعلم، اليوم وبعد ما يقارب الثلاثين عاما أندم لأني لم أنفذ فكرتي تلك.. المهم، في ذلك اليوم، واصلت المسير وأنا أستصرخ الأمل لعلّه ينقذني من تداعي معنوياتي الذي كان يقرّبني من الإنهيار باضطراد.

وصلت بعد ساعات أخرى إلى المقر، فقابلوني بنظرات كانت خليطا من إستغراب من البعض واستنكارا من البعض الآخر، فأيقنت أني غير بالغ مرامي منهم.. لم يسمعوني، ولم يسألوني عن نتائج المهمة التي كلفوني بها، بل أصرّوا على الإستفسار عن سبب تأخري.. لم أجب عن أي سؤال بعدما هدّني السهر والتعب وبدأت أشعر بأن لا علاقة لي بما يدور من حولي.. بدا لي كحلم يحلمه غيري ولا أعرف ما الذي أقحمني فيه.. كان وعيي يتدهور باضطراد، فبذلت جهدا للتشبث بأواخره، وأنا في تلك الحالة قفز وجه أم الأنصار من مكان ما في ذاكرتي فتركتهم فاغري الأفواه وخرجت..

رحت أدور في المقر بحثا عنها باصرار طفل حانق يريد أن يشكو لأمه الحيف الذي تعرض له.. ساعدني الإصرار على مقاومة الإنهيار الذي كنت مهددا به في أية لحظة حتى وجدتها.. شـــهقت حـــين رأتـــني وصاحت:

- يوسف، ما الذي حلّ بك؟!

لم أجبها بشيء، بل أمسكت بيدها وقـــدتها باتجـــاه كهفهـــا القريب.. لم تعترض بل سارت معي صامتة بعد أن شعرت بأني بائح لها بكل شيء كما يبدو.

عندما أصبحنا لوحدنا في ذلك الكهف الذي مـــنحني شـــعورا غامضا بدفء كنت أشعر به في بيت أهلي، فسكنت نفسي قلـــيلا.. لم آبه لدعواتها لي لتناول طعام أو شراب، بل رحت أهذر فورا وأنـــا أحاول بالمتبقي لي من وعيي أن أشرح لها ما عانيته طوال الأســـابيع الثلاثة الماضية.. لا أعرف متى بدأت البكاء، ولكني بكيت، وبكيت، حتى أبكيتها معي.. احتضنتني، وابتسمت لي من خـــلال دموعهـــا وقالت:

- وماذا الذي ستفعله الآن أيها المسكين؟

لم أجبها لأني لم أكن أعرف ما الذي ســـأفعله.. في الحقيقـــة، كنت على يقين من أني سأتصرف بطريقة ما، ولكني لم أكن أعرف كيف في حينها.. كنت مستمرا في لغوي، ولكنها اســـكتتني أخـــيرا قائلة:

- كفى الأن.. لدينا متسع من الوقت لنشبع الأمر نقاشـــا.. أما الآن فعليك أن تصيب شيئا من طعام.. وأن تنام.

رفضت فكرة أن أتناول أي شيء، بل قلت لها كلمة واحدة:

- نعسان.

فمدت لي "فراش الضيوف" كما يسميان الفراش الزائد الوحيد الذي يملكانه ودثرتني بغطاء وسرعان ما نمت.. ولكني لم استعد وعيي إلا بعد أيام.

لم أعرف يوما من أين تسللت تلك الحمّى الحقيرة إلى جسدي، ولكنها أفلحت في التعبير عن كامل ساديتها نهشا في صحتي وتشتيتا في وعيي الذي لم تبق منه غير نتف خاطفة طوال أيام، كلما انتابتني واحدة منها، وفتحت عيني، أفاجأ بأم الأنصار جالسة بالقرب من رأسي واضعة كمامة رطبة على جبهتي، أو تتطلع في وجهي دامعة العينين.. يا لله لكم أحب هذه المرأة العظيمة!.. ولكم أنا مشتاق لرؤيتها.. كان قراري حين عدت أخيرا إلى بغداد، أن أبحث عنها حال عثوري على زها رغم أني في الحقيقة لا أعرف من أين أبدأ ذلك.. كنت على يقين من أني سألتقي بها ذات يوم، وعندها كنت لأقبل يديها وأكرمها كما يجدر بابن محب أن يفعل لأمه، ولكني لست متأكدا من شيء الآن.. المهم، كنت أفتح عيني للحظات ثم أغيب في اللجة التي خرجت منها لتوي.. لا أكاد أميز بين واقع وأحلام.. تختلط همساتهما بالصور التي تترى على شاشة لا وعيي، وتقاطعهما زها وهي تضحك لي مرة، وتستصرخني جزعة مرات.. رأيت أمي.. رأيت أبي.. عدت إلى رفقة أصحاب وصحبت أشخاصا لم أستطع أن أتعرف عليهم.. أشعر برجفة صوت أم الأنصار خشية عليَّ، أحاول أن أطمئنها ولكن صوتي لا يعينني، ويخذلني وعيي فأغيب مرة أخرى.

استعدت عافيتي بعد أيام طوال، ولكن أم الأنصار منعتني من الخروج من الكهف حتى تجدّدُ فترة نقاهة تحت إشرافها، صحتي، وتؤهل عنايتها، جسدي الذي أصابه الهزال، ثانية لحياة الجبال

الصعبة.. وعندما سمحت لي أخيرا وخرجت، لم ير الرفاق من النصير يوسف القديم غير شبح يكاد لا يمتّ إليه بصلة.

أنا لا أعرف لِمَ نسمح لهواجسنا أن تزري بنا أحيانا.. لا، أنا لا أقول أن أمر العثور على زها ليس مهما، ولكن كان بإمكاني أن أحقق شيئا من دون أن أريق ماء وجهي، ولكني أرقته في تلك الأيام! فقد اختفى المقاتل النشيط والرفيق المندفع الذي كنته، وحلّ محله متخاذل شكّاء بكّاء لا همّ له إلا التوسل بأي شخص قد يعينه على ما يريد، فقضيت الأسابيع التالية وأنا أحاول الحصول على مهمة حزبية أخرى تتيح لي الرجوع إلى بغداد رغم أني أدركت استحالة إسناد مثل هذه المهمة إلي مرة ثانية، منذ البدء، بعد أن تأخرت بالعودة في المرة الأولى.. في تلك الأيام شعرت بمشاعر الجنود الحقيقية وهم يعانون من سجنهم في الجبهات، فأشفقت عليهم.. نعم اشفقت على أعدائي.. آسف لقول ذلك، ولكننا كنا في حالة حرب معهم.. كان الحزب يعاملنا كجنود، صحيح أننا إلتحقنا بحركة الأنصار طوعا، ولكنه إعتبرنا جنودا حال إستلامنا لأسلحتنا وتجهيزاتنا.. كانت قوانين تحكم العلاقات هناك.. بل كانت هناك محكمة، وأحكام تصدر عنها بحق المذنبين والمتخاذلين قد تصل إلى حد الإعدام أحيانا.. أنا لم أترك كل شيء وأعود إلى بغداد لا لأني لم أفكر بذلك، بل لطالما فكرت به وأنا على تلك الحال، ولكن خوفي من السلطة إذا ما افتقدت عون الحزب، منعني.. صدقني أن العيش في تلك المرتفعات الجرداء أهون بكثير من الوقوع في براثن تلك السلطة الغاشمة.. المهم، بقيت أتوسل وأتوسل، ولكن من دون فائدة حتى يئست، وعندما يئست، حدث ما ظننته في حينها، ابتسامة الحظ السعيد الذي ناكدني طويلا قبلها.

ذات يوم، كنت أضرب على غير هدى بين غرف المقر ومكاتبه وأنا أمضغ أحزاني، وأجترّها إحباطا وأنينا داخليا مقرفا، فإذا بـــي أجد نفسي وجها لوجه مع الرفيق (جبار) الذي لم أحبه منذ النظـــرة الأولى عندما اِلتقينا قبل أشهر، فقد بدا لي من النوع المغرور.. كـــان يتفاخر دوما ويحرص على إعطاء نفســـه أهميـــة لم أر يومـــا أنـــه يستحقها.. ولا أتصور أبدا أنه قد أحبني، فلطالما شعرت أنه يتجاهلني عندما نلتقي.. أنا لو كنت قد انتبهت له في ذلك اليوم لحدث عـــن دربه، ولكني فوجئت به أمامي فلم أستطع تجنبه.. عندما رآني، إبتسم لي بطريقة لم أتوقعها منه، فألقيت عليه التحية ووجهي يكاد ينطـــق بالعجب الذي تملكني.. قال لي بعد رد التحية:

- أهلا رفيق يوسف.. كيف أنت؟

فأجبته.. كاذبا بالطبع:

- الحمد لله بخير.

فأردف هو قائلا:

- لم لا تزورنا يا رجل لنقوم لك بواجب الضيافة.

لم أعرف بم أجيبه فاكتفيت بابتسامة مرتبكـــة ولكنـــه أردف قائلا:

- قد لا تعرف ولكننا نعزّك كثيرا، فتعال.

ثم صمت قليلا ليكمل:

- ونحن حاضرون لأية إحتياجات

كنت أبحث في دماغي عما يمكـــن أن يقـــال في مثـــل هـــذه المناسبات ولكن خجلي والشعور بالمفاجأة لم يسعفاني، فصـــافحت يده التي إمتدت إليه وابتعدت من دون أن أنبس ببنت شفة.. كـــان الذي استقر في ذاكرتي لأول وهلة من كلماته، الحديث عن نفســـه

بصيغة الجمع.. من يتصور نفسه.. لينين؟.. فرحت أنفس قليلا عن نفسي بتوجيه الشتائم إليه، ولكن الحدث ظل مسيطرا على ذاكرتي طوال ذلك اليوم حتى انتبهت في الليل أنه كان قد عرض عليَّ خدماته، وعندها فقط بدأت افكر بعرضه بشكل جدي.. فقد كان من الكادر المتقدم للحزب في إحدى المدن الشمالية، إلتحق بالحركة قبلي، وعندما وصلت، ألفيته ذا شأن كبير في قيادة الأنصار.. شعرت وكأن الفرصة قد واتتني أخيرا لأنفذ مخططي، ولكني سرعان ما شككت بمدى جديته في عرضه لأني لم أكن اثق به، ولم آخذ مشاعره الفياضة تجاهي على محمل الجد.. قضيت تلك الليلة وبداية النهار الذي تلاها وأنا متردد ما بين التصديق والإنكار، حتى وجدت نفسي جالسا في مكتبه عند الظهيرة.. كان ترحيبه بي عندما دخلت عليه مثار المزيد من التعجب والاستغراب من قبلي.. ما لهذا الرجل، يبدو وكأنه يراني لأول مرة.. ما له كان يتجاهلني عندما كنت مثار إعجاب الجميع وها هو يعاملني بكل إحترام بعدما أصبحت شبه منبوذ في مقر الحزب الذي رفضت أن أغادره لتأدية أي واجب قبل أن أحقق منيتي بالذهاب للبحث عن زها.. شجعني ترحيبه، على أن أطلب منه تسهيل أمر ذهابي إلى بغداد، فلم يقل بعدما سمعني إلا:

- غالي والطلب رخيص.

غادرته وكلي رجاء أن استطيع تكملة مهمة البحث، ولكن الليل سرعان ما بددّ يقيني، وحوّل أملي خشية من أن لا يتحقق ما أريد، فقضيت ليلتي مسهدا أنتظر الصباح عسى أن يقطع شكي باليقين ولكنه أتى بساعات بطيئة تكاد لا تنقضي، ولم يأتني خبر ولا جرؤت على الذهاب للاستفسار حتى حلّ الليل التالي فبتّ بأسوأ

حال، ولم تنفع محاولات صديقيّ أبـــي الأنصار وأمهم في التخفيف عني.. لم أعرف إن استطعت أن أنال شيئا من نوم في تلـــك الليلـــة وحلّ فجر اليوم التالي وأنا مستيقظ ولكني لم أغادر الفـــراش لأني لم أجد في نفسي الرغبة في القيام بأي شيء.. كنت مستسلما للفـــراغ الهائل الذي استوطن أعماقي وأنا أشاغل النفس بلعن جبار وأمثالـــه ممن تعودوا إعطاء الوعود ليخلفوها.. شعرت بخجل لأني طلبت منـــه أساسا تلك الخدمة، ولكن ما حدث قد حدث ولم يعـــد بإمكـــاني تصحيح الوضع.. بقيت على حالتي تلك حتى الضحى عندما سمعت لغطا خارج الغرفة التي كنت أنام فيها.. تصورت أني قد سمعت اسمي يذكر فهببت واقفا وأسرعت باتجاه الباب لأفتحها وأجد نفسي أمام نصير لم أكن أعرفه جيدا.. قال لي حين رآني بنبرة متسائلة:

- الرفيق يوسف؟

أومأت برأسي إيجابا وأنا مشغول بمحاولة فك رمـــوز ملامحـــه عسى أن استطيع إقتناص بشارة.. قال لي بهدوء:

- الرفيق جبار يريدك.

شعرت أن قلبـــي ينـــزلق إلى جوفي وقد تســـارعت نبضـــاته ولكن عقلي إحتاج إلى أجزاء أخرى من الثانية قبل أن يدرك مدلول الكلمات التي سمعتها.. قلت بصوت متحشرج:

- حالا

ثم أسرعت لأبحث عن حذائي لأنتعله وأنطلق من دون غســـل لوجهي ولا حتى تمشيط لشعري.. استقبلني الرفيق جبار بحفاوة وأنـــا على حالي ذاك وقال لي على الفور:

- هيّا رفيق يوسف هيء نفسك لتذهب في مهمة حزبية إلى بغداد.

مرة أخرى في ذلك الصباح إحتاج عقلي لجزء زائد من الثانية ليفقه ما أسمع.. ما أن استوعبت، حتى إختلط الفرح بالاحساس بالخجل، والندم لأني شككت بهذا الرجل النبيل.. كان هو يراقبني خلال ذلك، ويبدو أنه لاحظ لمعان الدموع في عينيّ فقال:

- الأمر بسيط يا يوسف.

سكت وبدا وكأنه يستطلع تأثيرات كلماته عليّ قبل أن يضيف:

- يسرّني دائما أن أقدم لك ما أستطيع.

شكرته بحرارة وأنا أشعر في أعماقي أني لن أستطيع أن أفيه حقه، ثم اتفقنا على بعض التفاصيل السريعة، حيث أخبرني أني سأغادر في فجر اليوم التالي، وعندما أخبرته أني أعرف الطريق قال أني سأسلك مسلكا آخرَ اختاره لي لأن الأول أصبح غير أمن بسبب عملاء النظام وطمأنني إلى أنه قد هيأ لي دليلا يوصلني إلى مشارف الطريق العام قبل أن يتركني لوحدي.. أعطاني هوية مزورة لطالب جامعي تحمل صورتي واسم آخر، وورقة كتب عليها اسم وحدة عسكرية تابعة للجيش العراقي وطلب مني أن أدّعي إذا ما اعترض دربي جنود عراقيون، بأن أخاً لي يخدم فيها وقد أتيت للاطمئنان عليه بعد أن عرفت أنها تعمل في هذا القاطع.. ثم ختم حديثه بالقول:

- لا تخشى شيئا، فحتى إن لم يصدقوك قل لهم أن جباراً يبعث إليهم تحياته وعندها سيسهلون عليك أمرك.. بل لعلهم سيوصلونك بأنفسهم إلى أقرب مرآب للسيارات.

ثم أتبع قوله بضحكة رقيقة وهو يقول:

- هم جميعا (في جيبي).

فارقت فراشي وجحافل الظلام لم تزل تفرض سطوتها على أركان السماء بعد أن فشلت محاولاتي كلها في تطويع شيطان الكرى.. لم أفكر بشاي أو فطور، بل كانت لفافة التبغ هي أول من لامس شفتيّ.. كنت متوترا و لم يكن مقدرا للإطمئنان أن يجد سبيله إلى نفسي إلا بعد أن استقل السيارة المتوجهة إلى بغداد.. أتاني الدليل بعد دقائق بدت طويلة جدا، فباشرنا المسير.. لاحظت في هذه المرة أن بقايا بدر ذلك الشهر كانت ما تزال تجود بنورها على الدروب الجبلية التي يجب أن نسلكها، فتذكرت قول رفيق لي أن لكل دليل أسلوبه الخاص في تنفيذ الواجبات المنوطة به، وللصراحة فقد راق لي أسلوب هذا الجديد لأني لم أتعود أبدا على السير في الظلام كما يفعل هؤلاء الأدلاء ولا غرابة، فقد كانوا أبناء الجبل.. ما أن ابتعدنا عن المقر، حتى شعرت بارتياح وسرور جعلاني أهذر بصورة متواصلة مخاطبا الدليل بصوت منخفض.. لم أكترث إلى حقيقة أنه لم يكن يفقه مما كنت أقوله شيئا، فقد كان كرديا.. تكلمت معه وتكلمت وأنا أضحك لنكاتي التي أطلقها، وأوافق بنفسي على آرائي التي أطرحها طوال الطريق الذي استمر لساعات حتى لاح أمامنا الطريق العام وهو يلتمع أمامنا كالثعبان الأسود تحت ضوء الشمس التي كانت قد أشرقت قبل ساعة أو أكثر.. بدأنا بعد قليل بالنزول باتجاه الطريق، ولكن الدليل توقف في منتصف السفح وأفهمني بالاشارة إلى أنه قد وصل إلى نهاية رحلته، وأن عليّ تكملة الطريق وحدي.. صافحني وعاد أدراجه في الطريق الصاعد، فيما انحدرت أنا مع النازل الذي خطّته الأقدام البشرية منذ ما لا أعرف عدده من السنوات.. إذ وجدت نفسي وحيدا، فارقني الشعور بالارتياح الذي انتابني طوال الساعات التي مضت.

في أسفل الجبل، قدّرت أن طول المسافة المتبقية إلى الطريق العام ما بين ثمانمائة وتسعمائة متراً، فصعبت عليَّ فكرة إجتيازها بعدما زلزل القلق طمأنينتي ونخرت الخشية في ثقتي.. هاهو بر الأمان أمامي ولا بد من إجتياز هذا القفر الخالي من أية حركة، حاولت أن أخدع الارتياح لعله ينجدني وكدت أنجح لولا أني انتبهت إلى خلو الطريق من السيارات، فمن دونها لن يكون لي أي أمل في بلوغ بغداد.. سرت وأنا موزع بين خشياتي وآمالي حتى رأيت بعد نحو ستمائة مترا، أو يزيد، سيارة تسعى على الطريق، فرفعت يدي ملوحا للسائق رغم تأكدي من أنه لن ينتظر راكبا على البعد الذي كنت فيه.. تحسنت معنوياتي كثيرا بعد رؤيتي السيارة التي تابعتها بنظري حتى ابتلعها أفق الطريق.. بدأت أعدّ المتبقي من الأمتار.. خمسمائة.. أربعمائة.. ثلاثمائة.. مائتان.. مائة.. تسعون.. ثمانون.. سبعون.. كان الأمل يزداد مع كل خطوة أتقدمها رغم خلو الطريق من أي أثر لسيارة أخرى.. ستون.. خمسون.. أربعون.. وفجأة.. إخترق سمعي صوت بشري يأمرني بالتوقف.. غاص قلبي وغار التفاؤل الوليد.. إلتفتّ مذعورا فرأيت ثلاثة رجال وقد برزوا لي من حيث لا أعرف.. كانوا عسكريين مسلحين يحمل كل منهم بندقية سرعان ما أحاطوا بي وأنا بالكاد أسيطر على ساقي المرتجفتين وقلبي يتقافز هلعا في أحشائي.. سألني أحدهم عن سبب وجودي هناك في ذلك الوقت، فقلت له بصوت يتحشرج أني أتيت بحثا عن شقيقي الذي لم نره منذ أكثر من شهر، سألني عن اسم وحدته فأخبرته إياه كما لقنني الرفيق جبار الذي كان يعرف أسماء جميع وحدات الجيش العراقي العاملة في القاطع.. طلب مني هويتي فأعطيته الهوية التي زودوني بها، فقال ما أن رآها أنها مزورة.. مادت بي الأرض وكدت أسقط من

الرعب على ركبتي.. تشبثت بوصية الرفيق جبار الأخيرة، فقلت بصوت مرتجف:

- يسلم عليكم جبار.

فضحك العسكري الواقف أمامي وقال بصوت حرص على أن تبدو السخرية فيه:

- أهلا، أهلا بالرفيق جبار.

إنتبهت إلى أنه أضاف لقب الرفيق إلى الاسم ولكنه لم يعطني المجال لأن أمعن التفكير في الأمر، عسى أن أتبين خيره من شره، لأنه رفع يده في الهواء وبدا مستعدا لصفعي.. وقفت مستسلما وقد تشنّج جسدي استعدادا لتلقي الصفعة، فلم أنتبه إلى أخمص بندقية أحد العسكريين الآخرين المتوجه نحو وجهي.. شعرت وكأن دماغي قد إرتجّ فجأة، وتهاويت على الأرض.

صوت

(يسار محمد محمود) أيعقل أن يكون هـو.. ولكـن، الاسـم نفسه، والعمر، يمكن أن يكون مقاربا.. ولكن هذا مواطن سويدي، فكيف.. يا للسخرية!.. أو لست أنا مواطنة هولندية، فما الغريب في أن يكون هو كذلك.. يا الله، كم مضى على تلك الأيام.. خمسة وعشرون عاما.. بل أكثر من ذلك.. يا لها من أيام!.. فرغم الرعب الذي عانينا منه، كانت لنا أياما جميلة أيضا.. لم أزل أتـذكر بكـل وضوح أيام كنت طالبة بكلية القانون والسياسة، وكلفت حزبيـا، بإعادة الإتصال بالرفيق (يسار محمد محمود) الطالب في كلية الادارة والاقتصاد بالجامعة المستنصرية.. أواه لكم كرهت المهمـة في تلـك الأيام الصعبة، كانت خطيرة جدا ونحن نتحرك تحت أعين السـلطة القاسية.. ولكنه أمر حزبـي لا يناقش.. ومع ذلك، عندما رأيتـه، شعرت بالإثارة، فقد كانت مصادفة لطيفة أن أعيد الاتصـال بمثـل ذلك الشاب الشهي.. جميل الوجه.. قامة رياضية ممشوقة.. حسـنا، هو لم يكن طويلا كما أحب، ولكن وجهه كان ساحرا.. تعـودت عليه بمرور الوقت، ولكم عانيت من مشاعري تجاهه عنـدما كنـا نلتقي بشكل شخصي، على أساس أني مسؤولته المباشـرة، نلتقـي سريعا ونفترق سريعا لكي لا نثير الشكوك.. كان كل شـيء فيـه جميلا، ولكني لم أكن لأجرؤ على تحويل العلاقة الحزبيـة إلى شـيء آخر.. أنا لم أزل أذكر ضحكته الطفولية الرائعة، آه، كنت أرتجـف

شبقا عندما أسمعها، ولكن لم يبد عليه أنه قد انتبه يوما لما يعتمـــل في دواخلي.

عندما كلفت بالاتصال برفيق آخر وتـــرك مســـؤولية يســـار لغيري، إعترضت، وكانت تلك أول مرة لي أعترض فيها على أمـــر حزبـــي، ولكن يبدو أني كنت عاشقة ولم أحتمل فكـــرة الإبتعـــاد عنه، ولكنهم أجبروني في النهاية، فأقنعت نفسي بأن هذا يمكـــن أن يكون خيرا لي، فإذا ما كان أمرا غير لائق إذا ما اقمت علاقة مع من هو بمسؤوليتي، فلعلي أستطيع أن أفعل ذلك عنـــدما أتخلـــى عـــن مسؤوليته الحزبية.. وهكذا بقيت احوم بين الحين والآخر في المنطقـــة التي يقع فيها قسمه الداخلي، وبعد ذلك، البيـــت الـــذي ســـكنه لوحده.. لم أكن أستطيع أن أذهب إليه مباشرة لأن هذا كان يتنـــافى مع تعاليم الحزب التي حرمت علينا اللقاءات الطويلة بسبب الخـــوف من البعثيين، ولذلك حاولت جاهدة أن أجعل اللقاء يبـــدو وكأنـــه حدث مصادفة، وهذا ما تحقق بالفعل في النهاية.. يا لوجهه لكم بدا جميلا عندما بدت عليه الفرحة بلقائي.. ألقيت عليه التحيـــة وأنـــا بالكاد أكبح رغبتي بتقبيله.. تساءلت عمّا يفعله هنـــاك وكـــأني لا أعرف شيئا عنه.. كان مسرورا جدا بهذا اللقاء وهو يقـــف ببـــاب البيت، شرح لي ظروف إنتقاله إلى هناك، ولكني لم أسمع شيئا، فقـــد كنت مشغولة البال بالإحتمالات المغرية لأن نلتقي لوحدنا في بيـــت فارغ.. ظهر عليه الارتباك عندما طالت وقفتنا بالبـــاب.. نظـــر إلى حديقة المنـــزل الصغيرة، ثم نظر إلي.. دعاني إلى الدخول إن كنـــت أمتلك وقتا.. لبّيت الدعوة على الفور وأنا أشعر بنفسي مبللة بشكل غير معقول.. ما أن تحركت، حتى ركض هو ليدخل البيت ويخـــرج بعد قليل وهو يحمل كرسيين وضعهما في الحديقة وهو يقول:

- سنجلس هنا لأني أعيش وحيدا في هذا البيت.

ثم أضاف بعد قليل وهو يضحك ضحكة حرج:

- ولا أريد أن تذكري بسوء، رفيقتي.

يا للشيطان!.. لأذكر بسوء، فما دخلك أنت.. كنت أريده بشدة في تلك اللحظات، ولكن لم يبد عليه أنه سيبادر، فجلست مخذولة، وراح هو في نوبة من هذر طالت كل المواضيع، من أخبار الحزب والحزبيين، مرورا بقسوة الحكومة ومكائد البعثيين، وانتهاء بأخبار الحرب الدائرة وأعداد القتلى التي تزداد كل يوم، ولم يبد عليه أنه قد شعر بأن التي تجلس معه فتاة، وهما في خلوة.. فقدت الرغبة، فانحسرت موجة البلل.. بعد قليل، إعتذرت متحججة بأوامر الحزب إياها، ثم غادرت البيت وكانت تلك آخر مرة أراه فيها.

ترى، ماهذه القضية.. لنر.. (مواطن سويدي من أصل عراقي، يضرب مواطناً عراقياً لسبب ما).. وهذا في السجن وذلك في المستشفى، لا هذا يريد أن يعتذر، ولا ذاك يريد أن يتنازل، ولكن لماذا.. آه، بسبب عراك أطفال.. معقول؟.. ولكن، ما دخل يسار هذا بهؤلاء الأطفال.. من يدري، لعل أحدهما من أقربائه.. ولكن، لم لا يعتذر فيتنازل الآخر وتنتهي المشكلة.. عجيب!

المهم، ما هو المطلوب مني الآن.. إذاً وحسب هذا الكتاب المرفوع من قبل وزارة الداخلية، بناء على طلب ضابط الشرطة، قائد المركز المحتجز به يسار هذا، ان تطلق وزارتنا، وزارة العدل، سراحه على أساس أنه مواطن سويدي وبالاتفاق مع وزارة الخارجية.. ولكن كيف.. هذا لا يجوز.. بل يجوز والله.. كل شيء يجوز في هذا الزمن، وأنا كمدير عام في هذه الوزارة أستطيع أن أفعل هذا، وأكثر.. ولكن، لِمَ؟.. كيف لم يا هناء؟!.. هذا يسار.. يسار، رفيقك القديم،

ومعشوقك.. ولكن، من يقول أنه هو، وحتى إذا ما كان هو، أيستحق أن أخاطر بهذا المركز الذي تركت عائلتي، في هولندا، من أجله.. ما قد أفعله إذا ما أخذت القضية منحى آخر بعد إطلاق سراحه.. ما الذي أعرفه عن علاقات الطرف الآخر.. أوه، مالي وهذه المخاطرة، لألتزم فقط بالطريق السليم.. أكتبي، (يرجى الالتزام بالقوانين المرعية.. هناء راشد حسين).. والآن وقعي تحت اسمك، لننتهي من هذا.

الليلة التاسعة

بقيت ممددا على الأرض، مغمض العينين، فيما راحوا يقيمــون حفلهم الوحشي على مسرح جسدي.. كنت أعرف أني لن أستطيع تفادي ضرباهم، فحفظت رأسي بيدي اللتين أحاطتا به وتركتُ لهم بقية جسدي يمارسون ساديتهم عليه.. كنت أتساءل طوال الوقــت، لِمَ يفعلون ذلك وهم لا يعرفونني ولكني لم انبس ببنت شــفة، بــل اكتفيت بصرخات ألمي تعبيرا عن الاحتجاج.. كانــت أحذيتــهم تنتهك حرمة جسدي من كل الاتجاهات فَعَدَلوا في توزيع ضــرباهم على أجزائه.. لم أعرف كم استغرق تكريمهم البربري مــن وقــت ولكنهم تعبوا كما يبدو بعد وقت تصورته دهرا فانتقلوا إلى المؤثرات الصوتية، ليسمعوني أقذع ما قد تتصوره من سباب وهم يكررون بين الحين والآخر، اِعترف.. اِعترف، ولكني لم أعترف لأني شعرت بأني أدافع عن حياتي بعدم الاعتراف، فأصررت علــى قصــتي الأولى.. عندما يأسوا مني، أجلسوني على الأرض ثم أوثقوا يدي مــن دبــر وعصبوا عينيّ، فبقيت حيث أنا وقد تحفّزت حاسة السمع عنــدي.. فكرت في حراجة موقفي.. بل خطورته، فحاولــت أن اســتعطفهم ولكن الضربات الجديدة والاهانات الإضافية علمتني فورا أن لا فائدة من الكلام معهم، فآثرت أن ابقى صامتا ما دمــت غــير مطالــب بكلام.. بعد مرور وقت، سمعت صوت سيارة تقترب لتقف بالقرب منا، فأصعدوني إليها مكرما بكلمات نابيات، وضربة من هنا ووخزة

من هناك.. وفي السيارة أجبروني على أن أميل إلى الأمام ووجهي إلى الأسفل رغم عدم امكاني أن أرى شيئا أساساً.. ومع حركة السيارة بدأت آلامي الحقيقية تعذبني، بعد أن سمح لها دماغي بأن ترسل لــه الإشارات المتفق عليها في حالات الإصابة.. لا أعــرف إن كانــت أسناني قد تكسرت ولكني لم أكن استطيع أن أصرّ عليها كلما تلقى دماغي المسكين إشارة من ذراع مصاب أو ساق متضررة أو خصـــية مسحوقة، لأن إشاراتها كانت الأشد إيلاما، ولكي تزداد حالتي سوءا بدأت شفتي المجروحة تنبض ألما وأنا محني الرأس طوال الوقت.. كانت وضعية جلوسي عذابا هائلا، ولكني لم أجرؤ على تغييرهــا خشــية المزيد من الضرب والاهانات رغم أن ذلك لم يفدني كثيرا في الوقت المتبقي حتى أوصلوني إلى المديرية كما فهمت من حوارهم.

في المديرية، مديرية ماذا؟، لم أعرف، أدخلوني معصوب العين، موثق اليدين، على من بدا وكأنه ضابط.. أو محقق، أو كلاهمـــا.. لا فرق.. قال لي صوت وأنا أتخبط في أعماق ظلمتي:

- هيّا اِعترف

قلت:

- بم أعترف؟!

كادت صفعة مفاجئة أن تطير صوابـــــي، فـــامتلأت عـــيني بالدمع.. كرر الصوت القول:

- اِعترف

قلت:

- ذهبت للبحث عن أخي فألقوا القبض عليَّ.

فأكرمت بصفعة أخرى.. يا سيدي أنا لست مـــن هـــواة الشجار في الشوارع، ولم أضطر لها كثيرا في حياتي، ولكني كنت

أؤمن أن طريقة ضرب خصمك لك تدلل على مـــدى احترامـــه لك، فإن وجه إليك لكمة فإن هذا يدل على أنه يحترمك ويحسب لك حسابا رغم أن اللكمة نفسها أقوى الضربات وأشدها إيقاعا للضرر.. أما إذا صفعك على وجهك فإن هذا يدل على أنه يقف منك موقفا متعاليا ولا يريد أن يعاملك معاملة الند.. أما قمـــة الإهانات فهي الصفعة في القفـــا لأنهـــا تـــدل علـــى إحتقـــار تام..شعرت بغضب يجتاحني، ولكني لم أستسلم إليه.. فقط قلت وأنا أغالبه:

- أنتم تسألوني.. أفلا أجيب

فقال الصوت:

- قلت لك اعترف.. لا أن تكذب يا بن العاهرة.

قلت مترددا:

- هذه هي الحقيقة.

ثم تشنج جسدي انتظارا للصفعة الجديدة التي لم تأت بل سمعت الصوت يقول:

- لن يفيدك النكران.. نحن نعرف من أنت ونعـــرف مـــن أرسلك.. هيّا قل الحقيقة.

شعرت عندها بحيرة فلم أعلق بشيء هذه المرة وســـرعان مـــا هوت الصفعة المنتظرة على قفاي، فقلت مستعينا ببقايا الغضب الذي أثارته الصفعة السابقة في داخلي:

- ولكني لا أعرف ما أُقول

فأتت صفعة أخرى من حيـــث لا أدري جعلـــت غضبـــي يتلاشى على الفور ليحل محله شعور عارم بدنو المـــوت وأنـــا أرى نفسي تحت رحمة أوغاد لا تعرف الرحمة سبيلا الى قلوبهم.. ســـالت

دموعي مدرارا من دون خجل مع اجهاشي بالبكاء، فلـــم أنتبـــه في البداية لوقع أقدام وصوت جديد يقول:

- سيدي، سيدي.. لقد أرسلنا الموقف فأتت أوامـــر عـــن طريق الهاتف.. يريدون المجرم في بغداد فوراً.

فقال الصوت الآمر:

- اليوم

فرد الصوت الذي دخل:

- نعم سيدي، اليوم.. بل الآن.

فقال صوت ثالث أتاني من خلفي:

- ولكننا لم نتمتع بعد.. دعونا نلهو قليلا

ثم التهب قفاي إثر صفعة إضافية.. قال الصوت الآمر:

- كفى.. خذو ابن اللعينة هذا من هنا.. دعهم يأخذونه الى بغداد فورا ليعترف هناك حتى بما لم يفعله.

فعاجلني أحدهم بصفعة أخرى وسمعت صوتا يقول:

- لقد أنقذوك مني.. يا لك من محظوظ يا ربيب (الكَلّجِيّة)!

أعادوا وثاق يدي من دبر وسحبوني كالبهيمة ليجلســـوني في مكان ما، وبعد ما لا أستطيع تقديره من وقت رجعوا لي لينهضـــوني من مكاني بكل خشونة ويسيرون بـــي مسافة قبل أن يضـــعوني في سيارة انطلقت بنا إلى حيث ارتأى قدري أن تكتمل مأساتي.

عندما بدأت الأصوات الجديدة تمارس هوايتها المعتادة في توجيه الاهانات المصحوبة بالضربات التي لا أستطيع إتقاءها حتما، ونحن في السيارة، كنت قد فهمت بالمتبقي من وعيي، لعبتهم.. هم يفعلـــون ذلك ليشعروا بقوة لا يمتلكوها في الحقيقة.. خمنت أنهم مســـحوقين بحقيقتهم وأن أقصى لذتهم هو أن يجعلوني أتأوه أو اصـــرخ ألمـــا أو

أتوسل، ولذلك قررت أن لا أجعلهم ينالون مبتغاهم لعلهم يكفون.. فتحملت ساديتهم بصمت مطبق، ويبدو أنها استطاعت أن تفعل فعلها بمعونة طول الطريق إذ سمعت بعد ضربة مفاجئة تلقيتها، صوتا أجشا يقول:

- ما لك وله.. دعه وشأنه.

فكان هذا نصري الأول الذي أحققه عليهم كما توهمت.. حسب مفهومي الآني للنصر طبعا.. فقد تركوني وشأني طوال المتبقي من ذلك الطريق الذي بدا وكأنه سيستمر إلى الأبد، ولم يخاطبني منهم إلا صاحب الصوت الأجش حين توقفت السيارة في مكان ما ليتناولوا شيئا من طعام كما يبدو.. فك وثاقي وأبقى على عصابة عيني ووضع شيئا لينا في يدي وقال لي:

- كُلْ.

حين ضغطت بأسناني على ذلك الشيء، صرخت من شدة الألم الذي شعرت به، فأضيف هما آخر على عقلي المشوش الذي بدا عاجزا عن معرفة مصادر الإشارات المنهالة عليه من أنحاء جسدي.. أدركت عندها أني عاجز عن الأكل بسبب ما أصاب أسناني من ضربة عقب البندقية التي كانت بمثابة الإعلان الرسمي عن بدء الحفل السادي المقام على شرفي طوال ساعات ذلك اليوم.

لم يأبهوا لي طوال المتبقي من الطريق الطويل جدا، فتهيأ لي أن أستعيد الأحداث التي مرت بي منذ الصباح الباكر وأن أبدأ بإدراك مايعنيه ذلك بالضبط بالنسبة لي.. كنت قد سمعت من رفاق لي بما واجهوه على أيدي الجلادين في تلك الدهاليز المرعبة التي وجدوا أنفسهم فيها بعد القاء القبض عليهم، ولم يخطر لي ببال أبدا أني سأواجه غيره.. طبعا أنا لا استطيع أن أتذكر تفاصيل تداعيات

أفكاري في ذلك اليوم الرهيب، ولكني عرفت بوضوح كامل أن أمراً ما سأواجهه منوط بي، فإما الصمود وما يعنيه ذلك من تعذيب لا رحمة فيه، أو رضوخ وإقرار ومن ثم إعطاء أولئك المجرمين ما يبتغونه وما يعنيه ذلك من ذل وسقوط.. كانوا قد عرّفوني بالفعل على معظم ما عندهم كما ظننت، وهو لم يذقني طعم الردى كما كان واضحا في حينها، فما قد يفعلوه بي بعد، ولذلك لم يكن اتخاذ قرار بشأن موقفي، صعبا، فأنا كنت شيوعيا بالمولد ورضعت تلك المباديء العظيمة مع الحليب من ثدي أمي، فكيف يمكن أن أتخاذل.. وما هي إلا إستعانة بشبح زها الذي زارني في ذلك الموقف العصيب حتى كان قراري النهائي، الصمود، إذ لم يهن عليَّ أن أدعها تحب متخاذلاً جباناً.. صحيح أني فكرت بأنها تحتاجني حيا أكثر مني شهيدا، ولكني انتهيت من تلك المشاعر المتناقضة التي انتابتني طوال الوقت إلى أني يجب أن أصمد.. أنا أتحدث الآن بكلمات صماء جوفاء عن مشاعر إنسانية حقيقية لمقبل على الموت ومستحيل عليَّ أن استطيع أن أقربها لذهنك أكثر.. لن استطيع أن أذكر لك عدد المرات التي شعرت فيها بميل إلى التخاذل، ولا عدد المرات التي أبت فيها عزة نفسي عليّ أن أسيء للمقاتل النصير يوسف بأن أجعله يتخاذل، ولكن المهم في النهاية هو أني وصلت إلى بغداد كما هو المفروض، وكلّي إصرار أن اصمد حتى النهاية.

هل نمت في أثناء الطريق، لا استطيع التأكيد أو النفي فقد اختلطت عليَّ الأمور قبل أن نصل إلى درجة أنني عانيت من حالة هي أقرب إلى الهلوسة منها إلى التعامل مع واقع معاش.. حين توقفت السيارة أخيرا، سحبوني بطريقتهم الفجة وسمعت أحدهم يقول:

– هيّا ألقِ به وتعال لنذهب فنصيب قسطا من الراحة وننام مثل البشر.

سحبني المكلف بايصالي كالخروف وهو يسأل ويتحدث مع أشخاص عديدين حتى أوقفني في مكان ما.. سمعت صوت مفتاح يدور في باب.. دفعني أحدهم ثم أمسكني من الخلف واضعا يديه على كتفي بكل خشونة وهو يقول:

– إن أدرت رأسك فسأنـ... أمك.

فك عصابة عيني فاهال نورا أصفر بدا للوهلة الأولى وكأنه نور الشمس الساطعة.. اغمضت عيني المتوجعتين.. قال:

– لا تلتفت حتى تسمع صوت الباب وهي تقفل.

صغرت للأمر مغمضا وجامدا في مكاني، وعندما سمعت صوت المفتاح يعبث في أحشاء القفل، فتحت عيني على مهل وأنا أحاول استيعاب إهيال الضوء عليهما، فنجحت في ذلك بعد لأي.. جلت بنظري الكليل في المكان الذي أنا فيه فلم أر غير غرفة مربعة قبيحة اسمنتية الجدران لا يزيد طول ضلعها على مترين.. عجبت للمصباح الأصفر الصغير الذي تصورت ضياءه شمسا.. وجدت ما يفترض به أن يكون فراشا من نوع ما أمامي، عانيت كثيرا حتى تمكنت من التمدد عليه وأنا أئن مع كل حركة.. اصخت السمع قليلا فتناهى إلى أسماعي صوت لغط بعيد يبدو وكأنه يصدر عن غور عميق.. ركزت، فلم استطع أن أميز شيئا رغم تأكدي من أنها أصوات بشر يتحدثون.. بذلت جهدا لإبعاد تلك الأصوات عن ذهني، فعمّ هدوء ساعدني على ملامسة حدود الكرى لولا صوت استغاثة هائل مزق السكون فجأة.. حاولت أن أجلس في مكاني لأنصت جيدا ولكني لم أستطع.. اختلطت أصوات التوسل بالذي يضرب وبالله والنبي

والأئمة بالأصوات الصارخة للذين يطلبون الاعتراف والبـــوح بمـــا يريدون.. بقيت مستلقيا في قبري ذاك مرعوبا وأنا أنصـــت لتلـــك التمثيلية الوحشية قبل أن يعمّ الهدوء مرة ثانيـــة.. ولا أتصـــور أني انتظرت طويلا بعدها قبل أن يغشيني النوم، فنمت خـــاوي الـــبطن، ممتلىء المثانة لأني لم أجرؤ على أن اطلب منهم الذهاب إلى المراحيض لأفرغها، ومحموما، فكانت ليلة لم أشهد مثلها حتى ذلك الحين.

- أقرفك الله، ما هذا؟!

كان هذا أول ما سمعته وأنا أستيقظ إثر ضربة موجعة على ساقي.. ملأت رائحة البول النفاذة، خياشيمي، فتحت عيني مستطلعا، فصاح الصوت:

- إياك أن تنظر إلي.. إستدر

لم أفقه ما يدور ولكني أغمضت عيني كردة فعل سريعة، ثم حاولت أن استدير وأنا مضجطع، فصاح مرة أخرى:

- ما هذا الذي تفعله أيها الحيوان؟.. هيّا إنهض.

عرفت أن الأمر جدي رغم عدم تمكني من تمييز الموقف فبذلت جهدا خارقا مع مفاصلي التي بدت وكأنها لا تستجيب لأوامر عقلي وهي تسومه سوء العذاب بإشارات الألم التي ترسلها إليه فتمكنت من الجلوس وحدس بالخطر يمنعني من فتح عيني.. إشتدت رائحة البول وأنا جالس فأحنيت رأسي وفتحت عيني وحين رأيت مقدمة سروالي فهمت الأمر، فبدأت ذاكرتي تعود إلي بالتدريج.. زمجر الصوت قائلا:

- هيّا إنهض وواجه الجدارالبعيد.

تمكنت بجهد خارق آخر أن أمتثل لأمره.. أعصب عيني ثم قال:

- أطبق يديك.

فوضعتهما خلفي ولكنه قال بعصبية:

- لا لا إلى الأمام.

عندها فقط انتبهت إلى أنه صوت جديد لم أسمعه بالأمس.. فعلت ما أمرني به، قيدني بقيود حديدية ثم سحبني، فسرت كطفل مطيع.. سار بي طويلا وأوجاعي تكاد تبكيني لكني لم أجرؤ على الشكوى.. فجأة أوقفني.. سمعت صوتا هو أشبه بأبواب سيارة تفتح، وسرعان ما تلقى كتفي دفعة والصوت يقول:

- اِصعد.

فصدعت بالأمر.. سمعت أصواتَ أكثر من باب للسيارة تغلق، ثم سارت بنا.

بعد عدة توقفات، بدا لي أن سرعة السيارة بدأت تتصاعد فلم يمض وقت طويل حتى بدأت اسمع صوت ضجيج السيارات المعهـــود في الشوارع المزدحمة، كما سمعتها بالأمس قبل أن يدخلوني إلى المكان الذي غادرته للتو.. افترضت أنها بغداد التي خبرت شوارعها جيـــدا، فحاولت أن أخمن مكاني.. أتتصور السخرية الكامنة في أن أحـــاول ذلك وأنا لا أعرف اساسا المكان الذي عانيت فيه ليلتي المنصـــرمة.. طبعا فشلت في التخمين وأنا أعمى تماما، فسارت بنا السيارة طويلا حتى قال أحدهم قليلا:

- ها قد وصلنا.
- إلى أين؟

قلت ذلك بلا وعي تقريبا، فعاجلتني الصفعة التي بدت وكـــأني أفتقدها ولذلك سألت برعونة.. قال صوت:

- إلى الفندق يا بن الـــ...

فقلت ببله واضح:

- أي فندق؟

وتوقعت صفعة أخرى ولكني سمعت ضحكاً وصوتاً يقول:

- الفندق الذي ستقضي فيه أيامك الأخيرة في الحياة أيهـــا النذل.

توقفت السيارة أخيرا وسحبت منها صاغرا.. سير كـــالأعمى، صعود سلالم، نـــزول أخرى.. عملية تسليم واستلام من نوع ما.. أصوات جديدة وصفعتين أو ثلاث ترحيبية، ثم المزيد مـــن الســـلالم

صعودا ونـــزولا وسير في ممرات ودهـــاليز سمعـــت فيهـــا صـــدى خطواتنا، أنا وسائسي.. وأخيرا، صوت باب يفتح، صوت قدم تدق الأرض بشدة:

- سيدي لقد جلبناه.
- هاته.
- ادخل.

قادني أحدهم إلى حيث أوقفني ساكتا.. تساءل صوت:

- ما اسمك يا هذا؟.

عرفت فورا أني المقصود بالسؤال فقلت:

- عمار

فقاطعني الصوت نفسه صارخا هذه المرة:

- (اكل خرة).. قل الصدق وإلا.

فلم أقل شيئاً هذه المرة.. قال الصوت يخاطب شخصا آخر كما بدا لي:

- ماذا تقول.. كم تعطيه.

فقال صوت جديد:

- أسبوع

دوّت ضحكة ثم قال الصوت الأول:

- لا أعطيه أكثر من ثلاثة أيام
- لا، لا، أسبوع
- أتراهنني؟
- طبعا
- أربعة أيام مقابل اسبوع
- ولكنك قلت ثلاثة

- للاحتياط فقط

ضحكة جماعية ثم قال الصوت الأول:

- والآن، هل ستخبرنا باسمك؟

كنت منشغل الذهن بما سألاقيه على أيدي هـؤلاء المجـرمين القساة، فلم أرد على الفور، صاح الصوت بغضب:

- لِمَ لا ترد أيها الحمار

قلت بسرعة:

- عمار

فصاح:

- (انجب)

ثم أضاف بغضب أوضح بعد قليل:

- أحذرك للمرة الأخيرة.. ما اسمك؟

قلت:

- عمار

فأرعد الصوت هادرا:

- أبو دفرة

لم أفهم شيئا من صيحته، ولكني تحفزت لتلقي ضربة لم تـأت فورا، بل عمّ صمت جعلني أصيخ بسمعي مترقبا ما سيحدث وقـد تشنجت كل عضلات جسدي استعدادا لأي طاريء.. مرت ثـوان طوااااااااااال، وفجأة، ألهب ألم حاد، خاصرتي من الخلف.. كانـت ضربة هائلة جعلتني اسقط أرضا، ضربة قاضية عرّفتني فورا على (أبو دفرة) اللعين هذا.. جلادي الأكبر.. رفعتني يد من ياقـة قميصـي، فبذلت جهدا هائلا لأقف مستقيما كما طلب مني الصوت الآمـر، ولكن هيهات وكليتي، التي أيقنت فورا أها أصيبت اصابة خطـيرة،

تنهال على دماغي بإشارات الألم الفظيع.. لم أنبس ببنت شفة بل بذلت جهدا هائلا لأمنع ذلك الألم من إعادتي إلى الأرض.. قال الصوت الآمر بعد حين:

- ما اسمك؟

لم أجب هذه المرة، فأرعد الصوت صائحا:

- أبو دفرة.

أي نوع من البشر كان (أبو دفرة) هذا، ولكنه والحق يقال كان ماهرا في تسديد (دفراته) فقد إمتثل للأمر الصادر، فوراً، بركلة متقنة، كادت أن تدخل حذاؤه في مؤخرتي، ورفعتني عن الأرض ولكنها لم تسقطني لأني كنت متهيأ لها.

وهكذا استمرت لعبتهم طوال ذلك اليوم.. كانت المرة الثالثة التي أصدر فيها الصوت أمرا لأبي دفرة هي الأخيرة، إذ بدأ هذا المأفون يتدخل متى ما يشاء ومن دون حاجة إلى أمر.. كان يعرف عمله جيدا، ويجيد مهمة متى يسدد ركلاته، وإلى أين.. انقضى ذلك اليوم في ظل صراع إرادات رهيب ما بين أوامر الصوت وأسئلته وإصراري على عدم البوح بما يريدونه مني، تاركين لهذا الوحش أن يضيف لمساته الخاصة بين الحين والآخر.. فكلما ساد صمت يتشنج جسدي وأنا أحاول أن أتوقع من أية جهة ستأتيني الركلة الظالمة، وبأي جزء من جسدي سيحل ألمها، ولكن هذا اللئيم كان يعرف أصول مهنته جيدا، فلم يكثر من استخدام ركلاته كما كنت أتوقع، بل أفسح المجال للترقب والانتظار أن يفعلا فعلهما في معنوياتي، ولا أخفيك أنه قد نجح في ذلك أيما نجاح، حتى إني بدأت اشعر بفرح من نوع ما كلما أبعد صوت الأمر شبح الركلة المنتظرة عني، إذ لاحظت أنه لم يضربني أبدا وذلك الصوت يخاطبني.

لقد ضربني ابن العاهرة ذاك مرارا وتكرارا، واسقطني أرضا أحيانا.. اصاب هذا الجزء أو ذاك من جسدي، وسبب لي آلاما لا تصدق، ولكن معاناتي الحقيقية، بعد مرور الساعات الأولى وتعودي على الضرب، أصبحت الجفاف الذي حلّ في فمي.. تصوّر أنهم لم يعطوني قطرة ماء خلال أكثر من أربعة وعشرين ساعة، ولذلك لم يتبق لدي لعاب أبتلعه وأنا في قلق انتظار الضربات التي كنت أتوقعها.. ولكني أقسم لك أني لم أطلب منهم ماء، بدا لي ذلك تنازلا وأنا كنت مصرا على أن لا يروا مني إلا الصمود والكبرياء.

بعد أن تعبوا مني في ذلك اليوم.. أو ملّوا، اقتادني أحدهم وأنا أكاد أسقط اعياء مع كل خطوة أبذل جهدا فيها.. سار بي طويلا في ممرات، وصعدنا سلالما ونزلنا أخرى حتى تصورت أنه يسري بي في منطقة سكنية كاملة لا في دائرة حكومية كما يفترض.. وأخيرا تمّ تسليمي لأحد آخر.. وبعد سلالم تصورت أنها تقود إلى باطن الأرض نزولا، أوقفت وسمعت قرقعة معادن، قبل أن يقول لي صوت خشن:

- أدخل.

وكأني كنت أرى لأستطيع أن ادخل، ولكن شخص ما ساعدني بدفعة، فتعثرت بعتبة ما وتقدمت خطوات.. أمرني الصوت:

- قف لأنزع عن عينيك هذه الخرقة، وإياك أن تستدير قبل أن أغادر.

فامتثلت لأمره وأنا مغمض العين لكي أتقي كَرّة الضوء التي آلمت عيني في المرة السابقة.. تصور أني لم أر العصابة التي حرمتني النظر طوال تلك الأيام، مطلقا.. قبل أن أفتح عيني راجعت حالتي خلال أجزاء من ثانية.. آلامي التي أشعر بها في كل أنحاء جسدي..

أوجاع أسناني.. معاناتي مع التعب المهلك.. معدتي التي بدأت تأكل نفسها، ولكن الذي جعلني أتنازل وأجازف بالطلب هو العطش الذي وصل حدا لم يعد بإمكاني أن احتمله.. قلت للصوت الذي لم يكن قد غادر بعد:

- ماء.. أرجوك

توقعت ضربة منه، ولكنه قال:

- سيأتوك بالطعام بعد قليل.. سأطلب منهم أن يأتوك بالماء ايضا.

ثم سمعت صرير الباب وهي تغلق وقرقعة القفل فأطلقت سراح نظري.. لم يكن ثمة غير الظلام فشككت بأني قد فتحت عيني أساسا، فأغمضتهما وأعدت فتحهما على وسعهما رغم الألم، ولكن بلا جدوى.. احتجت إلى ثوان طوال حتى ألفت عيني، الظلام.. تراءت لي الجدران المحيطة، ففرّ الدم المتبقي في وجهي، منه.. بدت تلك الجدران وكأنها تكاد تطبق عليّ فأقنعت نفسي فورا أنها مجرد هلوسة بصرية ومددت يديّ جانبيا فارتطمتا بالجدارين قبل أن تستقيما، بل لم تبعدا أكثر من سنتمترات معدودات عن جذعي.. كدت أصرخ فزعا.. لم يكن عرض هذا المكان أكثر من متر واحد في أحسن الأحوال.. حملقت فيما حولي فاستطعت أن أتبين بصعوبة طول هذا القبر الذي لا يتعدى المترين، ففكرت في السقف مرعوبا.. رفعت يداً مرتجفة سرعان ما ارتطمت بالسقف.. هزّني رهاب الأماكن الضيقة وأطبق الرعب على حواسي.. ضاق تنفسي وتهاويت على الأرض موقناً أن الموت مدركي في تلك الليلة لا محالة.. بدأ جسدي يرتعش وأصابني الغثيان.. لم أعد آبه لآلامي بعدما أيقنت أن الموت آت، فبكيت

بحرقة على نفسي.. وبقيت على ذلك الحال حتى سمعت قرعاً عنيفاً على الباب، وصوتاً يصيح:

- جلبت لك السم يا حيوان.. التفت إلى الجدار البعيد وإياك أن تنظر باتجاهي.

بدت تلك الكلمات النابية وكأنها بشارة لي.. نبهتني إلى أني لم أزل على قيد الحياة وأن ما أعانيه مجرد خوف يمكنني أن أعالجه.. نعم يا أستاذ كنت على استعداد في تلك اللحظات لأن استبدل ذلك الرعب الرهيب بالمزيد من الضربات والاهانات، فهذه أرحم.. أجبت بصوت ضعيف:

- نعم

ثم تحاملت على نفسي حتى واجهت الجدار المعني جاثياً على ركبتيّ محاولا أن أتمالك نفسي وأن أسيطر على إرتجاف بدني حتى سمعت الباب يغلق مرة ثانية مستردا مني الضوء الشاحب الذي تسرب مع فتحه.. بقيت على وضعي ذاك حتى هدأت مخاوفي أكثر، فأعاد الجفاف المخيف الذي امتد من فمي إلى بلعومي، معاناتي السابقة.. تذكرت الماء فأرعبتني فكرة أنهم قد نسوا أن يجلبوه لي.. تحركت باتجاه الباب زحفا على أربع، لأتلمس بالقرب منه بحثا عما جلبه الصوت لي.. اصطدمت أصابعي بصحن معدني كما تصورت، لم يكن فيه غير مادة لزجة لا هي بالصلبة ولا السائلة وقد وضعوا فوقها كسرة خبز يابسة.. تجاوزته أصابعي لتصطدم بعدها بما بدا لي وكأنه علبة معدنية، سارعت إلى وضع اصبع في فوهتها فبدا لي أن ما فيها ماء فاطمأنت نفسي وسارعت لرفعها لأشرب.. كان ماء فعلاً.. لم يهمني إن كان نظيفا أم لا.. دافئا أو باردا.. فقط كان ماء، واقسم لك أنها كانت أطيب شربة ماء.. كانت علبة كبيرة نسبيا،

ولكني لم أردها عن شفتيّ حتى عببت كل ما فيها.. رددت العلبة إلى مكانها وملت بجسدي إلى الخلف لأضطجع، متهيأ لراحة لم أشك أني بالغها بعد أن ارتويت.. ولكن أية راحة يمكن للمنحوس أن يجد، فسرعان ما قطع ألم فظيع معدتي الفارغة وسكاكين الماء تنهال عليها.. ولكن ما كان يمكن لهذا الوجع الجديد أن يضيفه إلى مجموعتي الخاصة من الآلام المتنوعة التي جمعتها خلال تلك الساعات الرهيبة منذ أن وجدت نفسي بضيافة هؤلاء الأوباش، فلم أفعل شيئا غير أن أبقى ساكنا في مكاني حتى خفّ الألم، فعلمت أني لابد أن أصيب شيئا من طعام لأتفادى المزيد من آلام المعدة في الأقل.. بذلت جهدا آخر لأجلس وأمد يدي إلى حيث الصحن.. لم استطع أن أعرف ما فيه لا لمسا، ولا أعانتني في ذلك حاسة الشم التي روّعت برائحته الزنخة.. لم يبق أمامي غير كسرة الخبز فقضمتها، ولكني ما أن أطبقت عليها بأسناني حتى صرخت ألما.. عندها فقط انتبهت إلى أني كنت أباعد ما بين فكي منذ صباح الأمس خشية الألم الذي كان ينتابني كلما لامست أسناني السفلية، العلوية.. ندمت لحظتها لأني شربت الماء كله، فقد كان بإمكاني أن أبلل الخبز به لأبتلعه من دون الاضطرار إلى هرسه بأسناني.. ولكن ما فائدة الندم فهو لن يغنيني عن الجوع.. آه من الجوع فهو كافر، بل يكفّر المرء.. أتبكي؟.. أتبكي من أجلي يا سيدي.. أية روح رائعة تمتلك ومن أي طين سماوي جبلت.. كيف يمكنك أن تكون بهذه الطيبة وأين أنت من شرطة ذلك الوقت؟.. هيّا.. لقد أصبح ذلك كله مجرد ذكريات.. قد تكون حزينة.. أو حتى رهيبة، ولكني لا أذكرها الآن إلا لتزجية الوقت.. ذكريات فقط يا أستاذ فكف دموعك الغاليات.

المهم.. حاولت بعد ذلك أن أقتطع نتف صغيرة جدا من الخبز

لأمضغها بسهولة، قليلا، ثم أبتلعها، ولكن الألم جعل تلك العملية عذابا متصلا فيئست وكففت.. استلقيت على الأرض منهكا، فتنبهت إلى الصمت المطبق المحيط بي الذي استطاع بمعونة الظلام، أن يعيدني إلى الرهاب الذي ألهاني الجوع والعطش عنه.. مكثت هناك وكلي يقين بأن ليلتي تلك هي آخر لياليّ في الحياة.. فكرت بزها.. فكرت بأمي.. أبي وأهلي.. اصحابي.. حاولت أن أتصور كيف سيتلقون نبأ موتي.. أو ما سيفعلون إن اختفيت من دون أي أثر.. من سيسألون وإلى أين سيذهبون، فبكيت.. ثم نمت.

على قرع صاخب استيقظت، أعانتني كلمات غاضبة تطلب مني النهوض ومواجهة الحائط البعيد على تجاوز ذهول ما بعد الاستيقاظ وتذكر ما أنا فيه.. لاحظت أن الظلام لم يزل سيد الموقف في قبري المقيت ذاك، ولكن الإعتياد خفّف منه قليلا.. فتح الباب الذي أوليته ظهري.. تسرب ضياء أصفر فبان ظل بائس مرسوم على الجدار الاسمنتي القبيح أمامي.. سمعت قرقعة معدنية، ثم صوتا يقول:

- (تزقنب) فهم ينتظرونك ليجعلوك تتقيأه.

عجباً لهؤلاء أيها العزيز، فأنا أستطيع أن أفهم الآن لِمَ عاملتني تلك الأصوات التي كانت تحقق معي، على تلك الشاكلة.. هم لم يكونوا على حق طبعا، ولكن ذلك كان واجبهم.. حتى أبو دفرة كان يؤدي مهمته التي انتدب إليها، رغم دناءته.. ولكن هذا الذي كان يجلب لي الطعام.. لِمَ كان يتصرف هكذا.. لِمَ كان يوجه لي الإهانات طوال الوقت وهو لا يعرفني، وأنا لم أسئ له، وهل كنت أجرؤ.. فكرت بحال هذا وأمثاله طوال سنوات فلم أصل إلى نتيجة غير أنهم مرضى نفسيا.. مرضى بالخوف الذي جبلوا عليه فتعودوا أن يظلموا الضعيف العاجز بدل أن ينصروه لمجرد أن ذلك يوهمهم بقوة

لا وجود لها.. والويل لمن سلّط على مصيره، جبان.. المهم، كنت أشعر في تلك اللحظات وكأن مثانتي ستنفجر، فقلت بتردد:

- كيف أقضي حاجتي؟.

فقال الصوت:

- (عساك ما قضيت).. هذا دلو هنا فأقض به قرفك.

حين خرج وعاد الظلام، استدرت وتلمست دربي حتى وصلت إلى حيث الصحاف كما افترضت، فوجدته قد وضع الدلو إلى جانب الطعام.. ابعدته قليلا وقضيت حاجتي ثم عدت إلى الطعام.. لم يكن هناك غير كسرة خبزة وعلبة معدنية فيها شاي.. نوع من شاي وآه لو تدري كم فرحت به فقد أتاح لي أن اغمس قطع الخبز فيه وأبتلعها من دون مضغ.. ومع ذلك فكلما حركت فكي السفلي بحكم الاعتياد، شعرت وكأن خنجرا يغرز في لثتي.

لم يتغير الكثير في اليوم التالي من التحقيق، واليوم الذي تلاه.. الأسئلة نفسها تقريبا والسباب والشتم نفسهما منهم، ومعها (دفرات) ذلك اللعين.. والإصرار مني على موقفي الذي أعلنته لهم منذ البداية، نفسه، حتى أن اليومين التاليين بديا وكأنهما نسخة من اليوم الأول.. تحملت منهم كل قسوتهم حتى أيقنت أن إرادتي هي التي ستنتصر في النهاية، فزادني ذلك غرة بنفسي حتى قررت أن لا أتراجع عن موقفي ولو كان الموت على أيديهم، مصيري.

في صباح اليوم الرابع، قال الصوت الآمر عندما أحضروني أمامه:

- اِسمع يا بن الحرام انت.. هذا اليوم هو فرصتك الأخيرة، إما أن تخبرنا بما نريد، أو أحولك إلى حيث سيجعلونك تتذكر الدفرات وكأنها مجرد دغدغة لطيفة.

لم أعلق بشيء، فقال مسترسلا:

- يبدو أنك لم تفهم.. أنا أتحدث عن قلع الأظافر وصعق حيوانك الصغير بالكهرباء والتعليق بالمراوح.. أتستطيع أن تتصور نفسك معلقا رأسا على عقب بمروحة سقفية تدور بك و(الكابلات) تلهب اليتيك، أتعرف ما سيحدث لك والدماء تنحدر من أنحاء جسدك لتتجمع في رأسك الفارغ.

لم أعلق بشيء مرة أخرى، فقال الصوت بهدوء وهو يركز على كل حرف ينطقه:

- ولا تنسى قلع العيون.. أو حتى الخصى، فأنت تعرف أن كل شيء مباح لنا هنا.

ثم بدأت الأسئلة لتتوالى معها ركلات ذلك السادي مثخنة إياي باصابات جديدة.. مضى الوقت بطيئا جدا وأنا أتحمل عذابهم الوحشي حتى سمعت لغطاً وأصوات خطوات مسرعة جيئة وذهاباً وأبواباً تفتح وتغلق فافترضت أن طارئا ما قد حدث وأنهم قد خرجوا وتركوني لوحدي.. ولكن من أين كان لليقين أن يأتيني وأنا في عماي ذاك؟ ومع ذلك قررت أن أجازف، فرفعت يدا مترددة لأزيح غطاء عيني قليلا حتى أتعرف على المكان الذي شهد حفلات العبث بإنسانيتي.. كنت أعرف في أعماقي أن ما انتويته، هو رعونة، ولكن يبدو أن الانسان في وقت المحن يميل إلى اللامنطق أكثر، أو هذا هو حالنا نحن في الأقل.. رفعت يدي قليلا ولكن كفا ثقيلة هبطت على كتفي فارتجف جسدي بشدة من هول المفاجأة وارتدت يدي الى مكانها.. استقرت الكف في مكانها فأستطعت أن أتماسك بعد لأي وأنا أنتظر أن يقول لي صوت شيئا ما، ولكن لم يكن ثمة غير الصمت، فشعرت بتوتر بعد أن طال

الوقت ولكن يد أخرى لا مست كتفي الآخر، فازداد توتري.. ما هذه اللعبة الجديدة.. بدأت اليد الثانيـــة تـــتلمس أنحـــاء ظهـــري نـــزولاً، بدأت أنفاسي المتلاحقة باضطراد تؤلم صدري حتى بلـــغ توتري أقصاه عندما وصلت اليد إلى أسفل ظهري وبدأت تتحسس مؤخرتي.. لم أصدق في البدء أن يصلوا إلى هذا المستوى.. ولكـــن لِمَ لا.. ألم أشهد بنفسي مدى انحطـــاطهم الاخلاقـــي في الأيـــام السابقة، فما الذي يمنعهم عن فعل هذا.. شعرت باختناق فـــانبثق الغضب هادراً في أعماقي.. التفتّ بعنـــف وســـرعة إلى الخلـــف وصحت:

- ما هذا الذي تفعله أيها الحقير؟.

حاولت كف غليظة أن تغلق فمي بالقوة فأنّت أسناني ألمـــا.. جنّ جنوني، فصرخت:

- يا كلب يا بن الكلب

فكان ذلك آخر عهدي بالشتائم الغاضبة، إذ عـــاجلتني ركلـــة هائلة في بطني قاذفة بـــي إلى الخلـــف ثم علـــى الأرض، فتقطعـــت أنفاسي، وكالقدر الغاشم امتدت اياد لترفعني عن الأرض وتـــوقفني على ساقيّ وخوار مرعب يطرق أسماعي.. ضاقت بـــي الـــدنيا ولم أعد اعرف كيف أتصرف.. فكرت للحظة أن أنتزع العصابة عـــن عينيّ وأشتبك مع هذا النذل الجبان ولو كان في ذلك موتي.. ولكـــن وجود أصحابه قريبين جعلني أدرك أن كفة مثل هذا الصراع ستكون مائلة بنحو مطلق إلى أولئك الســـاقطين.. مائلـــة بنحـــو كامـــل، ومجحف.. كان عقلي يدور بسرعة وأنا افكر.. إلا هذا.. مستحيل.. كيف سأعود إلى النضال بعد أن يبلغ هؤلاء، أوطارهم مني.. ومـــا الذي أقوله.. كيف سأواجه زها، وما الذي سأقوله لأمي.. وأنـــا في

خضم ذلك الصراع النفسي الرهيب، سمعت صوت وقع أقدام تقترب بسرعة.. دوّى الصوت الآمر صائحا:

- ما الذي فعلته به يا أبو دفرة.

كان أبا دفرة.. يا للعين!.. والله لن أغفر لهذا القميء ما حييت، ولوالتقيت به يوما ما لأنتقمن منه شر انتقام.. المهـــم، بـــان الأمـــر بتساؤل الصوت الآمر وتوضح كل شيء.. كان ما فعلوه متفق عليه، وكانوا يريدون اخضاعي بتلك الطريقة، فانفثأ المتبقي من غضبـــــي وتعاظمت حيرتي.. لا يا أستاذ، لم يكن ذلـــك بحســـباني وكـــان مستحيلا أن أرتضيه، لا من أجل الحزب ولا من أجل أي شـــيء في العالم.. مستحيل.. عجز عقلي عن مواجهة الموقف فتهاوت معنوياتي بلمح البصر بعدما ضاقت بـــي الدنيا وتضاءل الأمل فتهاويت على ركبتي ونحتُ:

- سأخبركم بكل ما تريدون.. فقط ارحموني.

في تلك اللحظة شعرت وكأن شيئا ما كسر نهائيا في داخلي.. حاولت لا شعوريا أن أهون الأمر على نفسي مـــبررا مـــوقفي بمـــا أضمروه لي، ولكني سمعت صوتا داخليا يصيح، "إخسأ أيها الوغـــد" كانت هوة قد فغرت فاها لابتلاعي، فقررت لجـــزء مـــن ثانيـــة أن أتراجع، أن أقف مرة ثانية وأصيح، "لن أخون.. لتفعلوا ما تشـــاؤون أيها الأوغاد"

ولكن الصوت الآمر زلزلني بالقول:

- وأخيرا عقلت يا يسار.

مادت بـــي الأرض فجلست على مؤخرتي هذه المـــرة وأنـــا ملتفت بوجهي إلى مصدر الصوت وقد فغرت فاها.. فقال:

- أتصورت أننا لا نعرفك حقا يا مسكين.

لم يخطر لي ببال أن أجيب، فقد شلّ الذهول تفكيري في تلك اللحظات، فأكمل:

- لقد أرسلوك هدية لنا.. طرد جاهز للاستلام مع المعلومات المطلوبة كافة.

لم يشغلني حينها مدلول تلك الكلمات التي قالها، فقد كنت عاجزا عن التفكير كما قلت لك، ولكني استعدت تلك اللحظات الرهيبة مرارا وتكرارا بعد ذلك، ولطالما تساءلت مع نفسي عن السبب الذي جعلهم يتصرفون معي بتلك الطريقة البالغة الهمجية.. لِمَ كل تلك الركلات التي تلقيتها وأنا أنكر اسمي إن كانوا يعرفونه أساساً.. ولكني لم أحتج إلى ذكاء كبير ولا وقت طويل لأدرك إنهم كانوا يستهدفون نفسيتي.. كان يهمهم جدا أن يحطوا من اِنسانيتي وأن ينتهكوا مبدئيتي ويجردوني منها لكي يضمنوا امتثالي الكامل لما يريدونه مني.. أن يعيدوا تشكيلي كما يريدون هم لا كما أريد.. ولكن، أنّى كان لي أن أفهم ذلك وأنا على تلك الحال.

عندما تجمعوا أخيرا لتناول طعام الإفطار، شعر بإرتياح كـبير بعد طول إنتظار.. كان قد عانى كثيرا منـذ أن اسـتيقظ فجـرا.. تحسس ملابسه الجديدة التي وضعها قبل أن ينام تحت وسادته.. قفـز من مكانه ليطمئن على وجود حذائه الجديد حيث وضـعه تحـت السرير.. عاد إلى فراشه، ولكن الدقائق مرت عليه بـبطء شـديد.. حاول أن يخمن المبلغ الذي سيحصله كـ (عيديات) وهـو يعـدد الأشخاص الذين يمكن أن يمنحوه إياها.. حاول أن يعود إلى النـوم مرة أخرى، ولكنه لم يستطع، فاضطر إلى تحمل الانتظار حتى حـان وقت الإفطار، واجتمعت العائلة استعدادا له.

أكل ما قدم له بسرعة، ثم طالب أمه أن تبدل له ثيابه فورا، ليستعد للعيد.. عندما انتهت من إعداده، أبعدته لتتمعن فيه قليلا.. ابتسـمت ثم أمطرته بسلسلة من القبلات والأدعية.. إلتفتت إلى أخواته وقالت:

- هيّا يا بنات، إرتدين ثيابكن انتن ايضا لكي نـذهب إلى بيت خالكم.

أجفل عندما قال والده الجالس بعيدا عنهم:

- ماذا.. بيت خالهم.. ما بك يا امرأة، ألم أقل لك بالأمس أننا سنتناول طعام الغداء في بيت أخي.

لاحظ هو بقلق أسارير والدته التي تبدلت وهي تقول:

- لا بأس، سنذهب إلى بيت أخي أولا، ثم نتغدى في بيـت أخيك.

شعر بإرتياح لأن المشكلة قد حلت، ولكن والده قال:

- أنت تعرفين، ما أن ندخل هناك فلن يدعونا نخرج قبل أن نتناول الغداء عندهم.. لا بل نذهب إلى بيـت أخـي، ونـزور أخاك عصرا.

إنتابه الشعور بقدوم الكارثة عندما لاحظ الابتسامة الساخرة على وجه إمه التي لم تخيب توقعه لأنها قالت بعصبية ظاهرة:

- أي أخ هذا.. هل من المعقول أن نزور هذا النكرة قبل أن نزور أخي.. الضابط الكبير، بطل البلدة وأملها.

تطلع بقلق شديد إلى أبيه الذي قال وهو يداري غضبه:

- ضابط كبير، ضابط صغير.. بطل أم لا.. عنترة أو شيبوب، لا يهمني.. لقد قلت سنزور أخي أولا، وهذا ما سيحدث.

أيقن عندها أن العاصفة آتية لا ريب فيها، ولكنه نظر باستعطاف إلى أمه عسى أن تمتنع عن الرد.. ولكنها كانت في تلك اللحظة قد عبرت حدود العقل في واحدة من ثورات غضبها المعتادة.. صاحت:

- والله لن نذهب إلا لزيارة أخي وقرة عيني.. وعينك أيضا.. أيعقل أن لا نزوره وقد شرّف البلدة في هذا العيد، بعد طول غياب.

إنتبه هو إلى أن اخواته كن قد انسحبن بهدوء، ليبقى هو وحيدا بين شخصين بديا له غريبين، بل بغيضين جدا، وهما يدوسان بلامبالاة على أمله في أن يكون عيده سعيدا.. تزايد الصراخ مع تطاير الشرر من العيون، فيما إزداد الشعور بالألم في معدته كما هو معتاد في مثل هذه الحالات، وما أكثرها.. جلس على الأريكة وهو يمسك ببطنه على أمل أن تنتبه أمه لحاله، ولكنها كانت مشغولة كلية برد الكلمات الغاضبة التي تنهال عليها، والتي وصلت إلى درجة السباب والكلام البذيء، أولا بأول.. شعر بغضب يتنامى في داخله رغم الألم.. أراد أن يصرخ بهما ليسكتا.. فبكى.

بعد ساعة أو أقل، كان يوسف في الشارع وهو يمسك باحكام بـــ (ربع الدينار) الذي منحته إياه أمه، بعد درهم أبيه.. كان يركض مبتعدا، بعد أن أدرك أن العيد قد إنتهى في ذلك البيت الكئيب.

الليلة العاشرة

بعد انهياري المريع، تبدلت معاملتهم لي تماما، فقد أنهضني أحدهم عن الأرض، وأجلسني على مقعد ليبدأ الصوت يستجوبني وأنا أجيب.. زودته بجميع المعلومات التي سألني عنها بعدما تساوت عندي كل الأشياء في تفاهتها وعدم أهميتها.. أنا أعترف لك الآن بأنه كان سقوطا مريعا لي، ولكن من يريد أن يدينني فليكن في مكاني أولا في ظل تلك الظروف.. لا، لا، أنا لا أقصدك أنت، بل أقصد من يمكن أن يدينني بسبب ما حدث، وهم كثر.. كثر يا أستاذ.

الشيء الوحيد الذي لم أكن مستعدا للبوح به في جلسة الاعترافات تلك هو أية معلومات عن أم الأنصار وزوجها.. أقسم لك أني كنت مستعدا للعودة إلى حفلات التعذيب على أن أذكرهما في إعترافاتي.. يا للروعة!.. أغدر بالحزب الذي كرّست له كل حياتي، واضمر كل ذلك الوفاء لامرأة عاملتني بحنان ذات مرة، رغم غدري بالمرأة التي أحبتني وسلمتني نفسها.. أي نوع من البشر هم نحن يا أستاذ؟!.. المهم هو أن الأوغاد لم يسألوا عنهما أبدا وأفرغوني تماما من أية معلومات أمتلكها عن الحزب، ثم سمعت الصوت الآمر يقول مخاطبا أحدهم:

- الآن، خذه إلى الجماعة ليهيئوه.

فاقتادني هذا برفق وسار بي طويلا حتى سمعته يحادث صوتا آخر في غرفة دخلناها.. تابعت بعد ذلك صوت أقدام تبتعد، ثم عمّ صمت لمدة قصيرة.

كانت المفاجأة الكبرى التي ادخروها لي في تلك الغرفة أهم صارحوني برغبتهم في تجنيدي مخبرا لهم في الشمال.. فبعد أن أزاحوا تلك العصابة القذرة عن عيني، وجلبوا لي الماء والشاي لأشرب وأنا جالس أمام رجل بثياب مدنية وهو خلف منضدته، فاتحني هذا بالأمر، فكان ردة فعلي الأولى هي أن قلت بصوت مرتفع:

- مستحيل.

ولكن الرجل قال بصوت هادئ وشبه ابتسامة تعلو شفتيه:

- ولِمَ مستحيل.. ألا تريد أن تكفر عن ذنبك وأن ترد الدين الذي برقبتك تجاه الحزب والثورة.

فقلت وأنا أكاد أتوسل هذه المرة:

- ولكني اعترفت بكل شيء.. ألا يكفي هذا.

فقال بصوت جهد لأن يبدو متفهما:

- نعم وذلك يعفيك من المزيد من التحقيقات.

ثم اتسعت ابتسامته قبل أن يواصل:

- ولكني لا أخفيك هذا لا يعفيك من العقوبة التي تستحقها بسبب الخيانة والانتماء إلى حزب محظور.

ثم صمت وهو يحدق في وجهي بثبات قبل أن يضيف:

- وأنت تعرف أن تلك العقوبة يمكن أن تكون الإعدام في ظل ظروف الحرب القائمة.

وهكذا أحكم وضع العنان حول رقبتي، فهانت الخيانة التي بدت وكأنها شيء عادي في تلك اللحظات.. جللني عاري ولكني حاولت.. توسلت.. فلم يجد التوسل نفعاً.. لا تنظر إلي هكذا يا سيدي، صدقني أني رفضت.. ولكني كنت وحيداً بينهم.. ضعيفاً إلى أقصى الحدود.. كنت كأرنب تحت رحمة ضباع ضارية، لا أمل لي

البتّة.. فكرت في أن أنتحر بالرفض، ولكن التفكير باحتمال الاغتصاب أحبطني.. كان أفظع من أن أرتضيه لنفسي.. آه.. تصورها نظرة شجب.. أنا شاكر لقلبك الطيب أيها الصديق الحبيب.. بالمناسبة، أنا ممتن لمحاولتك الإفراج عني باللجوء إلى الوزارة.. نعم لقد سمعت بتلك المحاولة، أخبرني أحد افراد الشرطة بذلك، وأعرف أن وزارة العدل رفضت الإلتماس، ولكن لا بأس، فأنا متقبل مصيري مهما كان لأني تعبت.. لم يعد يهمني ما يحدث.. أما في تلك الأيام، فقد كنت مهتما.. حاولت بأقصى جهدي أن أتخلص من خيوطهم التي لفّوها حولي باصرار شيطاني.. حاولت.. ولكني رضخت ووافقت في النهاية.

تسارعت الأحداث بعد ذلك، فقد أخذوني إلى حمام لأغتسل وأزيل كل تلك القذارات التي تحملها جسدي، مصحوبا بدواء خاص لمكافحة جحافل القمل التي انتهكت جسدي وسببت لي تلك الحكة الرهيبة التي تزامنت مع حفلات أبو دفرة التي أقامها على شرف أعضائي.. أعطوني ملابس نظيفة لأرتديها وأرسلوني معصوب العين إلى مستوصف لمعالجة آلام أسناني التي لم تعد تطاق، فقلع لي طبيب ثلاثة أضراس قال أنها كسرت من جذورها، أخرج الأضراس بسرعة وخفة أراحتني، ولكنه عندما بدأ يقتلع الجذور، عرّفني على ألم الأسنان الحقيقي.. قضيت عندهم يومين أو ثلاثة اضافية، كنت خلالها أنام ليلا في غرفة مضاءة.. غرفة لا زنزانة وكانوا يزودوني بوجبات طعام حقيقية رغم أن الجرح الغائر في لثتي ومعنوياتي المنخفضة لم يدعاني أتمتع بها.. وفي ذات صباح زودوني بأوراق رسمية صادرة عن مستشفى حكومي تثبت أني دخلته بعدما تعرضت إلى حادث سيارة لم يحدث، لكي يغطوا المدة التي قضيتها في ضيافتهم

ولتفسير الكدمات الموزعة في أنحاء جسـدي وأسـناني المكسـورة لاسقاط احتمالات الشك عندما أعود إلى الحـزب بعـد غيـاب مفاجيء.. عصبوا عيني وجعلوني استقل سيارة كانت تنتظرني تـبين بعد أن أزاحوا العصابة عن عيني، أنها سيارة أجرة أقلتني إلى مركـز بغداد، وهناك أطلقوا سراحي.

مسربلا بعاري وصلت بعد أيام إلى مقر الأنصار في تلك القرية المهجورة والمحتمية بين قمم الجبال، بعد أن قضيت أياما في ملاذ الحزب الآمن في بغداد، بعد اطلاق سراحي.. ما أن وصلت الملاذ حتى انتابتني حمى طرحتني في الفراش ساعات طوال وأيام وأنا أتأرجح بين الوعي والكوابيس حتى أبللت.. وما أن استرددت عافيتي حتى عدت إلى تلك الجبال سريعا لكي لا تطول غيبتي هذه المرة.. بالحقيقة، لقد فكرت طويلا عند استرداد وعيي وأنا طريح الفراش أن لا أعود.. يا ويح نفسي، أأعود لأخون.. ولكن إلى أين أذهب.. كيف أتخلص من قبضة هؤلاء الأوغاد التي أحكموها على رقبتي.. أعود، ولكني هذا يعني أني سأكون وبالا على الحزب الذي كان هو القيمة الأقدس في حياتي قبل أن تدخلها زها.. لا أعود، ولكن هؤلاء كلفوني بمهمة ولن يدعوني أعيش حياتي فإما العودة أو السجن والإعدام.. بقيت حائرا، أعود، أو لا أعود.. ولكني أخيراً عدت.. من الطريقة التي استقبلوني بها هناك أيقنت أن أحدا لم يشك بأمري.. آه، ليتهم يشكون ليستجوبوني فأعترف لهم بكل شيء.. قد يدينونني، قد يحتقرونني، ولكنهم كانوا ليساعدوني بذلك على التحرر من العذاب الذي أنا فيه.. فقط ليسألوا وسأحدثهم عن كل ما حدث لي.. أنا لن أستطيع أن أبادر فعاري أكبر من أن أجرؤ على البوح به، ولكن ليجبروني.. ليحرجوني بالتحقيق فأعترف بكل شيء وأرتاح.. عندما وصلت كان خاطرا واحدا يمكنه تهدئتي.. أم الأنصار، وأبو الأنصار.. بل أم الأنصار.. ولكن من أين للشقي أن يبلغ هدفه عندما تدير له الدنيا ظهر المجن.. ما أن وصلت حتى تركتهم مجتمعين من حولي وهرعت إلى حيث الكهف.. كهفهما البهيج.. هرعت إلى أم الأنصار لتنجدني و لم أهتم للتعب الذي كان

يهدني بعد تلك الليلة المتعبة التي قضيتها في الطريــق إلى هنـــاك.. لم أفكر بالنوم والراحة، بل هرعت إليها وأنا لا أعرف أني كنت ماضيا في شرب كأس التعاسة حتى الثمالة في ذلك اليوم العصيب.. عنـــدما وصلت باب الكهف، لم أجرؤ أن أدخل فـــورا خشـــية أن يكونـــا نائمين، وقفت وناديت.. ناديت باسميهما، فلم أسمع جوابا، وعنـــدما كررت النداء ظهر لي وجه غريب فغاص قلبـــي عميقـــا ولكـــني لم أعرف ما أقول، بل قال هو:

- لم يعد أبو الأنصار وزوجته يسكنان هنا.

فتساءلت على الفور:

- فإلى أين ذهبا إذا.

بدا عليه الضجر فلم يزد بالقول غير:

- بعيداً.

أمعن قلبـــي بالغوص، فقلت بصوت هو إلى التوسل أقرب:

- لم أفهم.. إلى أين (بعيداً)، أرجوك يا رفيق.

فألقى عليَّ نظرة مفعمة باللامبالاة وقال موضحا وهو يشير إلى الجبل العالي الذي تقع ايران على الجانب الأخر منه:

- لقد تركا العمل النضالي، وذهبا بعيدا.

فصحت بلا وعي تقريبا:

- مستحيل.

ابتسم هو بسخرية واضحة وقال:

- مستحيل أم غير مستحيل، هذا ما حصل.

ثم دخل تاركا إياي حائرا.. عصـــفت الوحشـــة لحظتـــها في أعماقي فأدركت مدى ضياعي.. فغر الحزن فاها ليبتلعني، فأنحدرت إلى لجة من يأس زينت لي فوراً، فكرة الإنتحار.. لم أكن أعرف مـــا

يجدر بـــي فعله، فكرت أن لا حل أمامي غير الموت، فهـــو أهـــون عندي مما يطلبونه مني.. تهاويت في مكاني جالسا من دون أن تمـــس مؤخرتي الأرض، مسندا ظهري إلى صخرة.. حاولـــت أن أفكـــر، ولكن من دون جدوي، فملت بجبيني على ذراعـــي المســـندين إلى ركبتي، وانهمرت دموعي.. أتعرف يا أستاذ، في تلـــك اللحظـــات المليئة باليأس، حدث ما هزّ يقيني بالتفسير المـــادي للتـــأريخ الـــذي كانت له صفة التقديس في نفسي.. عندما استعدت ما حـــدث، في ذاكرتي.. نعم أيها الرجل الطيب، آمنت فيمـــا بعـــد أن الماديـــة لا يمكنها أن تفسر ما حدث في تلك اللحظات الحاسمة من حياتي عندما برز الأمل من ظلمات يأسي وظل يدفعني باصرار باتجاه الخـــلاص، وإن عجزت المادية عن تفسير ما يحدث للأفراد أحيانا فإن هذا يعـــني بالتأكيد أن التأريخ لا يمكن أن يفسر من ناحية ماديـــة فقـــط.. لا أبداً.. المهم، وأنا أغالب دموعي في ذلك الموقف الذي كنـــت أدرك جيدا غرابته في ذلك الظرف، شعرت بيد تلامس شـــعري برقـــة.. مسحت دموعي على عجل لأرفع رأسي وأفاجأ بوجه شاب كـــان قد أقعى أمامي بعد أن وضع يده الأخرى علـــى ذراعـــي.. آه يـــا صديقي، كيف يمكنني أن اصف لك تلك اللحظات الـــتي تبـــدو لي الآن وكأنها مستلة من الأساطير أو غرائبيات القصص الـــتي ترويهـــا الجدات لأحفادهن.. كان وجهه قريبا جدا من وجهـــي فشـــعرت وكأن فنانا عابثا أراد أن يعتصر كل خبرتـــه وإبداعـــه، فـــاقترف خصلات متصارعة، تخوض حرب ألوان بتدرجاتها.. شعر دكنـــت صفرة ذهبه، فحق لعسل الحدقات أن يزهو بتوافق قـــل أن يتـــوافر لوجه شاب مثل هذا الذي كان يتطلع إلي مســـتفهما وقـــد بـــان التعاطف الواضح في عينيه الناضحتين عسلا.. قال لي شـــيئا بلغـــة

عرفت أنها الكردية، ولكني لم أفهم منها شيئا، فقلت وأنا أجاهد لكي لا ينكسر صوتي:

- لم أفهم.

لم يبد عليه أنه فهم ما قلته له ولكنه ابتسم لي مشجعا وقال بصعوبة بالغة، بالعربية هذه المرة:

- لا تبكين

ثم ربت على خدي برفق واكمل:

- أنا (أخوج).

ولم يزد شيئا، بل نهض ساحبا إياي من ذراعي لأنهض معه، ثم مضى بي إلى كوخ يكاد يختفي تحت المنحدر الذي يستظل به، أدخلني إليه ودعاني بالاشارة إلى أن أنزع حذائي وأن أستكين على فراش ممدود على الأرض، وما أن أستجبت إلى إشاراته من دون نقاش، حتى غادرني ليعود بعد قليل محملا بلبن في صحن وكسرة خبز وضعهما أمامي، مطالبا إياي بالإشارات أن آكلهما.. ترددت، فقال لي وهو يعاني في كل كلمة يلفظها:

- - أكلي.. نام.. لا تهتم.

ثم صمت ليستجمع ذخيرته اللغوية كما بدا عليه، قبل أن يكمل وهو يدق على صدره:

- كاكا شيرزاد هنا.. أنتِ لا تخافين.

لطالما تساءلت وأنا أستذكر هذا الموقف، لِمَ هذا الشخص بالذات من بين الموجودين في ذلك المقر العاجّ بشتى أنواع البشر الذي رآني على تلك الحال.. لم كان هو الذي مرّ في تلك اللحظات ليرقّ لي وأنا في دركي، ضائع.. كان هذا هو بداية فكرة التوقيتات التي آمنت بها فيما بعد.. فكرة أن لكل شيء يحدث في حياتنا توقيت

خاص.. أنا بالحقيقة لم أستطع أن أتأكد من امكاناتنا أن نؤخر ذلك التوقيت أو نقدمه، ولكن يقين لا يتزعزع إستقر في داخلي أن كل شيء سيحدث في وقته تماما.. وقته هو الذي قد لا يناسبنا، ولكنه لن يحدث إلا بالتوقيت الذي تفرضه قوة لا نستطيع أن ندرك كنهها.. بتوقيتها هي، لا بالوقت الذي نتمناه.. نعم آمنت بهذا في النهاية، ولكن بعد أن عانيت صنوفا من الجزع والرعب والخوف طوال سنوات.

بقيت أياماً أشارك شيرو، كما بدأت أدعوه فيما بعد، حياته في ذلك الكوخ الصغير، أو فلأكن أكثر دقة، عشت عالة عليه، فقد كان يقوم بكل الأعمال ويوفر لنا كل ما نحتاجه من مأكل طوال الوقت، وما عليَّ فعله هو الأكل فقط.. أنا لا أقول أني تكاسلت أو حاولت أن لا أقوم بدوري، ولكنه هو الذي كان يرفض، بدا وكأن خدمة الآخرين تسرّ هذا الشيرو القادم من قرية نائية في الشمال، إلى دهوك لكي يكمل دراسته حيث إنتمى إلى الحزب وليشارك في حرب الأنصار بعد أن يئس من لقاء أهله الذين فقد آثارهم مع إزالة تلك القرية القابعة على أعلى جبل قصيّ، من الوجود.. لم نكن أنا وشيرو نتكلم كثيرا بسبب حاجز اللغة، ولكننا لم نشعر بالملل أبدا ونحن نغلق ثغرات التواصل اللغوي بيننا، بالإشارات.. بل أن ذلك كان يضحكنا كثيراً ويملأ أنفسنا سعادة، وليتك تدرك كم أنفقت من وقت لجمع هذه المعلومات الضئيلة عنه والتي قلتها لك خلال ثوان للتو.. هل أخبرته عن المأزق العصيب الذي كنت فيه، نعم حاولت بعد أن ازددت ثقة به بعد يوم أو يومين، ولكني أشك جدا أنه قد فهم ما أخبرته به.. الذي تراءى لي هو أنه فقط حدس بحراجة موقفي فزاده ذلك اصرارا على محاولة التخفيف عني بأية طريقة ممكنة بالنسبة له.

أثناء تلك الأيام، لم أتذكر زها كثيرا لأني كنت مشغول البال بمأزقي وكيفية إيجاد مخرج لنفسي، ومع ذلك كانت تتراءى لي حتى في أشد لحظاتي صعوبة، لتخفف عني حينا، ولتزيد بقلقي عليها، همومي، في أحيان أخرى.. وفي تلك الأيام بالضبط اكتشفت ما كاد يذهب بالمتبقي من عقلي.. فما أن تهيأت لي الفرصة للإختلاء بنفسي من دون أوجاع أو هموم مرضية أكتشفت مدى خطأ حساباتي.. فحينما ذهبت إلى بغداد، كان كل أملي أن أراها لأني توقعت أنها ما تزال طالبة في الجامعة.. كانت حساباتي مبنية على اساس المرحلة التي كنت لأصلها لو لم أنقطع عن الدراسة.. في حينها لكنت في المرحلة الرابعة، ناسياً أنها كانت تسبقني بسنة.. تسبقني بسنة يا أستاذ، وهذا يعني أني ضحيت بكل شيء من أجل لا شيء، لأنها لم تكن في الجامعة، إلا إذا كانت قد رسبت، وهذا أمر مستبعد.. لقد ضيّعتُ كل تأريخي من أجل وهم تملكني، من أجل لا شيء، فأوصلني هذا الاكتشاف إلى قعر الهوة التي ألفيت نفسي فيها في تلك الأيام، وكأن كل معاناتي مع مسألة الإعتراف والخضوع لم تكفني.. اندفعت حينها للتفكير في حل يعينني على الخروج من هذا المأزق الذي ورطت نفسي فيه بغبائي.. فكرت وأمعنت في التفكير.. إعتصرت عقلي، ولكن من دون جدوى.. حتى يئست، لتهب الأقدار إلى نجدتي في تدبير مذهل لم يخطر لي ببال، فمن صميم المآسي، إبتكرت لي مخرجا.

ذات صباح، أيقظني صاحبي الجديد وقد بدا عليه اضطراب عظيم.. أمرني بالاستيقاظ والاستعجال والصمت في خليط منفعل من إشارات وكلمات ضاعت فيها الحدود ما بين اللغتين الكردية والعربية.. أدركت أن امراً جللاً قد حدث، فجعلني الخوف أستجيب لأوامره.. قفزت من فراشي لأهرع إلى حذائي فوراً وأنا

أكاد أتعثر في كل خطوة لشدة اضطرابـــي.. قال لي بعد أن لبست حذائي:

- (كارت)

لم أفهم، فقال:

- بطاقة

فزادت حيرتي، ولكنه بدأ يشير إلي صدري ثم إلى جيبـــي وهو يقول:

- أنتِ.. (سورة)

صورة.. كان يقصد صورة، فخمنت أنه كان يقصد بطـــاقتي الشخصية.. أسرعت إلى حيث أخبئها لأستخرجها وأريه إياها، فقال وهو يشير إلى جيبـــي:

- (بلي.. بلي)

وضعتها حيث أشار ثم هرعت إلى بندقيتي إستجابة لـــرد فعـــل غريزي، ولكنه صاح:

- لا.. لا كلاشينكوف.. يقتلونك.

فبلغ خوفي أشده ومعه تراكمت حيرتي.. من هـــؤلاء الـــذين يقتلونني.. وما نفع هذه البندقية التي حملتها أشهراً طوال ليطلب مني لحظة مجيئهم، أن أتخلى عنها خشية أن يقتلوني.. ولكن الظـــرف لم يكن يتسع للنقاش والإعتراض.. فإما أن أستجيب لأوامـــره، أو أن أتحمل مسؤولية قدري، فأخرج حاملا بندقيتي.. كان الأمر واضـــحا من الصرخات التي تتردد في الخارج وصوت اطلاقات النار المتفرقة.. بدا وكأن الجيش قد فاجأنا ونحن في غفلتنا فاقتحم علينا مقرنا وبـــدأ يفعل ما أعد له أصلا.. قتلنا.. قدّرت أن شيرو عـــرف أن الوضـــع ميؤوس منه ولذلك قرر الهروب ولكن إلى أين.. وكيف.. لم يكـــن

الوضع يساعد على السؤال وأنا كنت أحبه إلى درجة تجعلني شديد الثقة به، فأومأت برأسي موافقاً.. قفز شيرزاد إلى الركن البعيد للكوخ وأزاح سجادة صغيرة عن الحائط، فبانت ثغرة صغيرة تكفي لمرور شخص بصعوبة، أشار لي أن أتبعه، ثم زحف خارجاً.

في الخارج، وجدت نفسي واقفاً أسفل المنحدر وأنا أتطلع إلى القمة المجاورة.. سرعان ما بدأ شيرو بتسلقه بسرعة وخفة ماعز جبلي وهو يلتفت لي بين الحين والآخر ويشجعني على الإسراع بحركات يديه.. تبعته صامتاً، وببعض الصعوبة طبعا، فقد كان منحدراً شديداً.. وأنا أصعد فكرت في أن ألقي نظرة أخيرة، فإلتفتّ وأنا في منتصف المسافة تقريباً، فلم أجد أي أثر للجنود كما توقعت، بل وجدت الجميع يلبسون الملابس الكردية و لم أعرف من يقود من، ولا من يطلق النار على من.. ولا لمن تعود الجثث الملقية على الأرض أو من الذي يطلق النار القاتلة.. بدا المشهد أشبه بمنظر شديد المأساوية لم أفهم منه شيئا، فاشتدت حيرتي، ولكن معدتي الموجوعة أنبأتني أن كارثة قد حدثت وأن مصلحتي تقتضي ان أتبع شيرو بصمت الآن.

على القمة، لم ينتظر شيرو أكثر من أن ألتحق به فبدأ مسيرتنا الأسطورية التي إستمرت أياما وليال طوال.. أيام بنهاراتها ولياليها فهمت خلالها أن الذي إجتاح المقر هم الأكراد، لا الجيش.. المسلحون الأكراد هم الذين قتلوا معظم الأنصار الذين سقطوا في قبضتهم.. أفهمني أنهم لم يقتلوه لأنه كردي هو الآخر، ولكنه أدرك أنهم سيقتلوني ولذلك هرع إلي لينقذني.. أخبرني بطريقته الخاصة.. بخليط لغته الهجينة وإشاراته الذكية وشتائمه التي لم أعرف أنها كذلك إلا من نبرته الغاضبة، والتي لم يعفِ منها أحد، أنه يعتبر أن حربه هو قد إنتهت وأنه يجب أن يصل إلى أوربا البعيدة ليبدأ حياة حلم بها

طويلا ولكنه ضحى بها حتى ذلك الوقت من أجل المباديء التي آمن بها، وأنه لن يتركني حتى يوصلني إلى حيث الأمان.. سألته حين عرفت أنه قاصد أوربا، لِمَ لَمْ يعبر الجبل الوحيد الذي كان يفصلنا عن إيران في المقر المغدور، فصاح:

- إيران لا.. شيرو ذهب.. رجع.. أمور (مو زين).

بمثل هذه المختصرات أمضينا وقتنا نسعى في متاهات من قمم نسير بينها، متحاشين لقاء أي بشر.. نواجه خطر الأعداء، الذين زادوا عددا في تلك الأيام، وخطر الوحوش، بلا سلاح.. نبحث في الوديان عن أمان ونتسلق القمم أملا في خلاص لم أعرف كيف سيكون، فقد كان السر يكمن في عقل شيرو الذي كانت اللغة تمنعني من الاطلاع عليه.

في تلك الأيام، سألت نفسي عشرات المرات.. أأستمر في ثقتي به؟!.. ولكني لم أستطع غير أن أثق به مرغما لافتقادي الخيارات، ومع ذلك فقد كنت أزداد إيمانا بقدراته كلما تركني وحيدا في أجمة أشجار في قعر واد، أو مغارة قصيّة على سفح جبل أو حتى في حمى صخور على قمته.. يوصيني أن أكون حذرا وأن لا أسمح لأي شخص كائنا من كان أن يراني ويذهب، ليعود بعد ساعات مضنية أقضيها وحيدا مع حيرة وشك وقلق.. وخشيات وخشيات.. يعود محملا بطعام يقل أحيانا أو يكثر.. لم أعرف من أين كان يأتي بزبيب أو تين مجفف أو اي شيء يمكن أن يؤكل، وأحيانا بأرغفة خبز أو حتى لحم مطبوخ، ولم يكن هذا يحدث كثيرا، ولكنه كان دائما يعود محملا، وكنت أفرح بعودته.. كان يحرص، كأم رؤوم، على أن أشبع، وبعد أن يصيب قسطا من الراحة، نعود إلى السير.. خلال النهارات، كان الأصعب هو التسلق ولكني كنت في النهاية أستطيع

أن اتابعه رغم العبء الذي كنته بالنسبة له وهـــو مقيـــد الحركـــة بسببـــي، ولكن المصيبة الأعظم، كانت السرى ليلا.. كـــان يبـــدو وكأنه يستطيع أن يستفيد حتى من نور نجم صغير ووحيد معلـــق في السماء ليتبين طريقه، أما حين يكون نور القمر متوافرا، فإنه يتحول إلى غزال مبتهج لا أستطيع اللحاق به حتى إن أستعنت بنور شمـــس كاملة.. كنا نسير في النهار حيناً وفي الليل أحياناً كـــثيرة ولـــذلك كانت محنتي كبيرة ولكن حدسه العجيب بقى يرعانا طوال الوقـــت فلم أناقشه أبدا، بل كنت أنتظر توجيهاته لأظل أسير خلفه مستسلما وهو يلتفت إلي بين الحين والآخر ويقول:

- (زي به)

لم أسأله أبدا عن معنى هذه العبارة، ولكني كنت على يقين من أنها تعني (إسرع) إستناداً إلى الحركات المرافقة لها التي كان يأتيها وقد إرتسمت على وجهه الجميل إمارات التعاطف والتفهم.

لم تخلُ تلك الأيام الثقيلة من لحظات سعيدة طبعا، فقد كـــان يعود مرات قليلة محملا برصيد من لفافات تبغ رخيصة، أو حتى حفنة تبغ وبضعة وريقات، يلفها بعد أن يرتـــاح بمهـــارة عاليـــة لنتمتـــع بلحظات صفاء نادرة ونحن ننفث دخانها على سقف العالم ذاك.

قلت لك أن التفاهم بيننا كان شبه مستحيل بســـبب اللغـــة، خاصة في القضايا التي تحتاج إلى نقاش ومراجعـــات، فلجـــأت إلى أسلوب التخمين عندما كنت أحاول استشراف نياته.. كان قد قال لي أنه يريد أن يذهب إلى أوربا وأنه يريد أن يطمئن عليَّ، فقـــدرت أنه مصطحبني معه خاصة وأنه أفهمني أكثر من مرة أن لا مكـــان لي على هذه الجبال بعد الأن بعد أن فعل الأكراد ما فعلوه.. فإلى أيـــن كان سائرا بـــي.. كان المنطق يقول أنه سائر بـــــي إلى تركيـــا..

هكذا خمنت، وبيقين غامض قدّرت أنه واصل بـي إلى هناك لا محالة، ولكن الذي كان يؤرقني هو كيف سيتعامل معنا الأتراك الذين لن يستطيع أن يؤثر بهم حتما رغم ما كان يتمتع به من حدس أو قدرات.. كنت راغباً جدا في مناقشة هذا الأمر معه، ولكن هذا كان مستحيلا كما أخبرتك، فبقيت أتبعه وكلي أمل بحسن الحظ الذي كان ملاذي الأخير وأنا في محنتي تلك.

سرنا حتى تصورت أني سأقضي المتبقي من حياتي سائراً.. سرنا، ونحن نتفادى أي مكان يمكن ان نلتقي فيه بأي بشر ولطالما اضطررنا إلى تغيير دروبنا، أو حتى اللجوء إلى تسلق المنحدرات الأكثر صعوبة من الجبال من أجل ذلك.. كنت أتصور أن كل قمة نرتقيها هي الأخيرة، ولكن رغبة هائلة بالبكاء كانت تنتابني حالما أرى الوادي الذي سننحدر إليه، قبل أن نتسلق القمم الجديدة التي تبدو لي وكأنها تريد أن تطعن السماء بأعاليها المدببة.. كان يسبقني دوما وانا أسير خلفه محملاً بهمومي وتساؤلاتي التي لا تنتهي، أحاول أن أتشاغل عنها فأدعو زها للسير معي والتمتع بالمناظر المذهلة التي نمر بها.. أظل أحادثها وأشجعها على الاسراع، وعندما تتعب، أحملها على ظهري وأنا أمازحها وأغازلها كما لم أفعل أبدا حين كانت معي بالفعل.. ينبهني شيرو الذي يكون قد ابتعد خلال ذلك الوقت ويطلب مني الاسراع، فأنزل حملي الخيالي وأسرع.. من عاداتنا أن يقول المرء للتعبير عن شدة حبه، أن حبيبته كانت معه طوال الوقت، ولكني لا أريد أن أكذب عليك فتلك الرحلة كانت من الضرب الذي لا تسمح أهوالها للخيال أن يجمح، ولذلك لا، لم يكن طيف زها برفقتي دائما، ومع ذلك أتساءل، أيعني لك شيئا أن تكون معي أحيانا في لحظات قد لا تخطر ببال أحد.. نعم أيها العزيز، هي كانت

معي عندما حوصرنا، مرة في قرية مهجورة وأخرى على سفح جبل والرصاصات تنهال علينا من حيث لا ندري ولا ممـــن.. وفي ثالثـــة كادت قنابر الهاون التي تستهدفنا أن تمزقنا إربـــا بشـــظاياها ونحـــن نركض بين أشجار الزان والصنوبر النامية على ضفة جدول يجري في أعماق وادٍ، ولكن شيرو كان يتفادى الموقف في كل مرة ويهـــرب بـــي إلى حيث لا يمكن لعيون المتربصين أن ترصدنا.. كانت معـــي وخشيت عليها للحظات، ولكني في كل مرة كنت أشـــعر بســـعادة لأنها كانت موجودة في مكان بعيد، وبأمان.. أو هكذا تصورت في حينها.

كنت على يقين من أن صاحبـــي سائر بـــي باتجـــاه تركيـــا، ولكن عندما طال الزمن عليّ بدأت أشك بأنه لربما ضلّ السبيل، ولا غرابة في الأمر طبعا، ولكنه أمر لم أتوقعه منه، لم يبد عليه أنـــه مـــن النوع الذي يضلّ، ومع ذلك لم أناقشه في الأمر، لأني شعرت بـــلا جدوى نقاش الطرشان الذي كان يجب أن نخوضه.. إتبعتـــه حـــتى النهاية، ولكني شعرت بالذعر عندما بدأنا نهبط باتجاه السهل الـــذي بدا لي ممتداً إلى ما لا نهاية على هدي الضياء الأول للشـــمس الـــتي أشرقت من خلفنا.. من خلفنا، أي أن الشمال أصـــبح إلى يميننـــا، وتركيا في الشمال.. صحت به:

- شيرو.. إلى أين؟

التفت إلي تسبقه ابتسامته الحلوة وقال مطمئنا:

- (نا ترسه)

نا ترسه.. لا تخاف.. يطلب مني أن لا أخاف، شيرو يطلب مني ذلك ولذلك لا بد لي من الإذعان، لن أزعزع ثقتي به.. لن أخاف، وهكذا كان.

أوينا بعد شروق الشمس إلى مخبأ إنتقاه لنا شيرو، ولم نغادره ثانية إلا بعد غروب الشمس.. بقيت أعاني من الجوع طوال ذلك اليوم الطويل، ولكن شيرو لم يتحرك من مكانه ليذهب بحثا عن طعام، وهو ما لم يفعله طوال الأيام التي قضيناها سائرين في تلك الجبال والشعاب والوديان.. عندما تحركت لأبادر أنا هذه المرة، منعني ولم يسمح لي بمغادرة المخبأ أبدا، حاولت أن أستفهم منه ولكنه لم يزد على أن يقول:

- خطير.. خطير.

وهكذا حكم علينا أن نعاني الجوع طوال ثلاثة أيام بلياليها.. نختبيء نهارا ونظل نسري طوال لياليها في أراض مستوية تقريبا.. بدا شيرزاد خلال تلك الأيام مرتبكا، مترددا، بل وخائفا أحيانا على غير عادته، خاصة حين كنا نجتاز ما بدا لي وكأنها شوارع رئيسة، وهو ما فعلناه أكثر من مرة خلال تلك الليالي المضنية الثلاث.. ولكنه ظلّ الدليل والمرشد حتى أوصلني ذات ساعة مظلمة في أواخر الليلة الثالثة إلى حيث سمعت خرير مياه، فعرفت أننا وصلنا إلى مقربة من نهر، كنا قد قطعنا خلال مسيرتنا أكثر من نهر، كنا نعبرها سيرا على الأقدام لأنها لم تكن أكثر من مخاضات.. ولكن هذا يبدو من خريره أنه أكبر من تلك بكثير.. ولكن، أي نهر هو، لم استطع أن أسأل وشيرو القريب جدا مني، يغلق فمي كلما حاولت أن أنبس ببنت شفة.. طلب مني بالإشارة أن أتوقف حيث أنا، وذهب.. عاد إلي بعد وقت شعرت به طال جدا، وأشار لي أن اتبعه، فتبعته وأنا أكاد أتعثر من شدة الظلام حتى تبين لي من خلال حجب الظلام، قارب صغير يقف إلى جانبه شخص، بدأت دقات قلبي تتسارع بشدة، كانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها شخصا منذ أيام لم يعد

بإمكاني أن أعدها.. ظلّ شيرو إلى جانبي وهو يكاد يلتصق بي، وعندما حاولت أن القي السلام، سارع إلى إغلاق فمي بيده مرة أخرى وهمس في أذني:

- (نا.. نا)

فهمت أنه لا يريدني أن أكلم الشخص فامتثلت لأمره.. دفع الرجل بالزورق إلى النهر وصعد، صعدنا بعده وجلسنا، فراح يجذف.. تصورت، والمنطق يفرض هذا، أن اجتياز النهر سيكون هينا ما دام ليس بدجلة أو الفرات، ولكن الرجل ظلّ يجذف لدقائق طوال بدت لي دهرا، وشيرو يمسك بيدي ويشد عليها بقوة تشي بمدى توتره الذي انتقل إلي حتما.. أخيرا، وصلنا إلى الضفة الأخرى فغادرنا القارب بصمت، ليعود به صاحبه من دون أية كلمة.

لم يضيع شيرو الوقت بل أمسك بيدي وراح يحث الخطى مبتعدا عن ضفة النهر.. لاحظت أن قبضته قد خففت من ضغطها على يدي كثيرا ولكني عللت ذلك بِانشغاله في ملاحظة موطيء أقدامه وهو يسرع في ظل الظلمة المحيطة بنا.. أخيرا، ومع بدء هزيمة الظلمة أمام جحافل الضوء المتقدمة تحت رعاية الشمس المتهيئة للشروق من خلفنا، كنا قد إبتعدنا عن ضفة النهر ولكنه كان لا يزال في مرمى البصر.. هالني عرضه غير المتوقع حين التفت لألقي نظرة عليه.. تساءلت مع نفسي "أي نهر هو هذا" ولكني لم أفكر في أن أسأله لتأكدي من أنه لن يفهم سؤالي.. مشينا بضعة مئات أخرى من الأمتار قبل أن يقف أخيرا.. إلتفت إلي مبتسما ثم احتضنني وهو يقبلني ويضحك.. لم أفهم ما حدث حتى رحمني بقوله:

- سوريا.. سوريا

عندها فقط فهمت أنه سار بـــي كل الطريق إلى سوريا.. عبر بـــي العراق من شرقه إلى غربه ليوصلني إلى سوريا.. عبر بـــي نهـــر دجلة نفسه، إلى سوريا التي كنت أعرف أنها ترحـــب بالشـــيوعيين الفارين نكاية بعدوها الرئيس، النظام العراقي.. بكيت يـــا أســـتاذ.. بكيت بحرقة عندما عرفت أني أصبحت أخيراً في أمـــان.. بكيـــت واشبعت خدود شيرو تقبيلا، وأنا أعبر عن شدة إمتناني.

كنا في تلك الساعة بأشد الحاجة إلى الراحة بعد تلـــك الليلـــة الطويلة التي سرنا فيها بالظلمة كمجنونين يهربان من سترات المجانين التي يطاردونهما بها.. لكن شيرو أبى علينا أن نرتاح، بل إقتادني مـــن يدي وهو يشير إلى فمه بيده ويقول:

- (أزي برسيمه.. برسيمه)

كنت جائعا انا الآخر ولذلك سرت معه والفرح الوليد يملـــؤني طاقة ومعنويات.. ولكن أين نجد الطعام في هذا القفـــر المـــوحش لم اشغل بالي كثيرا بهذا السؤال، فقد كنت مع شيرو.. بـــدأت الأرض بالارتفاع من تحتنا ولكن شيرو لم يخفف من سرعة سيره.. وأنا معه. بعد ساعة أو أقل.. أو أكثر، إلتقينا بصبية يرعون قطيع صـــغير مـــن الماعز بدوا وكأنهم خرجوا لنا من أعماق هذه الأرض الـــتي لم يبـــد عليها أنها يمكن أن تكون مسكونة، هرع شـــيرو ليتحـــدث إلـــيهم قليلا.. رأيتهم يشيرون بأيديهم باتجاه معين.. عاد شيرو وقـــد مـــلأ البشر محياه وأشار إلي أن أسير.. لم يمض وقت طويل هذه المرة، حتى رأينا كوخا يستظل بجبل شاهق، أسرع إليه ليدق على بابه بيـــده.. ظهرت له امرأة حدثها قليلا، فإذا بها تحتضنه وتقبله وهي تصـــيح.. ظهر من خلف الكوخ رجلا أسرع إلى شيرو ليحتضنه ويقبله هـــو الآخر.. إلتفت إلي شيرو أخيرا ودعاني للإقتراب.

في ذلك الكوخ الدافيء الجميل، إستمرت معاناتي مع لغة الإشارات.. تصور أن شيرو تحول إلى مترجم لي.. عرفت بطريقة ما أنهم كانوا أقارب له لم يرهم من قبل أبداً، فتعاظمت حيرتي إذ تساءلت عن الكيفية التي قادني بها باتجاه كوخهم بالضبط.. أواه أيها الكريم لو رأيت مدى الكرم الذي عاملونا به.. هم فقراء.. فقراء جدا.. ولكنهم حرصوا على إشباعنا حد التخمة، بعد زغب تلك الأيام الرهيبة، و لم يألوا جهدا في رعايتنا طوال اليوم الذي قضيته معهم.

في الصباح الباكر لليوم التالي، أيقظني شيرو.. تناولنا فطورا شهيا ثم خرجنا ورب الأسرة الكريمة يصطحبنا.. سرنا ساعة أو ساعتين حتى بان أمامنا مبنى بدا لي رسميا من مظهره على البعد.. أشار شيرو إليه وهو يقول:

- سوري.. سوري

فهمت بذلك أنه هو المكان الذي يجب أن أذهب إليه لأسلم نفسي وأحصل على المساعدة المبتغاة.. إلتفت إلى الرجل الكريم لأصافحه، فاحتضنني وقبلني وهو يتمتم بكلمات لم أفقه منها شيئا.. شكرته بقليل من الكلمات والكثير جدا من الابتسامات ثم التفت إلى شيرو منتظرا أن نتابع المسير أنا وهو، ولكني فوجئت أنه يمد لي يدا ليصافحني.. جمدت في مكاني وأنا أرفض تصديق دلالة هذا الأمر.. لاحظ صديقي ذلك فأفهمني بأنه باق مع أقاربه ليتدبر أمر سفره من هنا، فهذا أفضل له.. لم أحتمل فكرة أن أفارق شيرو، فبكيت.. بكينا معاً وكل منا يحتضن الآخر ويقبله حتى حانت لحظة الفراق.

في المخفر.. استقبلوني استقبالا جيدا.. سلمتهم بطاقتي الشخصية وسألوني بضعة أسئلة وثقت مع إجاباتي بمحضر.. بقيت

بضيافتهم حتى صباح اليوم التالي لينقلوني إلى المالكية، حيث إستمرت إجراءات التحقيق الروتينية التي نقلتني إلى الحسكة، ومن هناك إلى دير الزور البعيدة.

في دير الزور، وبعد المزيد من التحقيقات، بقيت بضعة أيام أخرى حتى صار عندهم مجموعة من الشيوعيين الفارين الذين إزداد عددهم في تلك الأيام العصيبة، لينقلونا أخيراً إلى دمشق.

في الرابعة من عمره، غدا يوسف طفلا رائع الجمال، فأغمّ ذلك والده رغم ولعه الشديد به.. كان رجلاً واقعيا، يعرف أن الشـــارع مآل الصبيان في النهاية، ويدرك جيداً ما قد يتعرض له طفله الحبيـــب من تجارب لا تحمد عقباها في ذلك المجتمع المكبوت، بسبب جماله.. ولذلك كان قراره أن يسمح له بالخروج للعب مع أترابه، خاصة أنه كان يخشى عليه من ضرر كونه الوحيد بين أربع أناث في البيـــت، على أن لا يبعده عن نظره ما استطاع إلى ذلـــك ســـبيلا، مـــا دام موجودا في البيت.. أما عندما لا يكون، فقد أصدر أوامر صارمة أن لا يغيب (يوسف) عن عين رقيب، ولذلك كانت تكلف واحدة من أخواته بالبقاء عند باب الدار لتراقبه وهو يلعب في المساحة المخصصة له، والمحددة بمنازل ثلاثة من الجيران في كل اتجاه، وكان الإتفاق على هذا الأمر هو واحد من الأمور النادرة التي إتفقت فيها أم يوسف مع زوجها، فقد كانت هي الأخرى تهتم طبعاً لمصلحة وحيدها المـــدلل، ولذلك سكنتها نفس الخشية التي جعلت الأب يصدر تلك الأوامـــر التي لم تجرؤ الفتيات على تجاهلها، أو التراخي فيها.. كان الزوجـــان يرفضان رفضاً باتاً أن يدخل ولدهما بيت أي من الجيران بعيدا عـــن عين الرقيب.. كان ذلك خطاً أحمرَ حتى أصرّ يوسف على أن يدخل بيت تربه (فريد) ابن (أم هلال) ليلعبا معاً هناك فلم يجـــدا بأســـا في ذلك، لأن (هلال) الابن الأكبر الذي كان يفصله عن (فريد) اختان لا يخشى منهن طبعا، في التاسعة من عمره، والأهم، لأن (أم هـــلال) كانت الجارة المفضلة عند (أم يوسف) وصديقتها المقربة.. هما لم يريا في الطفل هلال خطراً على يوسف لأنه لم يخطر ببالهما أبدا حقيقة أن الطفل الأكبر يكون هو الخطر أحياناً على الأصغر منـــه، خاصـــة أن هلال كان حينذاك يلامس حدود مراهقته التي تـــاه في ظلماتهـــا في

وقت ما من السنتين التي ظل يوسف يدخل فيها بيتهم بكل حرية ليلعب مع (فريد) فيشاركهما ألعابهما أحياناً.. هكذا شاء حظ (يوسف) أن يكون المتنفس الوحيد المتاح أمام (هلال) بعدما تركز عالمه بين ساقيه في غفلة عن المحيطين بهما.. لم يعجز (هلال) عن ابتكار الخدع التي تتيح له أن ينفرد بـ (يوسف) في أعماق البيت أو السطح، ليترك بما فعله معه آثاراً عميقة في نفس (يوسف) الذي احتاج إلى وقت طويل جداً ليتخلص منها.. أو في الأقل، أن يخفف من وقعها على نفسه.

الليلة الحادية عشر

متعباً، قلقاً ومتسائلاً عمّا سيكون من أمري، وصلت إلى دمشق، رغم أن الأيام الخالية من الظروف القاتلة التي عشتها قبل الوصول إلى سوريا، كانت قد هدّأت أعصابي قليلاً، ومنحتني طمأنينة جعلتني أرى الأمور بمنظار آخر نسبياً، ولذلك لم أر في هذه المدينة التي وصلتها شيئا مميزاً.. كانت الأسئلة تمور في داخلي، والفضول تجاه أول عاصمة غير بغداد، أزورها، يكاد يتآكلني.. مضوا بنا فوراً إلى دائرة حكومية حيث أخضعونا إلى تحقيق آخر، وأخير، كما أخبرونا.

قال لي المحقق وهو يطيل النظر في وجهي:

- والآن أخبرني عمّا تنوي فعله.

فوجئت تماما بسؤاله الذي لم يدر بخلدي في تلك اللحظات مثله.. كنت أتمنى أن يوجهوني لا أن يسألوني، فمن أين لي أن اعرف ما أنوي فعله وأنا لا أمتلك شروى نقير في مدينة غريبة لا أعرف فيها أحدا.. لم أجبه، بل زممت شفتي دلالة على خلو ذهني من أية أفكار.. قال:

- أين هي أغراضك؟

فضحكت وقلت:

- الغرض الوحيد الذي أمتلكه موجود عندكم.

فقطب قليلا وقال:

- لم أفهم.

قلت موضحاً:

- أُقصد بطاقتي الشخصية التي أمامك.. هي كل أملاكي في هذه اللحظات.

تمعن باستغراب واضح في وجهي قبل أن يقول:

- وأنت لا تعرف إلى أين تذهب بكل تأكيد.

فأومأت إيجابا برأسي وأنا صامت.. فقال متابعا:

- في هذه الحالة سنرسلك إلى مقر الحزب الشيوعي السوري.. سيساعدونك هناك.

اللطيف في الأمر هو أني حين سمعتهم يتكلمون عن مقر الحزب في المزرعة، تصورت أنهم سيأخذونني إلى خارج دمشق، فرحت أرسم صورة خيالية لهذه المزرعة التي تضم مقرا لحزب.

في مقر الحزب الشيوعي السوري الذي تبين لي أنه يقع في منطقة المزرعة في قلب دمشق، إستقبلوني بنحو جيد، وقدموا لي الكثير من النصائح، وأبدوا لي استعدادهم لمساعدتي في الحصول على الإقامة القانونية في سوريا، ولكن الحيرة بانت عليهم عندما عرفوا أني لا أمتلك فلسا واحداً.. تبادلوا النظرات، وهامسوا.. تناقشوا فيما بينهم، واقترحوا.. تبادلوا الأفكار، وصمتوا.. وحين عرض عليَّ أحدهم أن يستضيفني في بيته، بان الإرتياح على وجوههم، ولكني تمنعت رغم حاجتي.. كما يجدر بنا كعراقيين في مثل هذه الأحيان، ثم ذهبت معه.

كان بيت فؤاد.. (أبو ياسمين)، شقة صغيرة، صدمت عندما رأيت مدى ضيقها، فكدت أعود أدراجي، ولكن إلى أين؟.. استقبلتنا زوجته بحرارة، فهالني أن أراها على ذلك الجمال وشعرت

بعدم الإرتياح فورا إذ كنت قد عانيت الكثير من الحرمان على قمم الجبال التي أتيت منها و لم أكن مهيئا لإحتمال أي إغـراء يمكن أن أتعرض إليه.. لم أستطع إلا أن افكر.. ترى ما قاله هذا الرجل الطيب لنفسه وهو يدخلني إلى بيته هكذا.. وما قالته زوجته لنفسها وهي تستقبلني بملابس البيت التي لم أتعود على رؤية النساء الغريبات وهن يرتدينها.. ولكن المفاجأة الحلوة كانت حين تعرفت على ساكن البيت الآخر.. ابنتهما الصغيرة، ويا لها من طفلة!.. كانت ياسمين واحدة من أجمل المخلوقات التي رأيتها في حياتي بشعرها الأشقر المنسدل وملامحها الحلوة الدقيقة.. دخلت الصالة التي كنا فيها بكل ثقة، و لم تستغرب حين رأتني.. بل جلست إلى جانبي فورا حين دعوتها، وراحت تحدثني بأحلى ما يمكن لطفلة في عامها الرابع أن تتحدث به.. لم أتصور في حينها أن هذا سيكون حال معظم الأطفال الذين التقيت بهم هناك، كما لاحظت فيما بعد، ولكن هذا موضوع آخر.. المهم هو أني آليت على نفسي في لحظة رؤيتهم أن لا أخون الثقة التي أولوني إياها، فألزمت نفسي بما أثقل عليها طوال الأيام التي قضيتها معهم.. كنت دائما أشعر بعدما آوي إلى النوم، بالحاجة إلى تفريغ مثانتي بعد ساعتين أو ثلاث، معظم لياليّ، وكان هذا ما يجعلني استيقظ في أثناء الليل، ولكن وجود حمام شقتهم إلى جانب غرفة نومهم، جعلني أقرر أن لا أذهب إليه حتى يستيقظوا لئلا أفاجأ بموقف محرج معهم، ولذلك بقيت أعاني من المثانة المليئة طوال الليالي التي قضيتها معهم في شقتهم، و لم أحاول ولو لمرة واحدة أن أفرغها قبل أن يستيقظوا فكان هذا عذابا مقيما.

في الصباحات، كنت أغادر فراشي الذي هو أريكة تتحول إلى سرير بسحب قاعدتها، موجودة في صالة الشقة.. أغادره بعد أن

أتأكد من أنهم استيقظوا، وأظل أتنحنح حتى أثير ضحكهم فيبتدؤون بممازحتي بشأن ما أفعله وهم يقسمون لي، مازحين، أنهم عرفوا أني مستيقظ.. أتناول الفطور معهم وكلّي حرص على أن لا أبدو نهما، فأغادر المائدة ولم أبلغ حد الشبع بعد، وأسارع إلى تبديل منامتي التي تنازل لي رب البيت عنها، بملابسي الوحيدة التي أمتلكها، لأغادر معه حين يغادر إلى عمله.. كان يلح عليَّ أن أبقى في البيت بلا شعور بالحرج، مستغربا خروجي في تلك الساعة المبكرة رغم خلو جدولي من أية مهام مطلوبة.. ولكن ذلك كان مستحيلا بالنسبة لي، فأصر على أني أحتاج إلى الخروج، وما أنا بمحتاج.. أسير معه قليلاً ثم أودعه، لتبدأ حيرتي.. إلى أين أذهب وأنا لا أعرف المدينة جيدا، والأنكى أني كنت مفلساً.. بمرور الأيام، تعودت على أن اخترق شوارع المدينة القديمة، ابتداءً من باب توما التأريخي الذي يذكر بعراقة هذه المدينة.. أسير وأنا أتفحص تلك الأزقة القديمة التي تفوح (النظافة) منها.. أهيم في الحواري البالغة الجمال محاولا استهلاك الساعات الذي لا تزداد إلا بطأً.. يرفض الوقت أن يرحمني، فأوغل في المسير.. في البداية، كنت أمر أكثر من مرة بالجامع الأموي، ولكني لم أفكر بالدخول.. وعندما دخلت أخيرا، مضطرا بعد أن مللت من الأمكنة التي كنت لا أبتعد عنها خشية الضياع، اكتشفت عالما من الهدوء والطمأنينة، والأفضل هو أنه أصبح بإمكاني أن أنعم بساعة أو ساعتين من نوم مريح نكاية بسهر الليل البغيض.. كنت أجلس في الباحة الكبيرة للجامع وأنا أراقب الناس الذين يدخلون لرؤية ذلك الصرح التأريخي، أو ليقضوا ساعة روحانية تبعث في نفوسهم الأمان.. أتمتع بمشاهدة الأطفال وهم يلعبون فرحين في تلك الساحة الفسيحة.. أراقب الشحاذين، فأحسدهم، فهم في الأقل

يصبح عندهم في النهاية نقوداً قليلة تقيم بأودهم.. أفكـــر، فـــألعن نفسي.. ويحك كيف تفكر هكذا، ولكي أبعد تلك الأفكـــار عـــن بالي، أتبادل أحاديث وأحاديث مع زها التي كانـــت قـــد عـــاودت هوايتها القديمة، أن تسترق النظر إلى ما أشاهد من خـــلال عـــينيّ.. نحاول أن نتخيل أشكال أطفالنا حين نتزوج مستعينين بالوجوه الحلوة والطافحة بالبشر التي تتراكض أمامنا.. أناجيها، "تعالي يـــا حبيـــبتي فأطفالنا بأشد الحاجة إليك.. اما ســـألت نفســـك يومـــا، كيـــف سيولدون إن أصررت على الغياب؟".. تقطب في خيالي حين أصـــر على أن يكونوا عديدين، لأبتسم لها وأقول (الله كريم).. في الضحى، أتسلل إلى مكان الصلاة لأستلقي، وأنـــام، فيوقظـــوني قبيـــل آذان الظهر.. اتظاهر أني ذاهب لأتوضأ فأخرج من الجـــامع، لأعـــود إلى ضياعي منتظراً وقت عودتي إلى البيت.

هكذا تكررت أيامي طوال أكثر من أسبوعين قضيتها معهم، و لم يطرأ عليها تغيير إلا يوم اصطحبني أبو ياسمين، مضيفي الكريم، لإتمـــام أوراق الإقامة لي، وحينها فقط اكتشف أني لا أمتلك حتى مصـــروف جيبـــي، فهاله الأمر.. كنت اعرف أنه ليس ميسور الحال أبداً ولذلك رفضت أن أقبل المبلغ البسيط الذي أقسم بأغلظ الإيمان من أجل فرضه عليَّ.. رفضت بإصرار و لم استجب رغم توسلاته، ونوبات الغضـــب التي امتلكته.. رفضت رفضاً باتاً، فبقيتْ نهاية سوق الحميدية البعيـــدة عن الجامع الأموي، هي حدودي التي أجول بها.. سرت في الحميديـــة حتى جزعت منها، وأنت تعرف معنى أن تسير بين بضائع متنوعـــة لا تستطيع أن تقتنيها ولكني لم أتعد بدايتها من هناك أبداً.

كنت أشعر بسعادة بالغة حين أعود إلى البيت قبيـــل العصـــر وأجد أن الرجل قد وصل.. كان ذلك يعني أني سأستطيع أن أصيب

شيئاً من طعام لم يشبعني أبدا.. لا لقلته، بل لأني لم أسمح لنفسي أن آكل أكثر من اللقيمات الضرورية لتهدئة عصافير بطني التي أدمنت الزقزقة في تلك الأيام الصعبة.. أحل مشكلة الطعام، ولكن مشكلة النوم تبقى قائمة حتى ينهي التلفاز برامجه اليومية، ليأوي الزوجان إلى مخدعهما، فتعودت أن أقضي الوقت مع صديقتي (ياسمين).. ابنتهما.. وكانت خير صديق، فلطالما قضينا أوقاتا ممتعة ونحن نتمازح ونتبادل الأحاديث وكأننا ندّان.. كانت طفلة ذكية جدا، هي التي علمتني مفردات عديدة من اللهجة السورية اعانتني كثيرا فيما بعد.. لقد كادت هذه الياسمينة أن تبكيني ذات يوم كنت نعسا جدا خلاله، فإذا بها تصر على البقاء معي بعد ذهاب والديها، ولكن لحسن حظي أنهما أبيا عليها بحزم أن تبقى، رغم محبتهما الشديدة لها.. يذهبون، فآوي إلى فراشي المتحور وأنا أمني النفس أن لا توقظني مثانتي (المدرّة) بعد ساعتين أو ثلاث.. ولكن هيهات.

مبكرا، في ذات صباح.. سمعت، قبل أن يدعوني مضيفي إلى الفطور، الجرس يرن مصحوباً بقرع شديد على الباب.. لم يبد الأمر جيدا في حينه، فشحذت حواسي وأنا أرفع رأسي عن الوسادة لأجلس على فراشي منتظراً ما سيحدث، فقرع مثل هذا لا بد أن يتبعه حدث.. سمعت الباب تفتح، وصوت الرجل وهو يناقش أحداً ما.. لم استطع أن أميز من مكاني غير كلمة (ليش).. لماذا ماذا؟.. لم استطع أن أخمن، ولكن نبرات صوت الآخر جعلت قلبي ينزلق إلى أحشائي كما هي عادته حين يخاف.. بقيت جالساً وأنا أصيخ السمع لعلي أستطيع أن أفهم ما يجري، ولكن الحديث كان قد إنقطع فجأة، وحلت محله أصوات خطوات بدا واضحا أنها تتقدم نحو الصالة.. حيث أنا.. فتح الباب، فدخل الرجل مع ثلاثة أغراب تبدو

على وجوههم علامات الجدية والاستعداد للقسوة.. حاولت أن أنهض لإستقبالهم، ولكن خوري منعني.. تقدم مني أحدهم وقال متسائلا:

- أنت يسار محمد محمود؟

فأجبت بنعم وصوتي يرتجف.. قال:

- تفضل معنا.

قلت بلا وعي:

- إلى.. أين؟

فرد بصوت ثابت وأجش:

- بلا أسئلة.

عرفت عندها أن الأسئلة لن تجدي، فقد كان واضحا أنهم رجال أمن، ومثلي لا يحتاج إلى ذكاء كبير ليتعرف عليهم.. كنت لابسا المنامة، فقلت بصوت مستعطف:

- أبدل ملابسي؟

فقال بحزم:

- لا داعي.. تعال معنا كما أنت.

عوى الخوف في أعماقي، وهزت كياني الخشية.. رحت أجيل في الوجوه ناظري حتى استقر على وجه الرجل المضياف.. اِسترحمته بنظراتي، فبان الاشفاق في عينيه، أراد أن يقول شيئا، ولكنه سكت قبل أن ينطق، فأهاج بذلك رغبة عارمة في البكاء عندي، ولكني قاومت رغبتي.. عندها عرفت أنه لم يبق أمامي إلا أن أخضع للأمر القاسي.. كان من حسن حظي أن يكون نعالي قريبا من قدمي حين نهضت، فانتعلته، ولولا ذلك لأخذوني حافي القدمين.. كنت متأكدا من ذلك.

اِقتادوني إلى الخارج، حيث لاحظت أن السيارة الـــتي كانـــت بانتظارنا، قد احتفظ سائقها بمحركهـــا دائـــرا.. صـــعدنا إليهـــا، فاَنطلقت.. بعدما سارت قليلا، طلب مني الجالس إلى جانبـــــي أن أنحني، فعرفت أن الأمر قد بدأ مرة أخرى بعدما ظننته قد انتـــهى إلى الأبد.. ترددت قليلا، فجعلتني صفعة أمتثل علـــى الفـــور، ولكـــني لاحظت فورا أنها كانت أرحم من مثيلاتها العراقيـــات.. لم تكـــن تمتلك غلّ تلك الصفعات، ولكن هذا لم يكن يمثل ســـلوى معتـــبرة بالنسبة لي، ولا أملا في تلك اللحظات.. حجبوا ناظري، وأنت بتّ تعرف بالتأكيد المكان الذي أخذوني إليه، بغض النظر عن المسميات التي لا تشكل فرقاً.. وعندما دخلت، بعد بضعة صفعات اضـــافية، سورية، لا عراقية، إلى حيث افترضت وجود المحقق، فوجئت بصوت آمر يقول:

- أزيحوا هذا عن ناظريه.

كان (أبو دفرة) اللعين حاضرا بقوة في بالي، فتســـاءلت مـــع نفسي "أهو أسلوب جديد للتعذيب؟".. ولكنهم أزاحوا العصابة عن عيني.. عندما إستردد نظري، لفت اِنتباهي الوجه الجميل للرجـــل الجالس أمامي خلف مكتبه.. بدا لي بشاربيه الأســـودين، وشـــعره الممشط بعناية، وببدلته الأنيقة، ممثلاً أكثر منه محققـــا.. فكـــان أول سؤال خطر ببالي لحظتها "أكان صاحب ذلك الصوت الآمر في بغداد الذي امتهن إنسانيتي، يبدو كهذا؟" ولكن أنّى كـــان لي أن أجـــد جوابا.. قال لي السيد (الممثل) بعد أن تمعن بـــي قليلاً:

- ما اسمك؟

فأجبت على الفور وأنا أسابق الصفعة المتوقعة:

- يسار محمد محمود.

قال:

- أتعرف لم أنت هنا؟

فأجبت محاولاً أن أبدو واثقا بعدما غيّر الإفراج عن نظري، من مزاجي وجعلني أكثر هدوءاً:

- لم يخبرني أحد بذلك.

فالتهب قفاي بصفعة من شخص كان يقف خلفي.. لا، كانت عراقية هذه المرة.. ركّز الرجل الجميل نظراته عليّ وكأنه كان يريد ان يراقب ردود أفعالي.. قلت بأقصى ما استطيعه من شجاعة في تلك اللحظات الرهيبة:

- أرجوك يا أستاذ.. لا تضربوني.. سأقول لكم كل ما تريدون معرفته.. وإن كان لا بد من إعتراف ما فسأعترف بما تريدون.. فقط لا تضربوني.

لاح ظل ابتسامة على زاوية شفتيه، ولكنه تدارك، وقال:

- حسنا، سنرى.. ما علاقتك بالمخابرات العراقية؟

فقلت بثقة:

- أنا شيوعي هارب من ظلم النظام العراقي يا سيدي، فكيف تكون عندي علاقة بمخابراته؟

قال:

- أنا الذي يسأل.. وردتنا معلومات مؤكدة تقول أنك تعمل لصالح المخابرات العراقية.

ثم سكت، ليضيف بعد قليل:

- المعلومات من داخل العراق.

وسكت، ثم أضاف:

- من الحزب الشيوعي العراقي تحديداً.

عندها فهمت كل شيء، هم لم يكونوا ليرتضـــوا بهروبـــــي ولذلك لا بد من الكيد لي.. لا لا ليس الحزب.. بل أولئك الأبالسة وأعوانهم.. قلت بهدوء حقيقي هذه المرة:

- أستطيع أن أشرح لك هذا، فقط اِعطني الوقت اللازم.

فقال على الفور:

- لك هذا، ولكن إياك أن تكذب.

فأجبت من تردد:

- أقسم بالعقيدة أني لن أكذب، وإن شعرتَ بأني أفعل، فأنا بين أيديكم وبإمكانكم أن تفعلوا بـــي ما تشاؤون.

وقع قولي هذا موقعا حسنا من نفسه كما خمنت من النظرة التي ألقاها عليَّ وهو يشير إلى الكرسي الموجود أمام مكتبه ويقول:

- حسنا.. تعال أجلس وحدثني.

إرتجّ عليّ الأمر، وأصابني الاضطراب.. أي تحقيق هو هذا.. أن أجلس وأتحدث.. وللمرة الثانية سألت نفسي، "أهو أسلوب جديـــد في التحقيق؟".. بقيت واقفا في مكاني وأنا حائر، ولكنه إقتلعني مـــن ترددي حين قال بحزم "أجلس"، فجلست.. حدثته عن كل شـــيء.. كما حدثتك بالضبط.. أقصد ما استطعت أن أتذكره، فمســـتحيل تذكّر كل التفاصيل في تلك اللحظات الحاسمة.. أو فلنقل حدثته كما حدثتك، ولكن بتفاصيل أقل، ولكني أحكمت روايتي حتى أوصـــلت إليه ما أريده بالضبط.. قال بعد تفكير:

- حسنا.. أنا أصدقك، ولكنهم يقولون أنهم على ثقة تامـــة بمعلوماتهم.. فكيف تريدني أن أتصرف؟

لم أحر جواباً، بل نابت عني نظراتي المتوسلة.. قال بعد لحظات أخرى من التفكير:

- حسناً، سأساعدك.

فكادت الدموع تتفجر من عينيّ.. لم أستطع أن أصدق بـأني يمكن أن أتخلص من هذا المأزق ببضعة صفعات فقط.. ولكني لم أقل شيئا، بل انتظرت أن يتم ما يريد قوله.. أكمل:

- ولكني أعرفهم جيدا، لن يدعونك وشـأنك.. سـيبقون يكيدون لك، وأنا لن أستطيع إنقاذك في كل مرة.

تقافزت التوسلات من عيني رغم أن شفتيّ لم تنبسا بحـرف.. قال متسائلاً:

- ألديك حاجات في البيت الذي آواك؟

فقلت وأنا مشتت البال، إذ بدا لي مدلول السؤال واعداً جداً:

- كلا.. ملابسي التي أتيت بها إلى سوريا فقط.

فتساءل:

- أتستحق أن تذهب في طلبها.. أهي ثمينة؟

عندها فقط استطعت أن أبتسم للمرة الأولى في ذلك الصباح.. كانت ابتسامة منكسرة ذليلة، ولكنها ابتسامة.. قلت:

- أقول عنها ملابس، مجازاً.. هذه المنامة أثمن منها.

فقال وقد بان الارتياح على وجهه:

- حسنا، اِتركها إذاً.. أنا لا أريدك أن تذهب إليهم.. دعهم يتصورون أنك في ضيافتنا.

لم أفهم قصده في البدء، فأنا كنـت في تلـك اللحظـات في (ضيافتهم).. ولكنه سرعان ما جعلني أتنفس الصعداء حين قال:

- سأطلق سراحك، ولكن عليك الابتعاد نهائيا عن مخالطـة العراقيين.. لا أريد لعيونهم أن تقع عليـك.. كـن غـير موجود بالنسبة لهم.. أفهمت؟

أومأت برأسي أن (نعم) وأنا أقاوم الرغبة في أن ألقي بنفسي عليه لتقبيله.. بدا للحظات التفكير عليه، ثم قال متابعاً:

- الآن، أريد منك أن تنتظرني حتى نهاية الدوام.. سأصطحبك بنفسي إلى صديق لي.. صاحب مطعم، عسى أن يرتضيك عاملا في مطعمه.. هل عندك اِعتراض على العمل في مطعم؟

فقلت على الفور:

- أي شيء.. فقط أريد أن أعيش حياتي بسلام.

انتظرته في غرفة أخرى أرسلني إليها حتى انتهى عمله، فاصطحبني معه بسيارته الخاصة إلى ساحة المرجة حيث عرفني على صديق له، صاحب مطعم هناك، ارتضى أن أعمل لديه كغاسل صحون.. لم تكن عملية غسل الصحون هي ما أخجلني في تلك الأيام، فأنا شيوعي في النهاية و لم يكن لي أبداً أن أعتبر عملاً ما، باعثاً على الخجل.. ولكن الذي اشعرني بالمهانة كان هو اضطراري للبقاء بالمنامة طوال الأيام الأولى لعملي هناك.. كانت الأطباق والكؤوس والملاعق والشوكات تنهمر عليَّ طوال الوقت، فأظل أغسلها مراراً وتكراراً، منذ الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل.. بعد إغلاق المطعم، أبدأ عملية تنظيف المطبخ حتى أنتهي، وحينها فقط أستطيع أن أمد فراشي الذي زودني به صاحب المطعم، وأنام في المطبخ الذي رفضت أن أغادره حتى أدخرت مبلغاً من أجري الذي لم أكن أنفق منه شيئا، اضاف عليه صاحب المطعم مبلغاً آخر لأشتري ملابساً لي.

بعد أن أصبحت عندي ملابس صالحة للإرتداء، وبعد أن توفر لي مبلغ آخر كان يمكنني أن استخدمه كمصروف جيب، خصصوا

لي يوم استراحة من العمل المضني.. في البدء لم استطع أن أخرج مرتاحا، فقد كانت نصيحة منقذي أن أبتعد عن العراقيين لا تزال حاضرة في ذهني، كما كان الرعب من تلك الزيارات المفاجئة يغتال كل فرصي في الشعور بالسعادة الخالصة.. ولكني مع ذلك، أقنعت نفسي أن لا أحد يعرفني ولذلك استطعت أن أخرج لأتجول في دمشق مع صديقي السوري، يونس.. رفيقي في العمل بالمطعم، الذي أخذ على عاتقه مهمة تعريفي بمدينته الأثيرة.

كنا نجول في شوارع دمشق النظيفة وأسواقها ونقضي الساعات ونحن نضيّع أنفسنا في زحمة الناس، نسأل عن أسعار الأشياء ونساوم، لا لنشتري، بل لنتصرف كما يفعل الآخرون.. لكي نشعر بأن ما نحمله من نقود قليلة في جيوبنا يمكن أن تشعرنا بسعادة مضافة، وكانت تفعل.. في تلك الأيام، عدت للتجوال في حواري دمشق التي كنت أجول فيها أيام الهروب من البيت الذي آواني، فرأيتها أجمل.. نعم يا أستاذ، اكتشفت دمشق أخرى غير التي تراءت لي في البداية.. دمشق جميلة.. سحرتني وخلبت لبي.. دمشق جديدة أبرزت مفاتنها أمامي فبدأت أغرف منها ما أستطيع، وهذا لم يكن بالكثير طبعا ولكنه ساعدني كثيراً، في التغلب على كرّ الخوف الدائم على نفسي، في الأقل.. كما ساعدني على توسيع دائرة تجوالي في هذه المدينة الجميلة التي يكاد المرء أن لا يملها، ففتح ذلك أمامي آفاقاً لإكتشافات أخرى.. المدن يا صديقي في ناسها، لا في معمارها، فهذا الأخير يفقد اثره في التمييز في مدننا الشرقية التي تبدو كلها متشابهة تقريبا، وإن بدت دمشق الصغيرة آنذاك تختلف كلية عن بغداد الكبيرة التي نهضت بقوة إبّان السبعينات.. ولكن الذي بهرني وأثار اعجابي في دمشق، هم ناسها.. بدوا لي مختلفين جداً عن

أهلي، وهذا ما راقني.. صحيح أنهم كانوا يبدون باردين جداً، وخاصة حين تحييهم، فيردوا بإيماءة أو هزة من رؤوسهم تكاد لا ترى، ولكن التعامل معهم كان أسهل بكثير من التعامل مع العراقيين.. أتعرف لماذا؟.. في تلك الأيام اكتشفت لماذا.. لأنهم أكثر مدنية.. صحيح أن للمدنية تأثيراتها السلبية على قيم البشر، ولكن يبقى التعامل مع ابن المدينة أسهل من التعامل مع البدوي، وكان هذا ما فسر لي لِمَ كنت أشعر بأن صفعات رجال مخابراتهم كانت أهون عليّ من صفعات رجال الأمن العراقيين.. كانوا أكثر توازناً نفسياً، فكان من الطبيعي ألا يقسون على إنسان لا يعرفونه، كما كان يفعل ابن العاهرة (أبو دفرة) معي.

ولكن أتعرف ما الذي آذاني أكثر في تلك الأيام، وخلّف عندي لوعة لم أستطع أن أتجاوزها إلا بعد لأي.. أنا أقول لك.. النساء.. بنات دمشق.. الشاميات كما يسمونهن.. يا لله ما أروعهن!.. هناك رأيت جمالاً انثوياً خارقاً.. مخيفاً.. عندما كنت أسير بين السوريين في دمشقهم، كنت أتساءل مع نفسي إن كانوا عربا بالفعل، فبعضهم لا يبدو كذلك ابدا، وخاصة ذوي الأنوف الرومانية الشمّاء التي كنت أراها كثيرا هناك.. أما النساء، فهن شيء آخر.. شيء يختلف كلية.. كن جميلات.. أنيقات.. متحررات.. والأدهى، مقاييس صدورهن التي لم أكن ارى مثلها في العراق، وكان هذا سبباً لأزمة نفسية حادة عشتها وأنا أعاني شبقي الذي اِزداد بسبب الكبت الذي عشته منذ غياب زها عن حياتي.. زها التي كانت ترى معي كل الأشياء الحلوة التي أراها، ما عدا محاسن النساء، لأني كنت أغمض عيني عندما أتذكر أنه لا يصح أن أجعل زها تعرف أين أصوّب نظراتي.. في الليل، تحاصرني صور

النهار المغرية، فأهرع إلى طيف زها، ولكني لا ألقـــى منـــه غـــير الصدود وهي ممعنة في الغياب.

ابتسمت لي الحياة بالتدريج في تلك الأيـــام، وبـــدأ الخـــوف المستوطن في النفس، ينحسر قليلاً، فرحت أخطط للآتي من حياتي بعدما كنت لا أستطيع أن أفكر به مجرد تفكير.. كان واضـــحا لي أن لا مستقبل لي مع غسل الصحون وتنظيف المطابخ.. ولكن مـــا الحل؟.. لم يكن ثمة حل في سوريا، ولذلك بدأت أفكر باللجوء إلى بلدان الفرص المفتوحة لكي استطيع أخيرا أن أنظم حياتي.. قررت أن أقتصد في نفقاتي لكي أجمع مبلغا يعينني على التوقف عن العمل ومراجعة السفارات حتى أنال مبتغاي.. فكرت.. وقررت، ولكـــن يبدو أنه كان لزوار الفجر، المتحالفين مع الخـــوف ضـــدي، رأي آخر.. فقد زاروني ذات فجر في مطبخي، واقتلعـــوني منـــه.. ولا حاجة بـــي إلى ذكر التفاصيل التي تكررت عليك.. أنـــا أعتقـــد بأنك صرت خبيراً بتلك الظروف التي حـــدثتك عنـــها، ولـــذلك سأتجاوز تفاصيل الصفعات التي قضوا بواسطتها وقتـــهم وهـــم في طريقهم الممل إلى محل عملهم.. كنت طوال الوقت أؤمل الـــنفس بلقاء ملاكي الحارس.. الأستاذ محمود، لعله ينقذني مـــرة أخـــرى، ولكن رعباً اسمه (صوت غريب) صرع آمالي.. عاتبـــت الإلـــه، لم يحدث كل هذا معي؟ ولكني لم اسمع جوابـــا، ولا الســـؤال الأول الذي طرحه عليّ الصوت المرعب، فجعلتني الصفعة المعتادة أتهاوى بعدما عجزت ساقيّ عن تحمل أثر الرعب الذي هدّ كياني.. قـــال الصوت ساخراً:

- إن كنت جباناً إلى هذا الحد، فلِمَ تورط نفسك بما لا قبل لك عليه؟

بدا لي صوتي وكأنه خارجا من أعماق جب حين قلت بصعوبة:

- أورط نفسي بماذا يا سيدي؟
- أن تكون عميلا للنظام العراقي.

بدت لي تلك الكلمات وكأنها حكم بالإعدام، فساعدني الشعور بدنو النهاية، والرغبة في الدفاع عن حياتي، في أن استعيد جزءا من شجاعتي.. قلت:

- ومن قال هذا يا سيدي؟
- الحزب الشيوعي العراقي، منه أتت هذه المعلومات.
- أقسم لك يا سيدي أني أكثر شيوعية منهم جميعا.

فقال الصوت:

- هذا ما تقولونه جميعا يا أولاد العاهرة.

فتماديت أنا في شجاعتي وأنا أقول بأقصى ما استجمعته من ثقة:

- بل أنا صادق، وهذه ليست المرة الأولى التي تستضيفوني فيها هنا.. بل جلبوني مرة في السابق، وقد أخلى السيد الضابط سبيلي لأنه صدقني.

لم يعلق بشيء، بل سمعته يوجه أسئلة إلى الموجودين في الغرفة، فترددت أسماء وذكرت أشياء.. اصدر أوامراً، فسمعت صوت خطوات تبتعد، وأخرى تعود، ثم صوت أوراق وهي تقلّب.. ليتوجه الصوت أخيراً إلي وهو يقول:

- يبدو أن أمك دائمة الدعاء لك.. لقد صدقتك أنا الآخر.. ازيحوا هذه العصابة عن عينيه.

وهكذا نجوت مما كادوه لي بأعجوبة ثانية.. ولكني خرجت من هناك مشغول البال بالمرة الثالثة، فقد قال لي منقذي الجديد، أنه لن

يستطيع إنقاذي فيما لو جلبوني إليه مرة أخرى.. أنا لم أفهم لِـــمَ لا يمكنه ذلك إن كنت بريئاً، ومع ذلك، أخذت تحذيره على محمل الجد ولكن.. إلى أين المفر؟

عدت إلى المطعم فخففوا بحلاوة اللقاء، مرارة الحدث قلـــيلاً.. بدوا قلقين عليَّ بصدق وخاصة صاحب المطعم الذي اخـــبرني أنـــه اتصل بصديقه ضابط التحقيق ولكنه وجده مسافرا، ولذلك بقي قلقاً حتى عدت.. وعندما أخبرته أن بقائي في المطعم لم يعد آمناً، بادر من فوره إلى الإتصال بالهاتف لدقائق، قبل أن يخبرني أنه اتصل بصديق له يدير مطعماً في منطقة السيدة زينب، البعيدة نسبياً عن دمشق.. وأنه ينتظرني.

في السيدة زينب، سحب مـــني تـــرخيص ســـاعات الهنـــاء الأسبوعية.. أو بالأحرى ألغيته أنا لأنه لم يفرض عليَّ من قبل أحد.. ولكن التحذير كان واضحاً.. ابتعد عن العراقيين، وكانت منطقـــة السيدة زينب ملأى بالعراقيين، ولذلك إعتكفت في المطبخ الجديـــد الذي إستقبلني.. لم أغادره في البداية إلا لساعة أنتقيهـــا في أعمـــاق الليل، أحاول الهروب بها من كآبة أفكاري، والخوف الـــذي ظـــلّ مقيماً في أعماقي، وأبى أن يغادرها.. أدور خلالها في المناطق المحيطـــة بالمطعم البعيد نسبيا عن المرقد.. أنا والليل وبضعة عـــابرين يمـــرون بـــي أحياناً، قبل أن أعود لأمد فراشي وأنام وملء خياشيمي رائحة الدهون ومساحيق التنظيف.. أدمنت صحبة صـــحوني وملاعقـــي، مقنعاً نفسي أن هذا الإعتزال يزيد من مدخراتي فيختصـــر لي زمـــن تحقيق هدف النفاذ إلى حيث الأمل.. أنا لا أقول أن حالي الجديد قد راقني، بل أن أيام دمشق بدت لي حينذاك وكأنها ماض ســـعيد قـــد انقضى، ولكن للضرورة أحكام.

ذات يوم، طلب مني صاحب المطعم أن أحل محل الشاب الذي كان يتلقى طلبات الزبائن في الصالة.. حاولت أن أعترض ولكنـــه لم يشأ أن يعفيني لأني كنت في ذلك اليوم، الوحيد من عمال المطعـــم المؤهل للحلول محل الشاب الذي تغيب فجأة.. كنت قـــد أتقنـــت اللهجة السورية بعد الأشهر المنصرمة التي قضيتها هناك.. أو هكـــذا توهمت، فشعرت أن بإمكاني أن أقوم بالمهمة المطلوبة مني دون وقوع المحظور، فغيّرت ملابسي وخرجت إلى الصالة.

شعرت أثناء الساعتين الأولى بأني كنت موفقاً إلى حد كبير في أداء مهمتي الجديدة، وأنا ألحظ صاحب المطعم الجالس إلى منضـــدة (القيادة) وهو يراقبني بسرور واضح وأنا أسجل طلبـــات الزبـــائن،

وأنادي بأعلى صوتي، كأي سوري أصيل، فيهرع من يجلب المطلوب، او ينفذ أوامري.. بالتدريج تفاعلت مع عملي، فرحت أؤديه بإتقان متزايد.. وسعادة متنامية ايضا.

وأنا أسعى بين المناضد المنتشرة في الصالة، لمحته في لحظة دخوله من الباب.. جذبت بدلته الأنيقة، انتباهي، فاستغربت دخول شخص مثله هذا المطعم الشعبي.. حين اقترب، لاحظت سمات الارستقراطية في مظهره وتصرفاته، فجعلني هذا أقرر أن أعامله بما يليق حين يدعوني.. وهذا ما فعلته.. شعر أبيض عجز عن إعطاء إنطباع الشيخوخة عنه، فقد خذلته التجاعيد القليلة في الوجه.. سمرة رائعة وعيون بنية تحالفتا مع أنف معقول الحجم، تعطي للوجه ألقاً يؤكد لصاحبه كرم المنبت.. قوام معتدل وبنية رياضية تؤمن للبدلة الأنيقة قيمتها.. قال:

- (شعدكم)

كانت بلهجة عراقية مبينة، فارتبكت وكدت أتراجع إلى الوراء لأبتعد، لولا أني تمالكت نفسي، ورحت أعدد له الأصناف المتوفرة بلسان سوري، باذلا من أجل ذلك تركيزاً وانتباهاً كبيرين لكي لا تفضحني لكنتي.. تصورت للحظة أني أجدت في ذلك، لولا أنه سألني وبنحو مفاجيء جدا:

- أنت عراقي؟

ولك أن تتصور مدى ذهولي وأنا أسمع سؤاله غير المتوقع إلى درجة أني أومأت برأسي إيجاباً قبل أن أقول بلساني لا.. تمعن بوجهي مليّاً قبل أن يقول:

- لم تحرص على إخفاء عراقيتك؟

سؤال مفاجيء آخر لم يخطر لي أبدا أني سأواجه بمثله في هذا الموقف.. تمتمت ببضع كلمات مضطربات، قبل أن أقول:

- أرجوك يا أستاذ، أنا مشغول فالصالة مزدحمة، ما الذي تطلبه؟

فقال:

- آسف ولكنك لا تبدو من النوع الذي يتنكر لأصله.. فما الذي يدفعك إلى إنتحال هذا؟

ثم طلب وجبة لغذائه بعدما تجاهلت ملاحظته، ولكن يبدو أنه كان قد عقد العزم على استجوابي، فبعد إستدعاءات متكررة وأنا أجول في الصالة، راح يطلّ عليّ بين الحين والآخر في الأسابيع التي تلت وأنا في خضم اشغالي المطبخية الشاقة.

لم يكن يدع لي مجالا للاعتذار، يأتي ليتخذ مجلسه المعتاد في الصالة ثم يرسل في طلبي.. أنا لا أنكر أنه سحرني بالفعل منذ اليوم الأول بطيب أخلاقه ورقي تصرفاته، ولكن تركي لعملي والخروج للتحدث إليه كان يحرجني مع صاحب المطعم الذي كان يحسن معاملتي طوال فترة عملي هناك.. ويبدو أن الأستاذ جميل، وهذا هو اسمه كما عرفت فيما بعد، إنتبه إلى هذا الأمر فتكفل بنفسه الحصول على موافقة صاحب المطعم على تركي لصحوني والتفرغ لتبادل الحديث لبعض الوقت معه كلما أتى.. هذا الأمر قادني فيما بعد إلى أن أطلب يوم استراحة اسبوعي لكي يتسنى لنا اللقاء وتبادل ما نشاء من أحاديث في مقهى يبعد قليلا عن المطعم.

لا أخفيك.. في البدء كانت في نفسي خشية منه، فأنا أعرف قدرات النظام العراقي المخابراتية، و لم أكن أصدق أن دمشق تخلو من رجال مخابراته رغم قوة المخابرات السورية.. ولكنها كانت مجرد خشية، و لم أر من الرجل ما يؤكدها، ولذلك استطاع بالتدريج، أن يستنطقني كل المعلومات التي أراد معرفتها عني.. حدثته عن الكلية،

عن الهروب، عن الشمال.. حدثته عن القاء القبض عليَّ.. عمّا حدث لي في (الجعصخانة) كما كان يسميها، وعن معاناتي بعد اطلاق سراحي المشروط والمذل، ومغامرتي الكبرى مع شيرزاد ووصولي إلى سوريا.. ولكنه لم يصدق أن تلك هي كل همومي، فراح يحاصرني حتى حدثته عن زها، وكيف انفصلت عنها وأشواقي الكبيرة لها، ومدى حاجتي إليها.

ونحن في خضم حوار ذات يوم، سألني فجأة:

- ما رأيك.. هل الانسان مخيّر أم مسيّر؟.

فتبادر إلى ذهني شريط فائق السرعة من الأحداث التي مرت بي في حياتي، ولكني لم استطع أن أجيبه لحظتها بغير:

- لا أعرف.. احيانا أشعر بأنه مخيّر، وأخرى أتصوره مسيّراً.

فضحك وقال:

- بل هو مخيّر بقدر ما هو مسيّر.

قلت وأنا أمعن النظر في وجهه لئلا يكون مازحاً:

- وكيف يكون ذلك؟

فقال والابتسامة تأبى مغادرة شفتيه:

- لا أريد أن احول الأمر إلى نقاش فلسفي، ولذلك أرجو على سبيل الافتراض، أن تتصور نفسك وأنت تمر بقاعة مغلقة ملأى بالأبواب التي لا تعرف ما وراءها.

وحين تطلعت في وجهه مستفسراً، قال:

- أرجوك، جاري فقط.. إن وجدت نفسك في قاعة كهذه، ما الذي ستفعله لتغادر القاعة؟

فقلت بثقة:

- عندها سأفتح جميع الأبواب لأرى ما وراءها ثم أقـــرر أي باب ألج.

قال:

- وإن لم تكن تمتلك هذا الخيار.. أقصد أن تستطيع فـــتح الأبواب لترى بعينيك؟

فأجبت على الفور:

- عندها أعتمد حدسي وأختار الباب الذي أعتقد أنه يمكن أن يلائمني أكثر.

فاتسعت حينها ابتسامته وقال:

- ها قد قلتها.. إذاً أنت مخيّر في فتح أي باب تشاء.
- بالتأكيد.
- ولكنك ستسير بعد فتح الباب في دهليز قد يؤدي بك إلى حيث لا تدري، أو لا ترغب.. أي أنك ستكون مســـيّراً هناك.

فتبددت عندها ثقتي، ولكني قلت:

- أنا لست متأكداً من أني أفهمك.

فقال:

- يا صديقي.. هي الحياة.. نحن نستطيع أن ننتقي لأنفســـنا أبواباً متاحة دائماً، ولكن تلك الأبواب قد تؤدي بنـــا إلى دهاليز قد تسير متوازية أو متباعدة أو حـــتى متقاطعـــة، ولكنها تختلف في النتيجة.. أي أننا سنكون مسيّرين فيها بقدر ما كنا مخيّرين في انتقاء الباب.

قلت معترضا:

- ولكننا نستطيع أن نعود أدراجنا.

فقال هاشا:

- بالتأكيد نحن نستطيع إن كنا قريبين من البداية، ولكننا لن نعود بذلك إلى القاعة نفسها.. ذلك مستحيل.

- ولكن لِمَ هو مستحيل؟

فمطّ شفتيه وقال:

- تلك هي الأقدار وأحكامها.. بكل بساطة، لا نستطيع.

ثم صمت لهنيهة قبل أن يتابع قائلاً:

- يقولون أن التأريخ يكرر نفسه، لا تصدق ذلك يا صديقي، فلكل لحظة خصوصيتها المطلقة ولا يمكن لها أن تتكرر بعدها، مهما بدت اللحظات متشابهة أحيانا.

ثم سكت، ولكني لم أجد في نفسي الرغبة بالتعليق على ما سمعت، فقال متابعاً:

- الذي أردت قوله هو، أننا مخيّرون بقدر ما نحن مسيّرون، والذكي هو من يحدس فرصته، والمحظوظ هو من يصل.

عندها قلت معترضاً:

- ما هذا.. تخيير وتسيير.. ذكاء وحدس.. حظ وقدر، أتريد أن تحيّرني.

فقال وابسامته تسبقه:

- تلك هي الخلطة كاملة.. أو بعضها بتعبير أدق.

- ولكن هذا محبط

- لا تحبط، فهذه هي الحياة والذكي هو من يستغل حظه ليصل.

فتحت فمي لأقول شيئا، ولكنه قال:

- الذي أردت قوله ايضاً، هو أن الأقدار لا تتصرف بطريقة واحدة مع الجميع، فمنهم من تقدم لهم أكثر من فرصة، ومنهم من يكون نصيبه فرصة واحدة قد لا تتكرر أبداً.. أو حتى أن لا تحدث اساساً.

فقلت بحسرة:

- ولكن لماذا؟!

فضحك حينها وقال:

- وما أدراني أنا، فلست المسؤول عن الأقدار، ولكنها تتصرف هكذا.. أما أخطاؤنا فالذكي هو الذي يستفيد منها، ولا يكررها.

فانتابني حينها شك فقلت:

- أتريد أن توحي بأني قد أخطأت.

فابتسم وقال:

- ومن منا لا يخطيء، ذلك هو حقنا الطبيعي.. الأخطاء يا صديقي جزء مهم جداً من معين الحكمة إن استطعنا أن نستفيد منها، فنحن نزداد حكمة بذلك، ويجب أن تعرف أنه لا يمكن لإنسان ومهما بلغ من حكمة يستطيع أن لا يقترف الأخطاء، فلا إنسان كامل.. ثم أني لست بموقع اللائم هنا.. أنا فقط أريدك أن تكون أكثر دقة في خطواتك القادمة.

لم تدع كلماته هذه مجالا للشك في أنه يلومني نوعاً ما، فأشعرني ذلك بغضب، ولكني لم أسمح لنفسي أن أعبر عنه وأنا أقول:

- ولكني لم أخطأ.

فقال بصوت بدا لي متعاطفاً:

- هيا يسار، أنا قلت خطأ و لم أقل خطيئة.
- وما الفارق؟
- لو أنهما تعنيان المعنى نفسه لما تكلفت اللغة عناء استحداثهما معاً.. أتعرف مدى دقة العربية في هذا؟

لم أشأ مناقشته في هذا، بل قلت:

- ولكن أين أخطأت؟!
- لتركك حبيبتك مثلا.
- ولكني لم أتركها إلا مرغماً، فقد كانت الظروف قاهرة.
- ولكنك لو كنت قد تفرغت لها فقط، لما وصلت إلى هنا.

فأثار قوله استهجاني هذه المرة لأنه كان يعني أن أترك الحزب من أجلها، فقلت:

- ولكن هذا مستحيل.

فقال بكل هدوء:

- من حقك أن تقول هذا، فأنت من يختار الأبواب التي تلائمه، ولكن ها أنت في الدهليز الذي انتقيت بابه بنفسك.. فاستمر.
- أهذا يعني أني لن ألتقي بزها مرة ثانية
- لا أعرف.. قد تلتقي بها اليوم، وقد لا تلتقي بها أبداً.. تحديد هذا الأمر خارج نطاق إراداتنا.. أنت تستطيع أن تحاول، ولكن لا ضمانات.

شعرت وكأن نصلاً بارداً يخترق قلبي بلا رحمة.. قلت:

- ألا تباً للأقدار.

فقال:

- لا تكن لعّاناً، أنت انتقيت ويجب عليـــك أن تحتمـــل..
واضح أن باب زها لم يكن هو نفسه باب الحزب بالنسبة إليك.

لم أسامحه على إهامه لي بالخطأ، ففترت حماستي للقائه، ويبـــدو أنه شعر بذلك، فبدأت لقاءاتنا تتباعد.. ولكنها استمرت، وعنـــدما افترقنا بعد آخر مرة رأيته فيها، والتي أخبرني خلالها أنه أوصل مـــن خلال علاقاته الواسعة إلى مكتب الأمم المتحدة في دمشق، المعلومات التي كان قد طلبها مني ضمن محاولته مدّ يد المساعدة إليّ كما قال.. ثم ذهب، و لم يخطر ببالنا أنه كان الفراق الأخير.

في المرة الثالثة، لم يأبه لي أحد، كثيراً.. مجرد تحقيـــق ســـريع لم أتعرض خلاله إلى الضرب أو الاهانات لأن مضيفيّ كانوا قد مارسوا هوايتهم المحببة تلك خلال الرحلة بالسيارة من المطعم إلى مقـــرهم في دمشق.. وكان الطريق، ولسوء الحظ، طويلاً نسبياً هذه المرة.

زجوني في زنـــزانة مزدحمة بالزبـــائن، فعرفـــت أن مكـــوثي سيطول كثيرا هذه المرة.. بل لعله سيستمر إلى الأبد، فمـــن الـــذي سيكلف نفسه جهد السؤال عني وأنا هنا، مجرد رقـــم مضـــاف إلى قائمة ضيوفهم في ذلك المكان الرهيب، ولكني لم أجرؤ على سؤالهم عن مصيري، لأني كنت أعرف طبيعة ردود الفعل المحتملة.

ذات يوم، وأنا أكاد أختنق من شعوري بـــالخوف والضـــيق، سمعت صرير باب الزنـــزانة وهو يفتح، وصوت يناديني بالإســـم.. خفق قلبـــي وهببت واقفاً.. ولكن سرعان ما خبت حماستي.. مـــا الذي يضمن لي أنهم لا يدعونني إلى واحدة من حفلات تعذيبـــهم.. تقدمت بخطى مترددة، بل مرتجفة، فصاح بـــي الواقف عند البـــاب أن اسرع.. أسرعت خلفه، فرأيت مجموعة من الرجال بدا لي أحدهم

أجنبيا.. سألني حالما رآني، وبلغة انكليزية، إن كنت يساراً، فأجبته بالإيجاب.. قال لي:

- تعال معي

فذهبت معه من دون أن يعترضني أحد وأنا غير مصدق.

اصطحبني هذا الذي تبين فيما بعد أنه أحد موظفي الأمم المتحدة، إلى حيث التقيت بعدد آخر من العراقيين المحررين من السجون السورية.. لم يخطر لي ببال أن يكون عددهم كبيراً هكذا، فهانت عليّ مأساتي.. كان معظمهم من الشيوعيين، والغريب أن تهمهم كانت التجسس لصالح النظام العراقي في الأغلب.. أفهمونا أنهم في سبيلهم إلى ترحيلنا خارج سوريا، وهكذا بقينا بعهدة الأمم المتحدة لأيام في دمشق حتى أنجزوا كل أوراقنا، كلاجئين يستحقون أن يعاد توطينهم.. ثم وضعوني على متن طائرة ذات يوم.. وطرت.

إحتاج الصغير يوسف لوقت طويل وهو يعاني من وعي رجراج قبل أن يعرف أنه كان ينام مع والديه في غرفتهما، كانت أمه قد قررت أن يبيت تلك الليلة معهما بسبب المرض الذي ألم به، وارتفاع درجة حرارة جسمه.. ركز حواسه وهو ينصت، لكي يتأكد من الصوت الذي جعله يستيقظ.. كان صوت تأوه.. كانت تأوهات أمه بكل تأكيد، ولكن لم تتأوه.. رفع رأسه قليلا لينظر باتجاه السرير حيث تنام أمه، لم ير بمساعدة الضوء المتسرب من النافذة الوحيدة، غير الغطاء الذي كان يتحرك كالمجنون في عملية صعود وهبوط متزامنة مع التأوهات.. ما بها أمه؟! نهض ليجلس في الفراش الممدود على الأرض.. نظر إلى حيث ينام والده، لم يجده.. سمع هذه المرة صوتاً جديداً.. صوت خوار متداخل مع التأوهات.. خوار مخيف.. ففهم ما يحدث على الفور.. لقد كان يؤذيها.. ابوه المقطب الجبين والنزق وغير الراضي دوما، يؤذي أمه الحبيبة.. ظل لبعض الوقت يفكر فيما يمكن أن يفعله لينقذ أمه، ولكن من دون جدوى، فما قد يستطيع فعله مع عملاق مثل أبيه.. فجأة، ارعبته فكرة أن يراه وهو جالس هكذا يتطلع إليه وهو يقترف جريمته.. شعر برعب، فأسلم رأسه الصغير للوسادة، سحب الغطاء ليغطي وجهه وهو يكاد يسمع قلبه يدق بسرعة.. فكر بأمه، فسالت دموعه، وتورط بذلك، بمهمة شاقة.. كبت صوت نشيجه!.

الليلة الثانية عشر

استقر بـــي المقام في مدينة مالمو بالسويد، ذلك البلـــد الـــذي يكاد ينام في حضن القطب المتجمد.. لم آبه في البداية لغير الشـــعور بالأمان الذي بدا هذه المرة حقيقة واقعة، بعد الشعور الكاذب بـــه، الذي منحتني إياه دمشق من قبل.. منحوني شقة صغيرة وخصصوا لي راتبا شهريا، وفرضوا عليَّ أن أدرس لغتهم، تلك اللغة الصعبة، شقيقة الألمانية التي لا نعرف عنها شيئا، ولكني اقبلت على دروسها بلهفـــة لأنها ستفتح لي كل أبواب هذا المجتمع الذي انتقوه لي لبقية ســـنوات عمري.

بعدما وصلت، أتيحت لي الفرصة لأن أتصل بأهلي أخيراً، كان الإتصال الأول عاطفياً، إنفعالياً وباكياً، حمل لي نبأ موت والـــدي.. أبكاني الخبر، وهزّ كياني وجعلني أحقد على أمـــي للمـــرة الأولى في حياتي.. ولكني سرعان ما غفرت لها، وحرصت على أن أكون بـــاراً بها ومتواصلاً معها.. فقد كانت أم كريمة معي حتى النهاية.. أذكـــر عندما تحسنت حالتي المادية، بعد ذلك بسنوات، وكنت أرسل إليهم مبالغ كبيرة بين الحين والآخر، كانت أمي تقول لي حـــين أحادثهـــا على الهاتف:

- (يمّة خو ما محتاج فلوس.. أدزلك؟)

كانوا يعطوني في نهاية كل شهر ما يكفيني لتوفير حاجاتي مـــن المأكل وحاجاتي الضرورية ومنها بعض المشروبات رخيصة الـــثمن،

ولكني، وكنتيجة لطول الحرمان، وبسبب ما عانيته من ضغوطات الشاميات على أعصابي.. كنت أعاني من جوع جنسي حينما وصلت إلى هذا البلد المنفتح الذي وصلتني أخبار نسائه حتى قبل أن تطأ قدماي أرضه، والعين غير الأذن يا أستاذ.. وهكذا بقيت طوال الأشهر الأولى أعاني من رغباتي التي لم يبدُ عليها أنها ستتشبع بالطريقة التي كنت أعيش بها حينذاك.. نعم، كانت العلاقات هناك مباحة ولا محرمات فيها.. ولكني كنت أفتقد الإلمام باللغة التي كان يمكن أن تفتح أبواب العلاقات الطبيعية أمامي، ولذلك لم يبق أمامي غير العاهرات.. كن متوفرات، ومحترفات إلى درجة أن المرء لا يستطيع أن يميز العلاقة معهن عن تلك المقامة مع فتيات اعتياديات.. كنت أقتصد في نفقاتي طوال أسبوع أو أكثر حتى استطيع أن أوفر ما يكفي لأجرة واحدة منهن، ألتقطها من الشارع لأستصحبها إلى شقتي، متوهما إطفاء نار لا تزداد بتلك الثواني التي اقضيها معها، إلا إتقاداً.. ثوان فعلت كل ما من شأنه زيادة عديدها، ولكنها لم تصبح حتى ولو دقيقة كاملة.. لم استطع أن افعلها إلا مرتين في الشهر الأول من وصولي إلى هناك، ولكن حين تطاولت الأيام الأخيرة من الشهر، بسبب الجوع الذي عانيته نتيجة الإفلاس، حتى استحققت راتب الشهر الذي يليه.. ثرت على نفسي، وقررت أن أحتمل الكبت لكي لا أعاني من الجوع في بلد غريب لا أحد لي فيه، مرة أخرى.. ولكن بعد أسبوع من الحرمان، تناسيت قراري وهرعت إلى الشارع لإلتقاط واحدة.. فقضيت الأسبوع التالي شاداً الحزام على بطني لأعوض المبلغ الذي أنقدتها إياه.

في السويد، وبعد أن تناقص عدد همومي الحياتية، اصبحت زها الشغل الشاغل لذاكرتي بعدما لم أسمح لها بأن تعذبني أكثر مما فعلت،

بإجترارها للصور التي علقت بها من أيام العذاب الصعبة التي عشـــتها قبل أن أصل إلى هناك.. خصصت ذاكرتي لزها فقط، فكنت كمـــن يستجير من النار بالرمضاء.. رمضاء غياب زها، وعدم معرفتي بمـــا حل بها.. رحت أخاطبها معظم الوقت ما دمت وحيـــدا، ولطالمـــا كنت كذلك، فهناك فقط عرفت معنى الوحدة الحقيقي.. أتساءل عن أحوالها، وأين هي.. ولكن لا إجابات طبعا.. لا ألومها، بل أطلـــب منها المغفرة وأقول لطيفها الذي يلازمني، آسف يـــا حلـــوتي لأني لم أكن كفؤا لك.. أعدك بأن لن يكون ثمة (أنا) منذ اليوم، فـــ (كللك) هو أنا وسأبدأ رحلة السعي إليك، إرتقاء.. ولكن يبدو أني لم أكـــن مهيئاً بعد للإرتقاء، فقد فشلت في أن أكون أحســـن في أول تجربـــة جديدة لي، عندما التقيت (كريّم).

كْريّم.. آه يا كْريّم.. ما الذي حل بك؟.. كْريّم هـــذا يـــا استاذ، كان النموذج الأخيرالذي يمكن أن أتخذه صديقا لنفســـي.. ولكن هذا ما حدث.. فيما بعد، عندما كنت أراه مقـــبلاً علـــيَّ و(السبحة تطقطق) بين يديه المعقودتين خلف ظهره وقد بان شـــعر صدره الكثيف من خلال قميصه المفتوح الأزرار حـــتى منتصـــف البطن، وهو يدير النظر بين المحلات المصطفة على الجانبين، كنـــت أتساءل عن القدر الذي ربط مصيري بمصير هذا الانسان الغريـــب تماماً عني.. كان حين يصادف امرأة أجنبية.. سويدية أقصد، يكاد يتعثر في سيره رغم أنها لم تنتبه لوجوده أساساً.. كانت أمنية حياته أن تتحدث إليه فتاة سويدية، متناسياً أنه لا يعـــرف مـــن اللغـــة السويدية غير كلمات الفحش التي حفظها منذ شهوره الأولى هناك قبل سنوات.. كانت السويديات مثال الرقـــي عنـــده، ولكنـــه لا يتورع عن نهش أعراض العراقيات الموجودات هناك لمجـــرد أنهـــن يحاولن تقليد السويديات.. يسارع حين يُسأل عن أصله إلى تأكيد أنه إيطالي وأمه إسبانية.. أو بالعكس، ولكنه يعجز عـــن تســـويغ لسانه العراقي.. كان تناول وجبة غداء معه في مطعم، امـــراً بـــالغ الإحراج بالنسبة إلي.. كان دائم الشكوى من كل شـــيء حولـــه، وإن تأخروا عليه دقيقة واحدة فإن صوت صياحه يحرج كل من في المطعم.. ألومه، فيقول أن هذا من حقه، فهو مواطن سويدي، فـــلا يكف بسبب ذلك عن طلباته المتعددة مهما بدا عامل، أو عاملـــة الخدمة مشغولين.. وبعد كل الإزعاجات التي يتفنن في تسببها لهم، كان يخرج من دون أن يترك لهم بقشيشاً، وإن سألته عن الســـبب قال:

- (شنو احنة زْواج؟)

رغم كل هذا، كان صديقي.. وإن أردت الحق.. كان أفضل ما حدث لي هناك.. لا داعي للشرح أو التسويغ، هذا هو انطباعي الأخير عنه رغم ما اكتنف علاقتي به من تفاصيل قد أخجل من ذكرها لغيرك، ولكن معك، لا يهمني إن بحت.. تعرفت عليه بمصادفة بحتة.. قرفت ذات يوم من الوحدة، فقررت أن أدخل أول حانة تصادفني، فرأيته واقفاً على البار يتكلم مع شخص آخر.. عرفت فوراً أنه عراقي، ولفت نظري، أنه كان قد وضع علبة لفافات التبغ إلى جانب كأس البيرة الذي كان يعبّ منه.. كنت بأمس الحاجة إلى لفافة لم أكن أمتلكها لحظتئذٍ، وحين إبتعد الآخر عنه، جرؤت على طلب واحدة منه، فأقبل عليّ بكرم عراقي أصيل.. أبى أن أفارقه، بل قضينا الوقت معاً وهو يمدني بالمزيد من لفافاته بين الحين والآخر، وفي النهاية أصر على دفع الحساب، لنغادر معاً.. سرنا في الشارع معاً حتى إكتشفنا أننا نسكن البناية نفسها، فأصر عندها على أن يهديني علبة لفافات كاملة من شقته، قبل أن نتواعد على اللقاء في اليوم التالي وأعود إلى شقتي.

في الأيام التالية، أصر على كرمه معي رغم أن الأمر كان يحرجني، إلا أن واقعيتي حتّمت عليَّ أن أتقبل ذلك الكرم الذي اكتشفت فيما بعد أنه ليس من سجاياه الغالبة.. تقبلته على مضض نوعاً ما، وليت الأمر إقتصر على اللفافات أو كؤوس الشراب الذي كنا نعاقره بين الحين والآخر.. فحين إنتبه إلى نظراتي الجائعة المنصبة على النساء الجميلات اللواتي يمررن بنا، بادر إلى جلب عاهرة على حسابه، تناوبنا عليها في شقته.. ولم تكن تلك المرة الأخيرة التي يفعل فيها ذلك.

هكذا ظل يعاملني معاملة ضيف دائم، وأنا أتساءل طوال الوقت من أين يأتي بكل تلك الأموال التي ينفقها على ملذاته، وعليّ

بسهولة، فهو في النهاية لاجيء مثلي.. ولكن لم يبدُ عليه أنه سيتوقف عن كرمه معي، وعندما كنت أمتنع عن قبول هباته الكريمة أحياناً.. باللسان في الأقل، كان يقول ضاحكاً:

- (يمعوّد يسوري، ترة مستورة)

كان يختفي لأيام أحياناً، فأعود إلى نظامي الإقتصادي الخاص الذي بات أقل ضغطاً على أعصابي منذ ظهوره، ولكنه سرعان ما يظهر مرة أخرى، فنعود إلى سيرتنا الأولى.. في إحدى غيباته، جافاني النوم بسبب الشبق الذي ألهب جسدي ذات ليلة، فخرجت باحثاً عن دمية لتفريغ الحمم الفائرة في أعماقي..كنت بالفعل أعاملهن كدمى، لا لأني لا أعتبرهن كائنات حية، بل بالعكس، لحرصي على عدم جرح أرواحهن المرهفة ونفسياتهن القابلة للعطب السريع كما عرفتهن، و لم أكتشف أن ذلك كان يمكن أن يترك أثراً لديهن، إلا تلك الليلة، فقد شاءت الصدفة أن ألتقي بواحدة منهن للمرة الثانية، ومثل هذا لم يحدث من قبل.. هبّت نانا إلى لقائي عندما رأتني مقبلاً، واصرّت على أن أكون زبونها في تلك الليلة.. في الحقيقة، لم أكن راغبا بها لأني كنت أفضل التجديد دوما، ولكني خجلت أن أرد رغبتها الواضحة، فاصطحبتها.. و لم أندم.. في تلك الليلة، رفضت أن تفارقني وأصرت على أن تذيقني طعما جديداً للجنس لم أتصور وجود مثله أبداً.. استطاعت أن تثير جنون شياطيني، وأن تبقيني فعّالاً حتى الصباح، وعندما فارقتني، أبت أن تأخذ أجراً.. رغم إصراري الشديد، إلا أنها كانت واضحة في رفضها.. كنت قد أضفت الكثير من المفردات السويدية إلى قاموسي، فتضافر هذا مع معرفتها المحدودة باللغة الانكليزية لتسهيل التفاهم بيننا.

في الليلة التالية، سعت هي إلي، وبعد جولة أخرى من المجهودات الشاقة، ولكن اللذيذة، أخبرتني أنها قررت أن تأتي لترتاح عندي من عناء عملها.. وهكذا أصبحت (كريستينا) وهو اسمها الحقيقي، شريكتي في الشقة طوال أسابيع تلت، فكانت هذه فرصة لأن أجرب كل ما لم يكن يخطر لي ببال في مجال الجنس.. جربت كل شيء معها.. كل شيء يا أستاذ، وأرجو أن لا تحرجني لأني لا أستطيع الخوض في التفاصيل.

حين اِلتقيت بكْريّم بعد عودته، لم أخبره عنها، فقد حدست أنه يمكن أن يسيء بتصرفاته غير المنضبطة، إلى هذه العلاقة التي بدت لي في حينها وكأنها حل موفق جدا لمشكلتي الجنسية.. وكذلك لم أخبره لأني خجلت، فأنت تعرف آراءنا التقليدية حول العهر والعاهرات، ولم أشأ أن أعطيه صورة عني، قد لا يرتضيها، ولذلك حرصت على سري قدر ما أستطيع.

ذات يوم، عرض عليَّ فجأة أن أساعده في عمله الذي كشفه لي أخيراً.. كان يسافر إلى الدانمارك القريبة ليجلب من هناك صناديق من علب لفافات التبغ ليوزعها سراً في مالمو.. كان هذا يدرّ عليه أرباحاً لا بأس بها، ينفق منها على ملذاته بسعة ومع ذلك يتبقى منها ما يمكن أن يكتنز.. للوهلة الأولى، هالني الأمر، فشجبت عرضه بأقصى ما أستطيعه من قوة.. ولكن يبدو أن ما واجهته من حرمان طوال الفترة منذ أن ابتعدت عن مصدر تمويلي.. أقصد أمي، بعد أن خرجت من بغداد فاراً، حتى وصلت إلى هنا، كان قد أثّر تأثيراً واضحا في منظومتي الأخلاقية.. فوافقت في النهاية على عرضه الذي أصر عليه.. لا، لا، لا أريد أن أسوّغ شيئاً، فهذا أصبح من الماضي الآن، أنا فقط أريد أن أروي.

بدأنا عملنا المشترك، فكان هو بين الحين والأخر، ووفق جداول واتفاقات لم يطلعني عليها، يتسلل ليلاً بقارب مع مجموعة لم أر أحداً منهم أبداً، وعرفت منه أن معظمهم من العراقيين، إلى جزيرة دانماركية شبه خالية، تقع في عرض المضيق الفاصل بين السويد والدانمارك، وهناك تتم عمليات الشراء والبيع، ليعود كل منهم بغنيمته التي يبدأ ببيعها في مالمو.. كان أحياناً يعود في الليلة التالية وفي أخرى يتأخر ليلتين أو ثلاث.. كنت انتظره حسب الاتفاق لكي نخفي البضاعة ومن ثم نبدأ بتصريفها إلى شبكة من الزبائن كان قد كونها لنفسه، وعملت أنا على توسيعها بعدما عملنا معاً.. لم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي أضفته إليه، بل لاحظت فور بدئنا العمل أنه كان يتصرف بكل المبلغ الموجود عنده للشراء، ولم يكن لينتبه إلى المصاريف التي كان ينفقها، ففرضت عليه أن يفصل ما بين الرأسمال الذي كان يجب أن يضاعف نفسه، والمصاريف التي لا يصح أن تؤخذ منه، بل من هامش الربح الذي يجب أن يحسب بدقة.. فرضت خطة متقشفة بالنسبة لنا، وأجبرته على أن يستخدم كل ما يملك من أموال في عملية شراء كبرى.. وكان هذا يعني كمية أكثر من الصناديق التي تكدست لدينا، ولكننا استطعنا أن نصرفها بزمن قياسي بسبب وجودي معه.. أشعره هذا بسعادة غامرة، فقرر فورا أن تكون حصتي من الربح ثلاثين بالمائة.. ولكن عندما تضاعف رأس المال المخصص للشراء والبيع بعد أشهر قليلة، أصر على أن تكون الأرباح مناصفة بيني وبينه.. إعترضت أنا طبعاً لأني إعتبرت ذلك غير عادل بالنسبة إليه فهو صاحب رأس المال، ولكن إعتراضاتي لم تجدِ نفعاً.

بعد سفرة من سفراته العديدة، أتاني مستصحباً معه كيس من البلاستك بدا عليه أنه يحرص عليه أكثر من صناديق اللفافات.. إستفسرت منه، فقال:

- أمهلني حتى أرتاح.

فيما بعد، أخبرني أنه جلب معه كنماذج، بضاعة جديدة يريد أن يجربها.. لم أكن قد رأيت مخدرات من قبل أبداً، ولكني ما أن لمحت العبوات الصغيرة المعبأة بمسحوق أبيض، التي أخرجها من كيسه حتى صرخت:

- أجننت يا كْريّم.. كل شيء إلا هذا.

طبعا إعترضت، ولكني إقتنعت فيما بعد، كما هي عادتي معه، رغم إدراكي الشديد لخطورة هذا التغيير الذي درّ علينا أرباحا لم نكن نحلم بمثلها قبل أن يأتي ذلك الكيس.

تأمّنَ لي بذلك مصدر مالي آخر جعل من حياتي هناك أكثر رفاهية، ولكني كنت قد استوعبت جيداً درس الحاجة والفاقه، فلم أسرف، بل كنت معتدلاً جدا في نفقاتي، وهكذا بدأت أدخر بعض الأموال لأول مرة في حياتي.. وعلى ذكر المدخرات، فقد فاجأني ذات يوم وأنا في الشقة عندما إقتحمها حال فتحي الباب له، حاملا بيده كيس كبير، فرأى كريستين أمامه.. ويبدو أنه كان قد رآها في أثناء عملها، فعرفها، ولأن لعابه سال لمرآها، أصر على أن يضاجعها.. حاولت أن أثنيه عن رغبته.. توسلت به، ولكنه أصر.. وحين وصل إلى حدود الزعل، إضطررت إلى التوسل بكريستين لأن تمكنه من نفسها، ولكنها أبت، قالت لي أنها صديقتي في تلك اللحظات، ووجهت إلي كلاماً جارحاً.. حاججتها بالمرات التي جلبت فيها فتيات معها ليشاركنها بي، فقالت أن ذلك كان مبنياً

على رضاي.. قالت أنه يمكن أن يأتيها في أثناء عملها، لتفعل له ما يشاء، فقلت أنها يمكن أتعتبره زبوناً وسأدفع أنا.. فكانت تلك الكلمات هي آخر ما وجهته لها، إذ جمعت أغراضها القليلة في الشقة وغادرت حتى من دون كلمة وداع، ولم أرها بعد ذلك أبداً.. كان كُرّيم إبّان ذلك يتابعنا بدهشة وهو لا يكاد يفقه من الأمر شيئا.. حين غادرت تساءل:

- ما لها هذه.. أو ليست عاهرة؟

شعرت بضيق كبير ولكن لم أكلف نفسي عناء التفسير، بل سألته عن سبب مجيئه في تلك الساعة، فقال كمن تذكر شيئا كان قد نسيه:

- آه، نعم.. أنت تعرف أني لا أستطيع إيداع أموالي في البنوك، ولذلك قررت أن أأتمنك عليها هنا في شقتك، فأنت أذكى مني وأكثر قدرة على التصرف.

وهكذا إنتقلت مدخراته لتستقر مع مدخراتي الأقل، لتغيرا معا قدري، ولهذا حكاية أخرى.

كانت مدخراتنا تزداد بمضي الوقت لإزدهار أعمالنا، وكـــان هذا يزيدني إطمئناناً على مستقبلي هناك، لولا الخشية التي رفضت أن تفارقني.. ماذا لو إنكشف أمرنا.. ماذا لو وقعنا في قبضة القـــانون.. بل ماذا لو أبعدوني عن هذه البلاد التي استقبلتني خير إســـتقبال.. لم أستطع أن أجيب عن هذه الأسئلة المرعبة، ولم يســـتطع كّـــريّم أن يطمئنني، بل درج على القول، كلما عبّرت عن خشيتي:

- لن يفعلوا غير أن يسجنوك، وسجونهم هنا، لو لم تكـــن تعرف يا صديقي.. خير من أحسن فنادق العراق.

ولكن هذا لم يكن يساعدني في تجاوز خشيتي، إذ ظل الخـــوف والقلق يلازماني حتى أصبحا حقيقة واقعة ذات يوم أتاني فيه وقال أنه مضطر هذه الليلة لارتداء كل ما يمتلكه مـــن ملابـــس وانتـــهى إلى لازمته المفضلة "وانت تعرف الجحيل".. كان يردد هذا القول كلما حان موعد سفرته، منذ طرق الشتاء القطبـــي القارس أبواب مـــالمو التي غرقت في البياض.. كنا قد وزعنا كل البضائع الـــتي جلبـــها في سفرته الأخيرة، ولكن موعد السفرة القادمة لم يكن قد حـــان بعـــد حسب علمي.. تساءلت مستغرباً عن الأمر فأخبرني أنه مضـــطر إلى ذلك.. لم أناقشه، بل نهضت من مكاني وقلت له:

- هيّا بنا.
- إلى أين؟
- لأعطيك المال اللازم.

فقال:

- لا، لا أحتاج إلى مال.. أنا ذاهب لمناقشة بعض الأمور مع شركائنا في الدانمارك.. لقد أرسلوا في طلبنـــا ويجـــب أن نذهب.

لم أناقشه، بل تمنيت له السلامة وذهب.. ذهب على أســاس أن يعود في اليوم التالي، أو الذي سيليه.. ولكنه ذهب، و لم يعــد أبــداً.. هكذا بكل بساطة، ذهب و لم يعد.. لا أمتلك تفسيرات.. لم أعــرف لِمَ لَمْ يعد.. ولكنه لم يعد.. إنتظرته يومين وثلاثة وأربعة، و لم يعــد، فاجتاحني شيطان الرعب.. كان أول ما تبادر إلى ذهني أن الشرطة قد قبضت عليه، وكان هذا يعني بالنسبة لي، أن دوري سيحين بالتأكيد.. لملمت أغراضي بسرعة، وحملت مدخراتنا وذهبت لأقبــع في شــقة مؤجرة بعيداً عن البناية التي كانت تأوينا، ، ألتقط من هناك الأخبار.. ولكن لا أخبار.. عندما مرت الأيام و لم يأتِ أحد ليســأل عــني، أو يلقي القبض عليَّ، برز إحتمال آخر.. أن يكون البحر قــد ابتلعــه.. مات.. أو قتل.. ليرحمني الله يا أستاذ، ولكني تمنيت في بعض اللحظات لو كان ميتاً، فهذا ينقذني من مأزقي.. هل ســيرحمني.. لا أعــرف، ولكن هذا ما فكرت به.. صحيح أني تمنيت لو كان قد مــات موتــاً رحيماً، ولكني تمنيت لصاحبــي الموت لمجرد أن ذلك ينقــذني مــن مخاوفي.. حينها، تذكرت الأستاذ جميل وحديثنا الذي جعلــني أنفــر منه.. تساءلت مع نفسي إن كان ما فكرت به خطأ أم خطيئة.. بدا لي في بعض الأحيان وكأنه خطيئة.. ذنب لا يغتفر، ولكني كنت مشغول البال بسلامتي الشخصية.. المهم هو أن تداعيات ذلك النقاش الــذي جرى في السيدة زينب بدأت تفعل فعلها وأنا أعاني من مخاوفي في تلك الشقة التي شهدت عذاباتي وأنا وحيد.. وحيد إلى درجــة لعينــة في مكان ما في أقاصي العالم حيث لا نصير لي ولا حبيب.. بــدأت أزن الأمور حسب وجهة نظر السيد جميل، فبدت لي الكثير منها مغايرة لما توهمت، فكان القرار أن لا أسمح لنفسي أن اقترب من احتمال الخطــأ مهما بدا ضئيلاً.. فقط لو تخلصت من مأزقي الذي كنت أعاني منه.

طال غياب كْرِيّم، و لم أستطع أن أبلغ الأمان، و لم تعد الشـــقة المستأجرة قادرة على أن تمنحني إياه، فغـــادرت مــالمو.. قصـــدت استوكهو لم العاصمة حتى من دون أن أبلغ المسؤولين عني.. كنـــت أريد أن أختفي.. أن أتضاءل.. أن أنمحي، كلما مرت الأسابيع وهو مصرّ على الغياب.. بدا وكأنه هو الذي إنمحى.. أو لم يكـــن لـــه وجود أساساً.. بدا كأنه مجرد وهم إنتابني.

مهما بدت الأيام أحياناً، قاسية على النفس يا أستاذ، ولكنـــها هي الكفيلة بمحو مخاوفنا.. كان لا بد للرعب أن ينحســـر، ولا بـــد للأمان أن يتسرب تدريجياً كلما مر وقت آخر و لم يـــأت أحـــد في طلبـــي.. وهكذا قررت أن أعود إلى حياتي، بعد أن أرتب أموري.. هذه المرة، كنت أمتلك أموالاً.. مبلغاً لا بأس به.. لا بأس به بالمرة، ولذلك كان القرار أن أتصرف بأقصى ما استطيعه من عقل لكـــي لا أترك مجالاً للسيد جميل أن ينتقدني.. وهكذا وُجِدَتْ (أسواق زها).. كان محلاً صغيراً بدأت منه تجارتي بالمواد الغذائية والمنـــزلية، كما هو الحال عندنا في بغداد.. أسواق.. يا لمبالغاتنا!.. ولكن هـــذه الصـــفة كانت نبوءة لما سيحدث.. إذ لم تمض السنوات إلا وكانت عنـــدي سلسلة من المحلات الكبرى في مدن سويدية متعـــددة تحمـــل فـــوق مداخلها لافتة كبيرة (اسواق زها).. اسم الشركة التي أسستها في بلد الفرص المتاحة.. صحيح أنني مدين بذلك النجاح إلى الحظ الذي هيأ لي أفضل إستشارة يمكن أن يحظى بها صاحب مشروع جديد.. كان شابا باكستانيا يكمل دراسته العليا في الادارة هناك.. إرتضى بشـــير خان بالراتب القليل الذي خصصته له في البدايـــة.. كـــان صـــديقا وموظفاً فخدمني بإخلاص وكان خير معين في تمكني مـــن تطـــوير أعمالي التي استفاد كثيراً من إزدهارها طبعا.. لا يا صديقي، أسست

الشركة بأموالنا، أنا وكْريّم.. ولذلك أقسم لك أنه لو ظهــر في أي وقت، فلن أتردد في منحه نصف أمــوالي.. وهــي كــثيرة الآن.. وسأعامله بالمثل فأجعله شريكي في تجارتي الرابحة.. والشرعية طبعا.. بالغة الشرعية.. وسيبقى هو صاحب الفضل عليّ.

مضت بــي السنون هناك، وأحوالي تتحسن باضطراد، بــل نقلتني الظروف الحسنة من حال إلى حال، مغاير تماماً، مع تكدس الثروة عندي، وهو ما فتح أبواب المجتمع السويدي أمامي وسكنت أخيراً في منطقة (نورمالم) الراقية بعدما قضيت ســنوات طويلــة مقصياً في مجتمعات المهاجرين.. ساعدني في ذلك، تعلمــي للغــة وإتقاني لها بالطبع، ولكني أتصور أن الثروة وبيان نعمتها علــيّ، كانت السبب الحاسم في موقفهم مني، وتقبلهم لي وكأني واحــد منهم وهو أمر لا يحدث بسهولة، بل لعله أقرب من المســتحيل.. عقدت صداقات متوازنة فأدخلوني حياتهم وبيوتهم، وأصــبحت صديقاً لعوائلهم حتى لم يعد يستطيع أحد أن يميزني عنهم عنــدما أكون معهم.. طبعاً هذا يشمل النساء أيضاً.. أقصد كصــديقات خاصات.. عرفت هيلين وهيلينا وآن وآنا وأوســي، وكــثيرات غيرهن لا تحضرني أسماءهن الآن.. صديقات بدوام كامل، أو حتى نصف دوام، ولكن من دون زواج ولا مسؤوليات خارج إطــار إلتزامات العيش المشترك أحياناً.. لم يكن الزواج طوال فترة نموّي المالي خياراً مطروحاً بالنسبة لي، والسبب هو زها طبعا.. تحررت بفضل صديقاتي المتعددات من كل العقد التي استقرت عميقــا فيّ بسبب الكبت والحرمان الذي عشته في بلدي، ولكني أقسم لــك أني لم أقم علاقة جنسية في حلم مع امرأة غير زها.. لا يا سيدي، هذا يعني الشيء الكثير.. لا، لا بأس فالمهم هو أن زها لم تفــارق

خيالي طوال تلك السنين، بل كانت شريكتي في النظر عنـــدما لا يتعلق بالنساء، كما هي العادة.. تعودت أن أتحدث معها عنـــدما أكون لوحدي.. إستحكمت تلك العادة معـــي و لم اســـتطع أن أتخلص منها أبداً.. أحياناً عندما أكون في المتنـــزه لوحدي، أنتبه للصغار الذين يلعبون بسعادة هناك، فأتذكر عندما كنت أخاطبـــها في الجامع الأموي قائلا.. تعالي يا حبيبتي، فأطفالنا بأشد الحاجـــة إليك.. أما سألت نفسك يوماً.. كيف سيولدون إن اصررت على الغياب.. ولكن يبدو أن مناجاتي لم تجد سبيلها يوماً إلى وجدانها.. تملكني هاجس زها حتى أني لم أعد اشرب شيئا، إلا بعدد زوجي.. لا لا لم يكن هذا تفاؤلا أو تشاؤما، بل كنت أشرب لنفسي ولها وكأنها موجودة بالفعل، وكنت أفعل ذلك في كل مكان أجلـــس فيه في الخارج، كما في البيت.. كنت لا أعرف تـــأريخ مولـــدها ولذلك تعودت أن أحتفل بعيد مولدها في يوم مولدي أنا.. أحتفل به لوحدي في شقتي، وبصمت حتى تجود عينيّ عليّ ببضع دمعات فأرتاح.. ولكني لم اشرب شاي أو قهوة أو أي مشروب آخر إلا وثنيّت كأسه.. وفي ذات سنة، عندما حانت ذكـــرى مولـــدي، حجزت مائدة لاثنين في واحد من أفضل مطـــاعم اســـتوكهولم، وحضرت وحدي، ولكني أصررت على أن يأتوني بطبقين من كل صنف، يضعون واحدا أمامي والآخر أمام الكرسي الفارغ المواجه لي في الطرف الآخر من المائدة.. ينتظرون حتى أنتهي من طبقـــي، فيرفعونهما ويأتون باثنين من نوع آخر.. كنت أشعر طوال الوقت بالنظرات المنصبة عليَّ من الموائد الأخرى وعمال الخدمة على حد سواء، ولكني تشاغلت عنها بالتركيز على الرجل الـــذي كـــان يخدمني من دون أن يبدو عليه أي أثر للدهشة، بل لعله أبدى من

التعاطف والتفهم قدرا أكبر من الدهشة بكثير، ولـــذلك نقدتـــه (بقشيشا) كبيرا مع الحساب وخرجت في النهاية..

في الليلة نفسها، أدركت أني أقف في المنطقة الفاصلة ما بـــين العقل والجنون وهو ما أقلقني، فاتخذت قراراً حاسماً.. حان الوقـــت لأن أبعد زها عن تفكيري نهائياً.. أن أتحرر منها.. ولكنني إكتشفت في الليلة نفسها أيضاً، أني قد أردفت كأس النبيذ الذي قـــررت أن أتناوله قبل النوم، بآخر.. نسبت الأمر إلى حكم العادة وعاهـــدت نفسي على أن أبذل جهداً أكبر في هذا الشأن على أن أتناول ثالثاً حلاً للإشكال.. ولكن هيهات، فمع الكأس الرابع، اعتذرت مـــن زها قائلا.. لطالما أدّخرت طيفك لأيامي السود، فبذكرك اســـتعيد توازني.

الغربة وفقد حبيب خليط مميت يا صديقي، ففي الوطن يمكنك ان تحتمل أي شيء يصيبك لأن هناك الآخرون دومـــا.. الآخـــرون الذين يحبونك وتنتمي إليهم ولا يهمك إن كانوا واعين أو جهلـــة.. متخلفين أو متحضرين.. متعاطفين أو لاأباليين.. المهـــم هـــو أنهـــم يحبونك.. يحبونك لأنك أنت.. يحبونك لأنك واحد منـــهم وهـــم أهلك وأصدقاؤك وأحبتك وبإمكانك دائما أن تسلو احزانك معهم، وهم جديرون بفعل ذلك.. أما في الغربة، فكلٌّ مهموم بنفسه ولذلك لن يستطيعوا أن يتفرغوا لك وأنت الغريب عنهم.. هم قد يصبحون اصدقاءك، ويحبونك بقدر، ولكن لن يكون لـــديهم الوقـــت أبـــداً لمشاركتك أحزانك، وحتى إذا ما استمعوا إليك، فانهم لن يفهمـــوا أحزانك العصيّة على فهمهم، فتبقى وحيدا.. (أدير العين ماعنـــدي حبايب)، تباً، كانت تدمرني هذه الأغنية هناك.. كنت أجزع أحياناً من وحدتي العارمة هناك، وترهقني افكاري ولا أعرف لمـــن ألجـــأ

فأنـــزل إلى الشوارع لأسير فيها ساعات.. سريعاً وكأني أريـــد أن أفر من نفسي.. أتعب، فأتكئ على أقرب جدار اشـــعر بنعومتـــه، فأتذكر أنه هـــو الآخـــر غريـــب عـــني، أنفـــر منـــه فأصـــيح.. عرااااااااااااااااااااااااق يا عراق.. لِمَ (شبقتني).. ولكن لا جـــواب.. كنت أستطيع أن أنـــزل إلى الشوارع هرباً مـــن وحـــدتي في أيـــام الصيف فقط.. أما في الشتاء فالحال يكون ألعن بكـــثير.. تصـــورني جالساً لوحدي في شقة لا يمكنني أن أبارحهـــا، ألجـــأ إلى الخمـــر، فيصدح صوت (وحيدة خليل) لتصير زها ملء مسامي.. كم هـــي لئيمة وحيدة هذه، وكم هي قاسية لأنها لا تقدر ظـــروف ســـجني وحيداً هناك، فتنوح (مالي صحت يمّة أحّا، جاو وين أهلنة).. أيـــن أهلنا يا وحيدة؟.. أين؟.. هم أبعـــد مـــن أن اســـتطيع الشـــعور بوجودهم.. أين زها؟.. لقد نأوا جميعاً عني حتى بالزمن.. فمنذ قرون وأنا وحيد يا وحيدة.. ووحيدة لا تعطف، بل تقسو.. (ولف الجهل بالدار وأبعد ضعنّة).. نعم والله، تركت (ولفي) في داره المجهولة ولم أعلمه بسفري.. هو لا يعرف ما الذي حلّ بـــي.. هي لا تســـتطيع أن تتصور ما مرّ بـــي، وأين أصبحت.. أتوسل بوحيدة أن تكـــف، ولكنها تمعن.. (حمّلتوا يا أهلي بليل والولف غافي).. أكاد أصـــرخ.. أقرر الهروب، ولكن إلى أين، فدرجة الحرارة في الخارج (ثلاثة آلاف درجة) تحت الصفر.. أمدّ يدي لأطفئ الجهاز، ولكـــني لا أجـــرؤ.. (أسهر وخلّي ينام نوم العوافي).. أقبل.. والله أقبل.. لأسهر، وليهجر النوم مقلتيّ.. ولكن من يضمن لي أنها لن تسهر مثلي.. وأنها لا تفكر بـــي في هذه اللحظات بالذات.. كيف أعرف.. لا أجد إجابـــات، فأثور.. أعود إلى كأسي لأغرق به همـــومي، فيزيـــدها.. أرفـــض، فيضنيني الحزن.. فأظل أعبّ الكؤوس حتى يهديني السكر إلى النوم..

وعندما أتفادى سماع وحيدة في الليلة التالية، ينقضّ عليَّ هذا الساهر وهو يحدثني عن كيفية طرقه لباب الجار وهو يظنه بابه، لأن ذاكرتـــه انعدمت بعد فراق أحبابه.. حتى أنت يا كاظم.. ألم يكفك ما فعلته بـــي قسوة وحيدة؟!

لم تشأ والدة يوسف أن تفطمه، حتى بعد أن تجاوز السنة الثانية من عمره، كانت تتألم أحيانا عندما يعض حلمتها بعدما نمت أسنانه، ولكنها لم تستطع أن تفطمه لأنها كانت تعرف أنها لن تحتمل بكـــاءه إذا ما حرم من صدرها.. يمكن أن يكون موقف زوجهـــا الـــرافض لإستمرارها في إرضاعه بعد أن تجاوز السنة الأولى، على أســـاس أن ذلك يمكن أن يؤثر في شخصية رجل البيت القادم، أحـــد أســـباب إصرارها على موقفها.. ولكن الحق يقال، إن الدافع الأكبر يبقى، هو حبها الشديد له.. كان يزداد تعلقا بصدر أمه منذ لحظات الـــولادة، وحتى بعد أن بدأ يعي ما حوله، كان لا يشعر بالأمان إلا في حضـــن أمه وبحمى رائحتها وتحت أنظار عينيها الرحيمتين.. تعود أن يتطلـــع إلى وجهها بزاوية عينه وهو يمتص رحيق حياته من حلمتيها.. كانت تهدهده لينام، وهي تغني (دللول يلولد يبني دللول).. (عدوك عليـــل وساكن الجول!).. كانت تحرص خلال ذلك على أن تحمّل صـــوتها أقصى ما تستطيع من حزن، فقد كانت تلك وسيلتها في التعبير عما يعتمل في داخلها من خيبات، وعدم رضا بحياتهـــا، فكـــان الحـــزن يتسرب إليه من أذنيه، مثلما يتسرب الحليب إلى أعماقه.. هو فطـــم من الحليب، وإن جاء ذلك متأخرا، ولكن أذنيه لم تكفا يوما، عن أن تكون منفذا للحزن إلى أعماقه، حتى استمرأ الحزن وتعوده، أكثر من إعتياده على الفرح.. (دللول يلولد يبني دللول) لم يكن يفهم معناها في تلك الأيام الغابرة من حياته، وهو لا يتذكرها بصوت أمه بكـــل تأكيد، ولكن، لا شك أن تأثيرها عليه، بقي مستقرا في وجدانه حتى آخر يوم من حياته.

الليلة الثالثة عشر

توالت علي الأعوام، وكلما أوغل العمر في ذاكـــرتي، كانـــت الوجوه من عالمي القديم، تنحسر بالتدريج، إلا وجه زها، فقد كـــان يزداد تألقاً، ويتألق معه حظي وأنا أزداد ثراء.. ولكن لا تتصـــور أن تنامي ثروتي، وقبولي في المجتمع المخملي السويدي كانـــا كفـــيلان باسعادي نهائياً.. أبداً، بل كان غياب زها، والأسوأ، إحساسي شبه اليقيني أنها لو رأتني هناك، أقصد في السويد، لما إرتضت به لي، وذلك الشعور الخانق بالغربة، يسدون عليَّ سبيل الســعادة الكاملـــة.. لا أعرف، قد يكون هذا نتيجة طبيعية لحقيقة كوني شيوعي وجد نفسه جزءاً من نظام رأسمالي.. ولكن ما دخل زها به.. لم اعرف، ولكنـــه كان إحساساً قويا طوال الوقت، وصدقني أني لم يكـــن يهمـــني إن ظهرت ورفضت أن نكون في السويد، كنت مستعداً للذهاب معهـــا إلى أي مكان تريده.. ولكنها لم تظهـــر.. أستصـــرخها، فتـــأبى.. أستعطفها، فتضنّ.. أسترحمها فتقسو.. أغضب.. فيزجرني قلبـــي.. وهكذا لم استطع أن أصبر أحيانا فكررت محاولات هجـــر طيفهـــا، ولكن الفشل لازمني بنجاح ساحق.. في اليوم الذي إتخذت به آخـــر قرار كهذا، دُعيتُ إلى حفل زواج أخٍ لصديق سويدي، فتعمدت أن لا أحضر الطقوس التي تقام في الكنيسة عادة.. تصور، رغم كل تلك السنوات التي قضيتها بينهم، لم يسعني إلا أن أكون أنا الذي تشـــكل في بلادي البعيدة.. المهم، مع بدء الحفل الذي أقيم في قاعـــة تابعـــة

لفندق حُجزت نصف غرفه للمدعوين من المدن البعيـــدة.. ذهبـــت مبكرا ولم يخطر لي ببال المفاجأة التي أعدتها الأقدار لي في ذلك اليوم، فما أن دخلت القاعة نصف المكتظة، والتفتّ إلى حيـــث يفتـــرض بالعروسين أن يتواجدا، حتى جذب انتباهي، شعر العروسة الفـــاحم السواد.. يا للعنة، من دون كل نساء هذا البلد المليء بذوات الشعر الأشقر.. الشديد الشقرة.. اُفاجأ بعروسة شعرها أسود.. جمدت في مكاني عند رؤيتها، راح خيالي يرسم لي صورتي وأنا جـــالس علـــى ذلك العرش الجميل وبجانبـــي زها.. زها كما خلدت في ذاكـــرتي بالضبط.. انفصلت عن الواقع وأنا أمضي بذلك الحلم الجميل الـــذي لم أستطع أن أمنع نفسي من الانغماس فيه.. رأيتنا، أنا وزها في ليلـــة عمرنا، والأصدقاء والأقارب يحتفون بنا وهم ينتظرون انتهاء الحفـــل ليزفوني بالطريقة العراقية المعتادة.. (هاي الرادهه وهاي التمناهـــه، بنت الشيخ لابن الشيخ جبناهه).. نعم.. (هـــاي الرادهـــه وهـــاي التمناهه، بنت الشيخ لابن الشيخ جبناهه).

انتبهت لصديقي الذي أقبل علـــيَّ، فاســـتطعت أن أرســـم ابتسامة على شفتيّ لإستقباله، قادني إلى المكان المخصص لي علـــى مائدة تضم رجالا ونساء سويديين.. سلمت كما يجـــدر بـــي وجلست، ولكني لم أستطع أن أتخلص من بنت الشيخ (المجلوبـــة) لابن الشيخ، ظلت تلك الكلمات تتردد في بالي ما دمت ساكتا.. وغالبا ما كنت كذلك في تلك الأمسية.. كنت مرتـــديا أفضـــل بدلاتي التي كلفتني ما يعد ثروة بسيطة في العراق الآن، ولم يكـــن لأحد لا يعرفني، أن يشكك بسويديتي، إلا إذا ما انتبه الى اللكنـــة التي تشوب لغتي السويدية اذا ما تكلمت طويلا، وكنت حريصـــا على أن لا أتكلم إلا في حالات الضرورة لكي لا أبدو غريبـــا في

هذا الحفل بعد أن كنت قد شبعت غربة في ذلك البلد القـــارس البرودة.

حاول الذين يشاركونني المائدة أن يتقربوا مني بأســئلة كـــان واضحا أن القصد منها هو الانصياع لمقتضيات اللياقة الاجتماعيـــة، ولكن ردودي المقتضبة زجرتهم في النهاية، فتركوني لولعي المفـــاجيء بأنواع المشروبات المسكرة التي كانت توزع بكرم باذخ.. قررت أن اشرب لكي أتشاغل عن (هاي الرادهه وهاي التمناهـــه) فتناولـــت كأسين من أول صينية مرت بالقرب مني.. نعم كأسين كمـــا هـــي العادة.. كأس لي وآخر لزها.. ولكن تلـــك الشـــمبانيا الذهبيـــة لم تستطع أن تقدم لي شيئا في هذا المجال، فرحت أجرب أنواعا أخرى، فقد كانت ألوان السوائل في الكؤوس الطائرة على متن الصـــواني في أنحاء القاعة الواسعة، مغرية الى درجة تجعلك لا تحسب حسابا للأثر الكارثي لخلط تلك المكونات داخل معدتك.. ولكن همومي لم تدع لي مجالا لكي أحسب لما لم أكن أعرفه جيـــدا، حســـابا.. أشـــرب وأشرب وأشرب وأنا أفكر ببنت الشيخ التي اختفت منـــذ ســـنوات وأنتظر أن تأتيني، حتى تسرّب الشلل إلى وعيي رويدا وأنا ذاهل عمّا حولي.. كنت أردد تلك اللازمة مرارا وتكرارا مع نفسي رغـــم أن فرقة موسيقية كانت تعزف طوال الوقت، فتتناوب أفواج الراقصـــين الفرحين على المسرح الكبير الموجود في وسط القاعـــة الفســـيحة، ولكني كنت مشغولاً عنهم بتلك الكلمات التي حشرت في مكان ما من وجداني وأبت أن تفارقه.. تفاعلت الاهزوجـــة مـــع الألحـــان المسيطرة على جو القاعة فبدأت تفعل فعلها في أطرافي الـــتي بـــدأت تتحرك بطريقة لم آلفها من قبل.. كنت أكاد (أردح) وأنا جالس في مكاني، وبنت الشيخ تلك غير آبهة لحالي.. عندما توقفت الموســـيقى

فجأة في القاعة، كان السكر قد تعتع وعيي تماما، فبـــدأت أجهـــر بصوتي.. (هاي الرادهه وهاي التمناهه، بنت الشيخ لابـــن الشـــيخ جبناهه).. لم أهتم لأحد، بل نهضت من مكاني فاســـتدارت رؤوس واشرأبت أعناق.. وبدأت الجلبة المتبقية تخفت أكثر كلما ازداد عدد العيون المستفهمة التي بدأت تحاصرني وهي تتطلع مستغربة إلى هـــذا السويدي الذي بدأ ينطق بكلمات لم يمنع خفـــوت نطقهـــا مـــن الافصاح عن غرابتها على أسماعهم، وهو يتمايل.. لم أهـــتم مـــرة أخرى، بل تركت خطواتي الراقصة تقودني باتجاه المسرح الخـــالي في تلك اللحظات وأنا أرفع صوتي في كل مـــرة أكـــرر فيهـــا تلـــك الأهزوجة، مستفيدا من نعمة ذلك الخليط المتفجر الذي تناولتـــه، في خنق خجلي.. ما الذي كنت أريد فعله.. لم أكن أعـــرف.. فقـــط قررت فجأة ونفذت.. قررت ماذا.. وهل يهم ذلك عندما نكـــون نصف فاقدين للوعي.. لا أتذكر متى بدأت التوفيق بـــين حركـــاتي والأنغام السمجة التي كنت أصدرها.. كنت قد بدأت أقلد حركات (الجوبي) هذه المرة، بطريقتي الخرقاء، ويبدو أن هذا الأمر قد أعطـــى لعازف الغيتار في الفرقة، ايحاء أني كنت أريد أن أقدم هدية خاصـــة للعروسين فرافقني بألحانه التي بدت مضطربة في البدء ولكنها سرعان ما أصبحت أكثر انسجاما فتبعه اعضاء الفرقة الآخرين كل بآلته.. لم أكن أعرف حقيقة ردود الفعل عند الحضور فقد حاولت أن أتـــبين ملامحهم البعيدة ولكن وجوههم كانت تدور.. قلت لهـــم بصـــوت مرتفع.. كما أظن.. (كـــ... خواتكم) ثم عـــدت إلى أهـــزوجتي، ولكن يبدو أنهم تصوروا أن عبارتي النابية تلك كانت دعـــوة لهـــم لمشاركتي الرقص، فتقدم زوجان ليصطفا الى جانبـــي وهما يحـــاولان تقليد حركاتي التي كانت تقل خرقا وأنا رافع يدي الـــيمنى عاليـــا

وأطوح برجلي كيفما اتفق.. ثم تقدم اثنان آخـــران.. وآخـــران.. وآخران، حتى بدؤوا يأتوني من كل منضدة وزاوية فامتلأ المســـرح براقصين رافعي الأيدي. مطوحي الأرجل، وهم يحـــاولون الـــتلفظ بكلمات لا يعرفون معناها فرافق صراخهم عزف الفرقة الذي كـــان يزداد انسجاما رغم صعوبة مهمة عزف لحني علـــى تلـــك الآلات الغريبة.. مع رؤية كل أولئك من حولي ازدادت ثقتي بنفسي وتحسن أدائي، صوتا وصورة.. كان صوتي يرتفع مع كل لحظة تـــزداد بهـــا رقصتي الغريبة تعبيرا عن نفسها، فيرتفع صوت الأخـــرين معـــي.. وساقيّ تصارعان الهواءِ بعناد أشد وأنا أرفسه قبل أن تضـــربا الأرض بقوة، فيجاروني، لترتج القاعة في كل مرة.. ويداي ترسمان أشـــباحا في الفراغ بحركاتهما المبهمة الغريبة، فارتفعت معهمـــا غابـــة مـــن الأيادي.. بدا الجميع سعداء فراحوا يغمروني باستحسانهم من خلال الأكف التي كانت تلامس كتفي مربتة كلما اقترب مني أحد منهم، فأقمنا عرسا عراقيا صاخبا في السويد، من دون عـــراقيين.. (هـــاي الرادهه وهاي التمناهه.. بنت الشيخ لابن الشـــيخ جبناهـــه).. والله لكان الشيخ نفسه قد شارك في عرس ابنته ضـــاربا كـــل التقاليـــد والأعراف بعرض الحائط لو عرف أن تلك الحوريات سيرقصن لهـــا في عرسها.. أتذكر هذه التفاصيل وكأني حلمت بها البارحة، ولكن أحدثت كما أخبرتك بها بالضبط.. لا أعرف، فقد مر عليها زمـــن وأنا لم أكن بكامل وعيي كما تعرف.. أكنت حزينا أم فرحا وأنـــا استنـــزف المتبقي من وعيي وقواي بتلك الطريقة غير المتوقعة.. أيضا لا أتذكر.. ولكني أتذكر جيدا حين وجدت نفسي فجأة وجها لوجه مع العروس التي كانت ترقص مع عريسها على الايقاعات نفســـها.. توقفت مذهولا أمامها، رأتني فتوقفت هي الأخرى، ثم تقدمت نحوي

تسبقها نظرة امتنان عارم، ورغم سكري الشديد لاحظـــت دموعـــا تكاد تنبجس من عينيها الجميلتين.. عرفت أنها تقدمت للسلام عليَّ، فمددت لها يدي، ولكنها تجاوزتها لتمسك بذقني بيديها ثم تطبع قبلة على خدي.. اخترقني عطر مذهل فأغمضت عيني لتقفز زها الى بالي على الفور.. احتضنت المسكينة بقوة فجفلت.. من أقاصي وعيـــي المتهاوي أتاني تحذير بأني قد تجاوزت حدودي فأطلقت سراحها على الفور لأمسك برأسها بيدي وأطبع قبلة على جبينها.. انتابتني رغبـــة بالبكاء لم أستطع صدها.. فكانت الابتسامة الرائقة التي ارتســـمت على ثغرها الساحر عندما رفعت وجهها لتتطلع في وجهي، هي آخر ما أتذكره من تلك الليلة على الاطلاق.

في الصباح التالي.. أو لعله كان ظهرا، لم أتعرف فـــورا علـــى المكان الذي استيقظت فيه.. ولكني عرفت فيما بعد أنها كانت غرفة في الفندق الذي أقيم حفل الزفاف في قاعته.. كان الألم في رأســـي هائلا، ولكن الذي همّني فعلا هو طعم الحموضة المر في فمي، فقـــد أدركت دلالته على الفور فنهضت منـــزعجا من مكاني لأرى نفسي بملابسي الداخلية.. تلفتّ في الغرفة والانـــزعاج المتزايـــد يفـــور في داخلي فلم آبه لأناقتها المذهلة ونظافتها.. وقع نظري علـــى دولاب الملابس فأسرعت إليه.. فتحته لأجد بدلتي وقميصي.. و(الفيونكـــة) الصغيرة، بل وحتى جوربـــي، وقد غســـلت حـــديثا، وكويـــت.. وتحتها، كان حذائي يلتمع متألقا.. ارتديت ملابسي بسرعة وغادرت الغرفة.. وعندما وصلت الى قاعة الاستقبال الرئيسة للفندق، توجهت إلى حيث الاستعلامات لادفع ما ترتب عليَّ من نفقات لليلـــة الـــتي قضيتها عندهم.. ابتسم لي موظف الاستعلامات، وأخبرني أن كـــل الضيوف مدعوون على حساب العريس.. دعاني إلى البوفيه الخـــاص

في المطعم الرئيس لتناول فطوري، فأومأت برأسي موافقا ولكني توجهت، وأنا أكاد أتعثر من الخجل، الى الباب الرئيس، لأتسلل منه مبتعدا.

بعد عام 2003، ورغم ما عانيته بسبب قسوة ما حدث في العراق، شعرت بفرح غامر حين أدركت أنه قد اصبح بإمكاني أن أزور العراق أخيراً.. وكان البعض من معارفي قد زاروه بالفعل، ودعوني إلى زيارته لعلي استفيد من الفرص المادية التي بات يشكلها في ظل ظروفه الجديدة، ولكن ذلك كان مستحيلاً بالنسبة لي.. كنت على استعداد لأن أتبرع له ما إستطعته من أموالي إن كان ذلك يفيد.. ولكن أن استغل ظروفه لأحقق المزيد من الأرباح، فلا وألف لا.. كان هذا مستحيلاً بالنسبة لي، وقد لامني البعض، ولكني كنت صلباً في موقفي.. مستحيل، فالعراق كان زها.. أمي.. ابي.. أخواتي وكل ما هو جميل في حياتي، ولم يكن أي منهم صالحا لأن يتحول إلى مشروع استثماري بالنسبة لي، وكان هذا ما جعلني أقرر عدم زيارة العراق فور إنتهاء الحرب.. يا لسخافتي.. كنت أخشى أن يتهموني بأني قد ذهبت بحثا عن فرص إستثمار أو إتجار.. ليتهموا، فما كان هذا ليغير من الحقيقة شيئا.. لكني خشيت، ورحت أؤجل وأؤجل، خاصة أن أمي كانت قد رحلت وهي في حسرة الحصار.. ولم أكن قد سمعت شيئا عن زها بعد، وهذا ما لجم رغبتي الشديدة في السفر.. وعندما برح بي الحنين أخيراً وأوشكت على تنفيذ تلك السفرة الحلم، تواترت الأخبار عن الإقتتال الجاري الذي قتل رغبتي في زيارة مدينتي الأثيرة بغداد.. إكتفيت بأن أحلم في كل شتاء قاسٍ أعانيه هناك، بشتاء بغداد الدافيء.. بغداد، كما عرفتها.. لا كما باتوا يتحدثون عنها.. مدينة الموت والخراب.. لم أجرؤ على رؤيتها على ذلك الحال فبقيت أؤجل.. وعندما بدأت الأخبار تتحدث عن تحسن الوضع التدريجي، كنت قد بلغت مرحلة حاسمة في نمو شركتي وهو ما بات يتطلب مني بذل أقصى جهدي لتحقيق

النجاح الناجز، وهو ما فعلته، ولكن ذلك كان على حساب بضع سنوات أخرى بعيداً عن العراق.

قلت لك أكثر من مرة أن زها لم تكن بعيدة عن تفكيري طوال السنوات التي مضت منذ رأيتها بفستانها ووروده السود، لآخر مرة، ولكن إحساسي بأنه أصبح بمقدوري أن أزور العراق متى ماشئت، جعلها أقرب مني بكثير و لم يعد بإمكان المشاغل الكثيرة أن تبعدها عن تفكيري، خاصة بعد كل المعاناة الهائلة التي سببها لي غيابها.. أتعرف؟.. بمضي الوقت هناك، وبتزايد اندماجي مع ذلك المجتمع الغريب عني، كنت أزداد بعداً عن العراقيين، بعدما رأيت من بعضهم كل ما أكره.. قررت أن أبتعد عنهم، ولكني لم استطع يوماً أن أتجاهل كلمات عراقية تداعب أسماعي وأنا أهيم في شوارع السويد.. ما أن أسمعها، حتى أنسى كل مقرراتي وأبدأ بالتفكير في كيفية التواصل مع الناطق بها حتى قبل أن ارى وجهه.. كانوا لا يستطيعون تمييزي عندما أتحدث معهم بالسويدية، وكنت أفعل ذلك أحياناً، ولذلك كانوا يتعاملون معي كما تعودوا أن يتعاملوا مع السويديين.. بكل احترام، ولكن معاملة بعضهم كانت تتغير عندما يعرفون أنني عراقي مثلهم.. ولكن هذا لم يكن ليزعجني، ولا ليبعدني عنهم.. بل كنت أحياناً، وبعدما يزري بي الشعور العارم بالغربة، أغير ملابسي لأن الملابس الغالية الثمن قد تكون خطراً هناك.. حيث يتجمعون، فأذهب.. كان غيري من العراقيين الذين يعرفونني يلومونني لأني أفعل ذلك، ولكني لم آبه لهم، بل كنت أذهب وأخالطهم.. أجلس في مقاهيهم وأضيع بينهم وهم في خضم ضوضائهم المستمرة ضائعين بين غلالات دخان (الأراكيل)، تعلوا أصواتهم وهم يتخاصمون بسبب لعبة (دومينو) أو رمية زهر.. هناك

فقط، كنت أشعر بآدميتي التي ضيعتها منذ قرون.. هناك كنت أشعر بانتماء مخاتل سرعان ما يختفي بعودتي إلى بيتي البعيد.. عندما أكـــون وحيداً مع نفسي.. أراجع كل ما مرّ بـــي من أحداث خلال حياتي، وأعجب لما انتهيت إليه.. أتعرف، في الأفلام، يدفع المخطئ دائما ثمن خطئه، وهذا ما تسرب إلى قناعاتنا، ولكن ما حدث معـــي يثبـــت العكس، اقصد كل النجاح المادي الذي حققته، ابتداء من رأس مال جمع بطريقة غير مشروعة.. أو غير قانونية في الأقل، فكان هذا مـــا جعلني أهتم كثيراً لفكرة الاجبار والاختيار في حياة الانسان، وقـــد أخذت مني هذه الفكرة وقتا طويلا.. آه، أنظـــر إلى أيـــن أخـــذنا الحديث.. انا فقط أردت أن أخبرك أني لم أقترب من عراقي هناك إلا وحاولت بشتى الطرق أن أعرف إن كان يعرف فتاة باسم زها.. أية زها كانت، ولكني لم أنجح طوال سنوات، صارت عقوداً.. وعنـــدما ابتدأ عصر (الانترنيت) بعدها، أصبح شغلي الشاغل أن اســـتخدمه للبحث عن زها، وكنت أحياناً أقضي ساعات طـــوال في مكاتـــب الانترنيت التي انتشرت وأنا في عملية بحث مستمر، ولكـــني بعـــدما أصبح عندي خطي الخاص في البيت، كنت أعتزل الحياة بين الحـــين والآخر لأقضي يومين أو ثلاثة مع (كومبيوتري) الخاص في عمليـــة بحث مستمر عنها، ولكن حينما وجد (الفيسبوك)، و(التويتر) مـــن بعده، أصبحت عملية البحث هاجساً كاد يزري بصحتي ويقوّضها.. لقد مكثت ذات مرة في البيت اثنتا عشر يوما متتالية في البيت أبحث في صفحات كل المواقع الاجتماعية المتوفرة على الانترنيت، منقطعـــاً عن العالم، ما عدا مرور مستخدم من الشـــركة علـــيّ ليجلـــب إليّ حاجاتي وهو يوافيني بأخبار الشركة التي يزوده بها (بشير خان) مدير الشركة في مثل تلك الأيام.. على مرّ السنوات، لم أفوّت محرك بحث

لم استخدمه، و لم أتوانى عن إتباع أية طريقة يمكن أن تخطر ببـــالي.. كنت أبحث عن أسماء.. أو صفحات.. أو صور.. تصور أنني لم أنتبه إلى أنني كنت بذلك أبحث بين مليارات الاحتمالات.. ولذلك باءت كل جهودي بالفشل في النهاية.. وعندما قاربت حـــدود اليـــأس، قررت أن استحدث صفحاتي الخاصة، ورحت أنشر فيها كـــل مـــا يخطر لي ببال وأنا أذكر زها بإسمها الصريح عسى أن تكون الرميـــة التي لا رامي لها.. أنا أتذكر الآن بعض تلك المنشورات التي توالـــت طوال شهور حتى أدركني اليأس.. عزيزتي زها.. ماذا لـــو ظهـــرت الآن، وهنا، فأتزوج غربتي وتكوني لي وطن.. تصور، بهذه الفجاجة وبالاسم الصريح، ولكن هذا ما حدث.. ومنها ايضاً.. آســـف يـــا زها، ولكني أفرغت آخر دنان خمرتي، وأنا مستعد الآن لأن أحبـــك مرة أخرى وبكامل وعيي.. أو.. أشتاق إليك يا زها كإشتياق ضال تائب، لسبل الرشاد.. وغير هذا الكثير.. الكثير جداً.. ولكن مـــن دون جدوى.. يا لله كم عانيت من خيبات الأمل طوال ثلاثين عاماً، ولا أعرف كيف استطعت أن أعيش حتى هذه اللحظة.. كنت طوال تلك السنوات أعيش على تخوم الجنون، والناس من حولي مبـــهورين بنجاحاتي، ويتهموني بالعقل وهم لا يدركون أنني من أعماق جنوني كنت أستمد حكمتي.. كانت دنياي تفتقد للثبات..وعيي بالكـــاد يتشبث، ولكني كنت على يقين من أمر واحد.. هـــو أني أحبـــها.. وكنت أفعل ذلك بِإصرار لأنني كنت مسكوناً بفكرة أن أكون كفؤاً لزها هذه المرة، يوم التقيها.

جالسا في الباحة الأمامية لبيت أهلي، كنت أسرح بنظري في الحديقة ذات صباح رائق بطريقة عجائبية.. تعانق نظراتي أشجارها فتبدو لي وكأني أراها للمرة الأولى رغم أنها الأشجار نفسها التي أعرفها جيدا.. شعرت ببهجة إفتقدتها منذ سنوات فاستغربت من نسياني لهذه المتعة التي حرمتها على نفسي من دون سبب.. أمعنت في التمتع بهذه النعمة التي أعدت اكتشافها للتو، وفجأة.. لمحتها.. كانت هناك بين شجرة البرتقال والنخلة، في الظل الذي يوحدهما.. لم اصدق عينيّ حين رأيتها لأول مرة، بل تصورت أنه مجرد خداع نظر، ولكن بعد التركيز، أيقنت من أن لا مجال للشك، فقفزت من مكاني وهرعت إليها.. حين اقتربت بدت كوردة نحتت من حجر كريم اسود أوراقها من زمرد ولكن ذلك لم ينقص من اعجابي بها فهذا ما يسمى قمة الاتقان.. ولكن لا.. أي اتقان فهي طبيعية لا شك في ذلك.. قرفصت أمامها ورحت أتمعن.. ها هي أمامي، حقيقة واقعة.. وردة سوداء.. أيمكن هذا.. قالوا أن لا وجود لها، ولكن ها هي أمامي بكل روعتها.. لم أجرؤ على لمسها، بل اقتربت بوجهي منها لأمعن النظر فيها فلاحظت في وسطها بالضبط، دوامة من لون سمائي غامق يتدرج حتى يستحيل عند أطرافها سوادا فاحما لم أر مثله يوما متلبسا وردة.. دوامة تبدو وكأنها رقعة من سماء الليل تعلن هزيمة الظلام أمام نور الفجر الوليد.. داعبت هبة عطر سحري تسللت منها حاسة الشم عندي، فشهقت، أيمكن أن يكون هذا عطر أرضي؟!.. بقيت حيث أنا وأنفاسي تكاد تتقطع وأنا أتطلع في جمالها المذهل.. ترى، من أين أتت، ومن الذي زرعها في هذا المكان.. هل من الطبيعي أن ابحث عنها طوال عمري ثم أراها في حديقة بيتنا بالذات.. كادت الأسئلة المتكاثرة تحيرني لو لا أني شعرت بحركة خلفي،

إلتفتّ، فرأيت أبـــي واقفا يتطلع فيّ.. كان هو المسؤول دوما عـــن الحديقة فسألته على الفور:

- من أين أتت هذه الوردة يا أبـــي؟.

نظر اليَّ وابتسامة حنان تترقرق على شفتيه، ثم قال:

- هي لم تأت.. بل كانت موجودة هنا حتى قبل أن تولد يا بني.

صحت:

- مستحيل، وإلا لأنتبهت لها

تبدلت ملامحه واختفت الابتسامة قبل أن يقول بصوت شـــابه حزن هذه المرة:

- تلك كانت مشكلتك دوما.. كنت عاجزا عن الإهتمـــام ولذلك عجزت عن رؤيتها.

فقلت باستنكار:

- هذا كلام غير معقول يا أبـــي.

وسكتّ قبل أن اضيف بعـــد هنيهـــة مـــن دون أن أنتظـــر رده:

- كيف أمكنك أن تخفيها عني.. ألم تكن تعرف كـــم أنـــا بحاجة إليها؟.

فقال بنبرة بدت تعبيرا عن التفهم:

- هي لك يا ولدي و لم ينكرها عليك أحد، ولكنك أنـــت الذي عجز عن أن يراها.

فأرتفع صوتي قائلا:

- لا يا أبـــي مستحيل.. ما تقوله مستحيل.

فقال محاولا أن يخفف وقع كلامه عليّ ببسمة حانية:

- يا ولدي، قدر الذي يرى نفسه فقط، أن لا يرى، وأنت كنت مشغولا بنفسك.

شعرت بالاستياء ولكني لم أشأ أن أقرّ له بصواب قوله، فقلت بخبث:

- فلِمَ لَمْ تجعلني أراها.. ألست أبي؟

سيطر الحزن على ملامحه هذه المرة وقال:

- حاولت.. كثيرا.. صدقني حاولت كثيرا، ولكنك لم تستطع أن تتجاوز نفسك.

ثم سكت للحظات قبل أن يضيف:

- هكذا أعدوك يا بني و لم يكن لك في الأمر حيلة.

أردت أن أسأله عن هؤلاء الذين أعدوني ولكن ظهور أمي أعاقني.. فجأة رأيتها واقفة بقربنا وهي ترمق أبي شزرا، قبل أن تلتفت إليّ ليتبدل حال نظراتها، فتذوب حنانا وعيناها تتفحصاني باهتمام كما تعودت كلما رأتني منذ كنت صغيرا.. قلت لها وأنا أشير إلى مكان الوردة:

- أماه.. أنظري.

ولكن الوردة العجيبة لم تكن حيث اشرت.. كانت (البرتقالة) موجودة.. وكذلك النخلة، ولكن لم يكن ثمّة ظل بينهما.. ولا وردة.. صحت:

- أين هي؟!

ولكن أحدا لم يجبني.. تقدمت وأنا أكاد أتعثر بحيرتي.. وقفت أحدق حيث كانت فلم أرها.. انحنيت لأتأكد ففتح لي باب في الفسحة الفاصلة بين الشجرة والنخلة، فكرت في أن ألجه ولكني قلت لنفسي أنه لا يكفيني، ومع ذلك فقد وسعني حين تقدمت.. ألفيت

نفسي في درب مفتوح فرحت أركض وأنا أدير نظراتي لعلي أعثـــر عليها، ولكن الطريق طال و لم أجد لها أثـــرا.. شـــعرت بالتعـــب، فتوقفت وإذا بـــي أركض في نفق ضيق أكاد لا أستطيع أن اقف فيه منتصبا.. إنتابني رهاب الأماكن الضيقة وشعرت بضـــيق شـــديد.. التفتّ لأعود من حيث أتيت فلم أر ضوءاً يدل على وجود البـــاب الذي دخلت منه، ومع ذلك قررت أن أعود، ولكني حين هممت بأن أركض أبت ساقيّ أن تمتثل إلي.. إستحال الضيق رعبـــا.. فكـــرت كيف يمكنني أن أتخلص من هذا الموقف الرهيب.. فاستيقظت.

استيقظت خائفا منـــزعجا، ولكني سرعان ما استعدت هدوئي بعدما اكتشفت أنه لم يكن سوى حلم.. لازمني الحلم طوال ذلـــك اليوم.. تذكرت فيما بعد أني كنت قد تابعت قبل أيام برنامجا في قناة (الناشيونال جيوغرافيك) عن الوردة السوداء التي اكتشفت مؤخرا في فيتنام وهذا يفسر رؤيتي إياها في الحلم.. طبعاً ذكرني الحلـــم بزهـــا ونبوءتها التي أطلقتها قبل ثلاثين عاما عن وجود هذه الوردة.. رباه، أية فتاة كانت.. جعلني هذا أعيش واحدة من أشد نوباتي النفســـية المضطربة احباطاً وأنا محاصرٌ بين طيف زها وأطياف العراق.

يا لله يا استاذ!.. كم تتعامل معنا الأقدار بغرابة أحيانـــاً، فقـــد رأيته وأنا بحالتي تلك.. عندما دخل.. كنت أنا موجـــوداً و لم تكـــن تلك هي المرة الأولى التي أكون فيها متواجداً مع دخول أحد يطلب عملاً.. كان السؤال عن فرص العمل حدثاً مستمراً وإعتيادياً في كل فروع شركتي، ولكن هذا جذب نظري فور دخوله، قلت لنفســـي فور رؤيتي له:

– هذا وجه عراقي

فرحت أتابعه من بعد.. سأل الموظف المختص بلغـــة ســـويدية سليمة، وبكل أدب.. فرد هذا عليه بالجواب المعتاد.. آســـف.. في جزء من ثانية، لحظت إمارات خيبة الأمل على ملامحـــه، فشـــعرت بغصة، قبل أن ترتسم ابتسامة رائقة على شفتيه وهو يشكر الموظف، ويبتعد.. صعب عليَّ أن أتركه يمضي هكذا فناديته حتى قبل أن أعيد النظر في قراري الفوري.. توقف والتفت.. طلبت منه مبتســـماً أن يقترب، فأتاني.. لاحظت شعره الأسود اللامع مصفف بعناية فائقة.. سألته حين إقترب بعراقية واضحة:

– أنت عراقي؟

بانت المفاجأة على وجهه الأسمر الجميل، ولكنه أجاب بـــأدب جم، وبالعراقية أيضاً:

– نعم أستاذ.

شعرت بسعادة غامرة لأنه عراقي.. سألته:

– كم مضى عليك هنا؟

قال:

– خمس سنوات

– مع أهلك

- بل لوحدي
- هل عملت من قبل؟
- نعم
- فلِمَ لَمْ تستمر؟

فابتسم وقال:

- الظروف أحياناً.. وفي أحيانٍ أخرى، لم تهن عليَّ نفسي.

راقت لي إجابته كثيراً، فأصبح قرار التعيين جاهزاً، ولكني لم أكن قد قررت نوع الوظيفة بعد.. كان عقلي يعمل بسرعة متناهية، لم تكن الوظيفة تشكل أهمية كبرى، فقد كان بإمكاني أن أخصص له راتبا من أموالي الخاصة بكل سهولة، ولكني خشيت ردة فعله لأنه لم يبدُ لي من النوع الذي يقبل صدقات.. كادت الحيرة أن تغلفني وأنا في ذلك الموقف، لولا أن فكرة مفاجئة أنارت لي الطريق.. تذكرت معاناتي في السنوات الأخيرة في ترتيب أوراقي الخاصة، ومواعيدي.. الرسمية منها والشخصية.. قلت له:

- أتقبل أن تكون سكرتيري الشخصي؟

قفزت الفرحة إلى وجهه، ولكنه سرعان ما تماسك وقال بأقصى ما يستطيعه من جدية:

- أي شيء يا أستاذ.

ولكنه سرعان ما استدرك قائلا:

- أي شيء.. قانوني.

فضحكت لقوله و لم أعلق.. بل سألته:

- متى تستطيع أن تبدأ؟

قال:

- فوراً.

وهكذا كان.

كان جمال، وهذا هو إسمه، إضافة نوعية بالنسبة لي، إذ سرعان ما رتّب لي كل شيء من حولي، وأصبحت حياتي أسهل بفضله.. ابدى مقدرة كبيرة في التنظيم والترتيب.. والأهم من ذلك، في الأدب والأخلاق الحميدة فلم أندم على إنتقائه بتلك السرعة، وبمرور الوقت أصبح بالنسبة لي، صديقاً مقرباً، حتى لم نعد نفترق إلا قليلاً، ورحت أصطحبه في سفراتي المستمرة إلى المدن السويدية المختلفة في زياراتي للفروع المنتشرة هناك.

لاحظت ذات يوم أنه كان يطيل النظر في نموذج لأعلان حول الشركة معروض علينا، قلت محاولاً إستشفاف رأيه:

- هل أعجبك الإعلان؟

فقال وهو شبه ساهم:

- الإعلان جميل، ولكن ليس هو ما يشغل بالي.

فضحكت وقلت:

- فما يشغل بالك أيها المفكر؟
- اسم الشركة.

قلت وأنا مشغول بقراءة ورقة تخص العمل كانت بيدي:

- ما به اسم الشركة؟
- من أين أتيت به؟

إنتبهت عندها إلى أنه جاد، فأزحت الورقة من أمام نظري وقلت:

- لم تقل لي.. ما به؟

فقال وهو يحدق في عينيّ مباشرة:

- أقصد اسم زها.. أهو يشير إلى شيء محدد؟

كان هذا جديراً بأن يثير أقصى إهتمامي كما تعرف، فقلت:

- هو يهمني جداً.. جداً.. ولكن لم سؤالك عنه؟!

فقال وقد بدا عليه التفكير:

- لأنه يذكرني بزها عرفتها.

عندما سمعت اسمها، كان أول ما تبادر إلى ذهني سؤال "وكم من زها في العراق؟!".. تسارع النبض عندي وقلت متوتراً:

- صفها لي.

لاحظ هو جديتي كما يبدو، فقال مبتسماً:

- ما هذا يا أبا اليسر.. أراك ملهوفاً؟!

خشيت عندها أن أكون مدفوعا بحلمي، فتساءلت:

- أهي حبيبتك؟

فضحك عندها وقال:

- بل كانت ملاكاً مر بي وأنا طفل.

وهو طفل.. والآن هو بالثلاثين!.. لتأخذني الشياطين إن لم يكن هذا يعني شيئا.. تزايد توتري، فقلت بنزق:

- أرجوك يا جمال.. صفها لي.. أو حدثني عنها.

ابتسم لي وهو يقول:

- حاضر، حاضر.. كانت أجمل وألطف فتاة رأيتها في حياتي.

لم أعد أطق صبراً، فقلت وأنفاسي تتلاحق:

- أكان شعرها أسودَ.

قال بعد تفكير:

- حسبما أذكر.. نعم.

فرددت كالأبله بعده:

- حسب ما تذكر؟
- كان ذلك في بداية الثمانينات.. كنت في الصف الأول أو الثاني ابتدائي حين بدأت تلاطفني كلما رأتني في طريقها، وتقبلني على خدي أحياناً.. ولكنهم كانوا جيراناً لنا منذ أن وعيت الدنيا.

تساءلت ولهفتي تضطرم:

- كم كان عمرها؟
- لا أعرف، ولكنها كانت في الجامعة.. ما زلت أذكر كيف كنت، عندما أراها مقبلة بزيها الموحد، أتعمد أن أقف في طريقها لكي تداعبني.. أو تقبلني، فأشعر بسعادة هائلة.. كانت هي حديث الحي الذي لا يُمَلّ.

كدت أسمع وجيب قلبي الذي أضاع لحظتها أسلوب نبضه المعتاد.. قلت بصوت بدا لي مخنوقاً لحظتها:

- أين كنتم تسكنون؟.
- حي دراغ.. ولم يزل أهلي هناك.

يا رب الرحمة.. يا آلهة الصدف.. حي دراغ.. المنصور.. الخط 57.. هذا الرقم الذي إرتبط بحياتي منذ مولدي.. الذي تفاءلت به بسبب ذلك، ولكني لم اعرف أنه سيكون وبالاً على مواليده في بلدي.. وعليّ طبعا.. لا، لا يمكنني أن أكون مخطئاً هذه المرة.. لطالما غادرت الحافلة في تلك الصباحات الغابرة وذرعت أزقة الحي بحثاً عنها.. إنتابني إحساس أني أحلم، ولكني إنتفضت وقلت راجياً:

- حدثني عنها.

تطلع في وجهي قليلاً وقال:

- لا أعرف ما أصابك.. ولكني لا أتذكر الكثير من التفاصيل عنها.. أنا فقط أتذكرها بوضوح شديد وهي تسير في الزقاق المؤدي إلى جامع الحي، حيث شارع المنصور.. في الذهاب والإياب.

تساءلت بغباء:

- أكانت تستقل الحافلة 57؟

فضحك وقال:

- وما أدراني

إنتبهت فورا إلى سخافة سؤالي.. ولكن الأمر كان واضحاً جدا.. أيقنت أن قرار تعيين جمال الذي إتخذته بتسرع لم أعتد عليه، كان هو الباب الذي فتح لي دهليز الوصول إلى زها.. لم يكن عندي أي شك بهذا لحظتها.. قلت وأنا بالكاد أسيطر على مشاعري التي طفحت:

- أتعرف عنها شيئا الآن؟
- آخر ما أعرفه عنها أنها تزوجت.

سكت قليلا وبدا عليه أنه يفكر، ثم اضاف:

- في تلك الأيام، اختفت فجأة.. بل اختفت العائلة كلها، فقد انتقلوا من بيتهم فجأة وانقطعت أخبارهم عن الجميع.. ولطالما تساءلت مع نفسي عنها، ولكن لا جواب، حتى عاد أخوها زاهي بعد أكثر من سنتين، ليسكن المنزل الذي بقى فارغا طوال فترة غيابه، ومنه عرفنا أن أخته زها قد تزوجت وسافرت مع زوجها.

كفارسة محترفة، كانت تمتطيني.. منظر نهديها الطليقين اللـذين كانا يتقافزان كخيول برية منتشية بجذلها في البرية، كان كفـيلاً في الماضي، بجلب كل دمائي إلى كهفيّ إياهما.. ولكنهما هذه المرة بديا لي ككتلتي لحم زائدتين.. كانت تتحرك كنابض فقد السيطرة علـى نفسه.. تموء.. تصرخ.. تتوسل وتلعن.. لسانها الافعواني يجـول في فمي وهي تسقيني رضابها الشيطاني.. تنشب أظافرها بصدري بطريقة تبعث القدرة في أسوأ أنواع الرجال.. ولكني لم أكن رجلاً لحظتها.. حين فاجأتني وحيداً في الشقة أفكر بما كشفه لي جمـال، عرفـت لم أتت، فأخبرتها أن لا رغبة عندي بالمرة، ولكنـها قالـت أن كـل المطلوب مني هو أن استلقي على ظهري.. وأنها ستتكفل بصـقري، هي التي ستجعله يطير، ولكن لم يبدُ على (عصفوري) الواقـع بـين كماشتي فخذيها في تلك اللحظات المحرجة، أنه سيطير.. يئست منه، ولكنها حاوَلَتْ.. وحاوَلَتْ.. حتى فتّ في عضدها، فاسـتلقت إلى جانبـي، تتطلع في السقف الذي كنت أنظر إليه هربا مـن النظـر إليها.. قالت بتهكم واضح:

- أيغريك شيء في السقف.. أتريد أن نمارسه هناك؟

آثرت السلامة فلم أجبها.. بقيت مستلقية ولكنـها لم تحتمـل الوضع كثيراً، فنهضت لترتدي ملابسها التي تخلصت منها بسـرعة شديدة، قبل دقائق، بصمت.. لكنها قبل أن تغـادر، إلتفتـت إلي وقالت بهدوء:

- لتذهب إلى الجحيم.

ففعلتُ.

هو لا يتذكر حتما، إلا إذا ما كان بإمكان الإنسان أن يتذكر يوم مولده.. ولكنه عرف بعض تفاصيل ذلك اليوم التي استقرت في أقصى حدود منطقة النسيان في عقله اللاواعي، عندما إستفسر عن سبب وجود اسمين له.. كان مولده حدثا هائلا في العائلة، لأنه ولد بعد أربعة إناث، وبعد أن كاد والديه يفقدا الأمل.. في ذلك اليوم بدا أبوه وكأنه قد عاد توا للحياة.. رابط أمام باب الغرفة التي ترقد فيها زوجته.. رابط ليتلقى أوامر القابلة المأذونة، وتنفيذها فورا، ولم تنفع معه كل محاولات نساء الحي اللواتي حضرن للمساعدة، في إبعاده إلى خارج البيت.. هو كان في انتظار يوسف، ولم يكن هنالك شيء يمكن أن يبعده عن المكان في اللحظة التي ستشهد مولده.. بالحقيقة، هو يحب بناته، بل يحبهن حبا جمّا، ولكنه يعرف أن البنات لا تربيهن غير أمهاتهن، ولذلك كان يتطلع ليوسف الذي سيربيه كما يشتهي، ليعوض به كل الخيبات التي شعر بها من جراء زواجه غير السعيد هذا.. وبالفعل، فقد بشروه أخيرا بولادة يوسف المنتظر ففاضت مشاعره ولم يعد يستطيع أن يسيطر على إنفعالاته، حتى أنه كاد يقبل المرأة الغريبة التي بشرته بذلك.. أكرم القابلة ومنحها أضعاف المبلغ الذي كانت تتقاضاه.. ولكن، لم يكن مقدرا لذلك اليوم أن يستمر سعيدا هكذا، فما أن إرتاحت زوجته من آلام الولادة الهائلة التي عانت منها، لتمنح الدنيا، ذلك الوليد، حتى أعلنت أنها ستسميه (يسار)، تيمنا بكنية أخيها الحبيب، النقيب (نبيل) الذي كان رفاقه في الحزب الشيوعي يكنونه بأبي يسار.. جن جنون الأب، ولكنها لم ترضخ.. حاول أن يفهمها بالحسنى أن من حقه شرعا أن يطلق على أولاده ما يشاء من أسماء، ولكنها لم تفهم.. أراها الوليد، ونبهها إلى مدى جماله، وقال لها وهو يكاد يتوسل:

- ألا يستحق مثل هذا الملاك اسم يوسف؟!

ولكنها لم تصغ.. تعكر جو البيت في الباقي من ذلك اليوم بعد فرحة الصباح التي ضاعت، ولكن كل تلك المناوشات التي حـــدثت فيه لا تعتبر شيئا أمام الشجار الكبير الذي خاضه الزوجان بعد أيام، عندما إكتشف أنها قد سجلت وليدها، وبطريقة لم يعـــرف يومـــا ماهيتها، في سجل النفو س بإسم (يسار)، كمـــا أرادت.. رضـــخ الرجل فيما بعد.. بعد أن تدخل الأهل بينهما، ولكنه لم يطلق ذلك الإسم يوما على ولده، حتى أن أصدقاءه أخـــذوا يكنونـــه بأبـــــي يوسف، بعدما كان حتى ذلك اليوم (أبو حمدية)، وهكذا صار يسار، (يوسف) ابن أبـــي يوسف في المنطقة، ولكنه بقي (يسار) رسميا.

الليلة الرابعة عشر

عدتُ إلى بغداد.. لا، لا.. لم أقصد أن بغداد هي الجحيم.. لا يمكن لبغداد أن تكون جحيماً وإن ساءت أحوالها، فهي أعز من أن تكون كذلك، وأجمل.. يا صديقي.. يا صديقي، الأوطان ليست فنادق يجب أن نغادرها إن ساءت الخدمات فيها، وأنا لم أغادر وطني إلا مضطراً كما تعرف.. ولكن بغداد التي عدت إليها لم تكن تشبه بغداد التي حلمت بها طوال ثلاثين عاما، فأكتويت بالجحيم الذي شبّ في أعماقي وأنا أراها على ذلك الحال.. المهم، كان كمال أخو جمال ينتظرني حين وصلت.. كان المخطط أن اقيم في فندق على أن يكون كمال مستعداً لإبداء المساعدات عندما أحتاجها، ولكنه لم يتركني لأذهب.. أحاط بي أهل جمال وأسقطوا حججي بالتتابع حتى أقنعوني بالبقاء.. أفردوا لي غرفة لأسكنها.. يا للعراقيين!.. لا يستطيعون أن يتخلصوا من ولعهم بالكرم ومظاهره حتى وهم في أسوأ حالاتهم المعيشية.. لا أخفيك أن ذلك الأمر قد أراحني، ولكن، لكنت أكثر حرية لو سكنت الفندق، فأنا الآخر عراقي.

تجولت مع كمال في بغداد، فهالني حالها.. وسخة، قذرة وكالحة وجوه سكانها.. لم أرهم بغداديين كما تعودت في السابق.. ما الذي حدث.. ما الذي جرى لشوارع بغداد.. بناياتها، أزقتها؟! أين جنائنها وأين ورودها.. جوريها.. قداحها؟! بل أين ليلها؟.. لم أستطع أن أرى بغداد في الليل بسبب الظلمة المستشرية ومنع

التجوال، وبغداد من دون ليلها، ربع بغداد.. ولكن ما نفع هذا الكلام، فهو لن يغير شيئا والتخريب مستمر.

أما عن زها فقد رأيت بيتهم أخيرا، في اليوم الأول لوصولي.. أواه لكم كنت قريباً منها في تلك الأيام الغابرة عندما كنت أتيه في الشوارع بحثاً عنها، ولكني لم أعرف.. ومن أين كان لي أن أعرف؟.

رتّبت أموري بسرعة، وعهدت بإدارتها إلى من أثق به كثيراً.. إلى جمال، وأتيت.. كانت الأمور واضحة في بالي، وخططي جاهزة لأول مرة منذ ما يقارب الثلاثين عاماً.. كان أملي معقوداً على أخيها، زاهي، الذي يعرف طريقها بالتأكيد، وكان قراري أن أقترب منه بأي ثمن، وأن أعرف لأنال حريتي أخيراً.. أجّرت داراً كنت مستعدا لأن أشتريها لو تطلب الأمر فهي قريبة من دار أهلها، حيث يسكن الهدف.

كانت الخطوة التالية هي أن أتعرف على زاهي، وان أحاول إستمالته حتى يكون صديقاً مقرباً إلى الحد الذي يسمح له بالكشف عن تفاصيل عائلية، وهذه مهمة صعبة جداً كما تعرف، فالعراقيين جدران صمّاء عندما يتعلق الأمر بتفاصيلهم الشخصية، ولكني مع ذلك تأملت.. وكنت أعرف في أعماقي أني محقق ذلك.

رأيته فصدمت.. ذهلت، ودارت بي الدنيا.. لا يمكن أن يكون أخيها.. مستحيل.. هو لا يشبهها في شيء، والأسوأ أنه بدا لي قميئاً.. رغم محاولته الواضحة لإضافة قيمة لا يستحقها، لنفسه، بدا قميئاً جدا، والمظهر عندي لا يمكن أن يكون إلا إنعكاساً للجوهر، فعرفت عند رؤيته أني حمّلت فكرة زيارتي لبغداد أكثر مما تستحق.. ولكني مع ذلك أقنعت نفسي بأني قد رأيت بغداد التي أحب في الأقل.. صحيح أنها لم تبد كبغداد التي بقيت أحلم بها طوال ثلاثة

عقود، ولكنها بغداد، فالمدن بأهلها.. بناسها لا بعمرانها، ولكن ما رأيته منها جعلني اشعر بالأسى من أجلها.. أن أحزن لها.. لم يساعدني هذا، فعدت إلى مأزقي الشخصي.. كيف أتصرف؟.. حاولت أن اقنع نفسي أن كونه إنسان سيء كما حدست، لأفضل لي من أن يكون جيداً لأن هذا في الأقل سيسوّغ لي أن أقترب منه لسبب مصلحي، ولكن لم يبد أن هذا سيساعد كثيراً، فحقيقة الآخرين لا يمكن أن تسوّغ (لا نبل) مرامينا.. إحترت في أمري وترددت كثيرا، ولكني لم أكن أمتلك أي خيار آخر، يجب أن أرى زها أو أن أعرف مصيرها في الأقل.. رحت أمر من أمام دارهم مرات عديدة في اليوم، وعندما أراه، أبادر إلى إلقاء التحية عليه، فكان أحيانا يرد، وفي أخرى لا يكلف نفسه عناء ذلك.. أرقت ماء وجهي له، وفرشت له كرامتي، سجادة، ولكنه وطأها من دون أن ينتبه.. أو يستجيب.. جزعت، فقررت أن اذهب إلى بلدتي التي لم أكن قد زرتها بعد، فبعد رحيل والديّ وانشغال أخواتي بحياتهن الشخصية، لم يكن هناك ما يدفعني إلى الإستعجال بهذه الخطوة الطبيعية، أن أزورهن وأطمئن على أوضاعهن.. قررت أن أذهب، ولكني لم أستطع.. ففي ليلة الذهاب، استيقظت عطشاً، فألفيت نفسي غارقاً في ظلام دامس كما هو ليل بغداد.. تلمست سطح المنضدة القريبة مني، فعثرت على قداحتي التي تستخدم كمصباح صغير بالإضافة إلى واجبها العادي في إشعال شموع موتنا.. أقصد لفافات التبغ طبعاً.. هرعت إلى المطبخ وبحثت عن كأس، ملأته ماء بارداً ورفعته إلى فمي.. انهمر ضوء مصباح القداحة، على بؤبؤ عيني.. فلاح لي وجه زها، كان مبتسماً، ولكنه سرعان ما فقد نضارته التي بدا عليها.. بانت عليه إمارات الخوف، فغاب جماله..

بدت وكأنها تختنق وقد إتسعت عيناها رعباً، فأبعدت الضوء ومعـــه الكأس عن عيني بعدما إنتقل رعبها إلي.. فكرت بما حدث، لا بد من وجود تفسير لهذا الذي حدث.. ولكن ما هو؟.. لم أهتد إلى تفسير فرجعت إلى فراشي لأستلقي منتظراً نوما لم يسعفني أبدا حـــتى لاح الفجر.

استيقظت متأخراً، فلم أستطع أن أحدد موقفي.. أأســـافر إلى بلدتي أم لا؟.. خرجت بعد تناولي فطوري.. فرأيتـــها معـــه.. لا لا ليست هي.. كانت زها صغيرة، طفلة قد تكون في عامهـــا الثالـــث ولكنها كانت تشبهها إلى درجة لا يمكن أن تخطأها العين.. مرّ مـــن أمامي مع إبنته.. أو من يدري، لعلها تكون إبنتها، فلم يلق التحية.. لم أشعر بالإهانة، شعرت بأني قريب جدا منها فألغيت الرحيل.

أنا آسف إذا ما كنت أستعجل في البوح هذه الليلة من دون اهتمام بالتفاصيل، ولكني أشعر بأني يجب أن أخبرك بكل شيء.. لماذا؟.. لا أعرف.. فقط أشعر بأني يجب أن أقول كل شيء الليلة.. المهم، عندما يئست، لجأت إلى كمال الذي قدمت له أعذاراً واهية ليفعل ذلك، إستدرجه لي إلى المقهى القريب كما اتفقت معه، فنجحت في إجتذاب إهتمامه بي أخيراً، وإن بقي على حاله.. الجلف الذي حدسته.. إلتقينا يومياً في المقهى، ولكن ذلك لم يكن كافياً بالنسبة لي، فرحت أبحث عما يمكنني من إختراق دفاعاته، فوجدت بغيتي في كونه يعشق الشرب.. شرب المسكرات طبعاً، فاقتنيت خزيناً كبيراً منها في البيت، ثم دعوته.. لنكون لوحدنا، إذ لم أشأ أن يكون ثالثاً معنا لكي أكون متهيأً لإقتناص أية فرصة تتاح لي، ولكنه كاد يقضي على خزيني من دون أن تظهر عليه علامات السكر ولو مرة واحدة.. تبيّن لي أنه مدمن خطير.. يعبّ من زجاجاتي كميات لم أكن لأجرؤ على التفكير بشربها، ومع ذلك ينهض مستقيما في نهاية السهرة ويمضي صاحياً وكأنه لم يشرب شيئاً.. يا للعين، بدا وكأنه يخفي برميلاً لا يمتليء في أحشائه، أو أن جدران معدته من السماكة بحيث لا يمكن لتأثير المسكرات أن يخترقها، وصولاً إلى عقله.. كاد اليأس يطيح بآمالي مرة أخرى، لولا أني لجأت إلى كمال مرة أخرى.. سألته إن كان يعرف مكاناً جميلا في بغداد.. يقدم المسكرات والمتعة معاً، فدلّني، بل اصطحبني إلى مطعم تتكفل فيه الفتيات بتقديم الخدمة، فتفاءلت به وقررت اصطحاب زاهي إليه وهو ما فعلته.. وصلنا إلى هناك، وبحثت عن الفتاة الجميلة التي كنت قد إتفقت معها خلال زيارتي الأولى، بعد أن أنقدها مبلغاً كبيراً وعدها بمثله بعد إنتهاء المهمة.. وجدها.. أرشدتنا

إلى المائدة التي إنتقتها لنا، وبدت الأمور واعدة جداً في البداية، بعدما تفاعل زاهي مع ما رآه هناك.. ولكنه سرعان ما بدأ بمزاولة هوايته الغريبة في إزعاج الناس، حتى إنه كاد أن يقرف الفتاة بتصرفاته وطلباته الغريبة وغير المؤدبة لولا أني كنت ابتسم لها وأشجعها على الصمود، بصمت.. بل تبعتها مرة وطلبت منها (رسمياً) أن تحتمل من أجلي، ومن أجل المبلغ الموعود الذي زدته لها.. بعد أقل من ساعتين، قضينا على قنينة (الويسكي) التي طلبتها من أفخر الأنواع المتوفرة.. كنت أنا الذي يعدّ الكؤوس لكلينا، فسقيته كؤوساً مترعة، فيما حرصت على أن يكون كأسي أكثره ماء، وكنت أحرص على إفراغه في أصيص الزهور الصناعية القريب من مجلسي كلما اقتنصت منه غفلة.. شرب أكثر من نصف القنينة لوحده، بل لعله شرب ثلاثة أرباعها، ولكن لم يبد عليه أثر لسكر.. لعنته وقررت اللجوء إلى الخطة (ب).. قلت له:

- ما رأيك أن نشرب (عرقاً) لبنانياً؟

لم يعترض، فطلبت من الفتاة أن تنجدني بقنينة من أفضل (العرق) المتوافر عندهم.. أتتني بها، فعدت إلى واجبي في إعداد الكؤوس وحرصت على (القسمة غير العادلة) نفسها التي إنتهجتها منذ البداية.. نفد الربع الأول من القنينة، ثم أتبعه الربع الثاني، ولا تغير باد على وعيه.. ولكن صوته مع الربع الرابع، بدأ يضطرب، وبدا كأنه لا يستطيع أن يثبت على مقعده، فحدست أنه أصبح أخيراً تحت رحمتي، ولكني لم أعرف أيضاً كيف أطرق الموضوع الذي يهمني.. خشيت من ردود فعل السكارى غير المتوقعة.. ولكن، موجود العرق كان يقترب من النفاد ولا بد من مبادرة، ولذلك استجمعت شجاعتي، وقررت أن أطرح الموضوع، وليكن ما يكون..

قررت ولكني لاحظت في اللحظة المناسبة ولحسن الحـــظ، الوجـــوم الذي بدا عليه.. سألته بتعاطف حقيقي:

- ماذا يا زاهي.. ما بك؟

قال وكلماته تتعثر قبل أن تغادر فاه:

- إنها زها.

كدت أفقد صوابـــي.. صحت:

- ما بها؟

فرد من دون أن يلتفت إلي:

- تركتها مريضة.. طلبت مني أمها أن نأخذها إلى الطبيـــب ولكني كنت مرتبطاً بموعدنا هذا معك، فأجلت الأمر إلى الغد.

عرفت فوراً أنه يقصد إبنته، لا زهاي، ومع ذلك تساءلت:

- من زها؟.

- ابنتي الصغيرة.

فقلت صادق النية:

- أتريد أن نذهب لنأخذها إلى الطبيب فوراً؟

- لقد تأخر الوقت، سآخذها إليه في الغد، بنفسي.

وهكذا تهيأت لي فرصتي الثمينة أخيراً.. لم أشـــأ أن اضـــيعها، فقلت من وحي خيالي:

- زها.. الله.. كم أحب هذا الاسم.

سكتّ وأنا أتطلع إليه، فلم يبدُ عليه أنه يسمعني.. قلت بإصرار:

- حبيبتي كان اسمها زها.

فانتفض وإلتفت إليّ وعيناه تقدحان شرراً.. فاجـــأني ذلـــك، ولكني لم أسكت، بل قلت مواصلاً:

- كانت تلك أيام الجامعة.. لم نترك مكاناً في الموصل لم نزره معاً.

بدا البله في عينيه العاجزتين عن الاستقرار، وقال متسائلاً:

- الموصل؟

- نعم الموصل.. ألم أقل لك أني أنهيت دراستي الجامعية في الموصل قبل أن أسافر؟

وكنت كاذباً لأني لم أقل له شيئاً كهذا.. هزّ برأسه موافقاً، فشجعني ذلك على الاستمرار.. رحت أقص عليه كل ما يخطر لي ببال.. فالمهم فقط كان أن أذكر زها.. زها وزها.. زها وزها.. كنت أريده أن يعتاد ذكري لها فرحت أردد زها وزها وأنا مستمر في هذري.. زها.. زها.. زها.. التمعت الدموع في عينيه، ولكني لم أرحم.. زها.. زها حتى سالت دمعة بدت لي حرّى.. قلت:

- ما هذا يا أبا زها.. أتبكي؟

فقال بصوت أرهقته تأتأة السكر:

- دعني بحزني أرجوك.

ولكني لم أدعه، بل أمعنت في محاصرتي له.. قلت:

- مستحيل.. أنت صديقي.. أخبرني.

فرد قائلاً:

- ما الذي أحدثك عنه.. أسكتْ.

ثم سَكَتْ.. شعرت برعب.. كان لما قاله وفعله مدلولات مرعبة، ولكنه سكت، ويبدو أنه لن يتكلم.. بتّ أعرف هذا اللعين، وايقنت أنه لن يتكلم مهما حاولت.

جلستُ صامتاً لا أعرف ما أقول أو أفعل وأنا أنظر إليه بثبات.. لم يبدُ عليه أنه يتذكر أني جالس معه.. بل بدا وكأنه لا يعرف أين

هو.. مرت ثوان طوال، وفجأة، قال من خلال دموعه التي لم تكن قد انقطعت:

- كان ذلك في يوم لعين.

لم أعلق بشيء.. بل أنصتّ إليه بكل جوارحي:

- حين عادت، لم يكن غيري موجودا في البيت.. كان والدانا قد ذهبا لأداء بعض الأعمال المطلوبة، وبقيت لوحدي.. كنت أعرف أنها في الجامعة، ولكني لاحظت حين عادت أنها لم تكن ترتدي الزي الموحد.

كنت أجاهد لأتبين كلماته الصادرة عن لسان أثقله السكر، ولكني شعرت بالانزعاج حين سكت.. كدت أصرخ به أن يستمر، ولكني أحجمت.. قال بعد برهة:

- كانت ترتدي فستاناً أراه لأول مرة.. يا لله!.. كانت تبدو كملاك.. ملاك حقيقي.. كانت دائما تبدو كذلك، منذ صغرها.. أواه كم كنت أحبها، ولكني لم أخبرها بذلك أبداً، بل حرصت منذ صغرنا على أن أكون نفسي معها فأظل أزعجها حتى أراها تبكي.. ولكنها لم تبك ابداً.. لم أرها تبكي يوما بسبب مضايقاتي لها، وكان هذا يقتلني.

سكت لكي يلتقط أنفاسه كما بدا.. ثم قال بعد ثوان:

- كانت ترتدي في ذلك اليوم فستاناً أبيضَ تزينه ورود سود.

كنت في اللحظة التي قال فيها هذا، ألامس قنينة العرق بعصبية.. أجفلت لحظتها فسقطت على الأرض بصوت مدوي.. اعتذرت منه لذلك وقلت بصوت مبحوح:

- أكمل أرجوك.

ولكنه لم يكن بحاجة إلى طلب مني، كان في تلك اللحظات خارج حدود كل الايعازات التي يمكن أن تصدر إليه.. كان قد تحول بنعمة الويسكي والعرق إلى آلة بوح ناطقة.. قال:

- سألتها أين كانت، فقالت في الجامعة.. سألتها عن ملابسها، فقالت كانت هناك حفلة.. أخبرتها أنها كاذبة، فابتسمت معتذرة وقالت أنها لبسته لسبب آخر.. لا.. لا أذكر الآن الكثير من تلك التفاصيل التي خلدت في ذاكرتي وبقيت أجترها طوال ثلاثين عاماً.. ولكنك أسكرتني أيها الحقير، ولذلك نسيت بعضها.. المهم، صرخت بها ووصفتها بالفاسقة، فانتفضت كاللبؤة وحذرتني أن أكرر تلك الكلمة في وصفها. ولكني قلتها مراراً وتكراراً حتى بدا عليها غضب هائل.. يبدو أني قد استنفرت كل قدراتها على التحدي، فصاحت.. "ما دمت مصراً، فأعرف أني لم أكن في الجامعة.. هل ارتحت"

سكت، وبدا عليه وكأنه يحاول أن يتذكر شيئاً ثم قال متابعاً بعد قليل:

- لم أسألها أين كانت.. خشيت من الاجابة، ولكني كنت غاضبا بما فيه الكفاية لأصفعها بعدما قالت ذلك.. وكانت تلك أول مرة اضربها فيها.. كنت في اعماقي أريد أن أرى دموعها لعلي اهدأ.. ولكنها لم تبك.. لم يبد عليها الخوف، بل وقفت أمامي بكل كبرياء، وهو ما لا أتوقعه من غيرها، ولكنه أحنقني جداً لحظتها.. بل جعلني أجنّ، فاستجمعت كل قوتي في كفي التي انهلت بها على

وجهها الجميل.. وجهها الرائع الذي لن أراه، ولـــن أرى مثيلا له مرة أخرى.

شعرت عندها برعب هائل وأنا أتساءل مع نفسي "لِمَ لَنْ يـــراه مرة أخرى".. وكأن ما قاله لم يكن واضحا بما فيه الكفاية!.. كـــان جالسا أمامي وهو يمسح عينيه بكفيه ويخرج اصواتاً مقرفة من أنفـــه وهو يحاول وقف سيل المخاط الذي استثاره الدمع.. قـــال مكمـــلاً فجأة:

- أنا لا أذكر بعد ذلك غير شيء واحد.. هي جثة هامدة وأبـــي يضربني بخشبة لا أدري من أين أتى بها، بكـــل قوة وقسوة وأنا مستسلم، وأمي تصرخ بجنـــون حـــتى زجرها أبـــي فسكتت.. هذا هو المشهد الذي يأبى أن يفارق ذاكرتي وعشته ملايين المرات طوال الســـنوات التي مرت.

جثة هامدة!.. جثة هامدة!.. تساءلت لحظتها مع نفسي عمـــا تعنيه هذه العبارة.. ولكن حين اقتربت من الفهم، قلت "مستحيل.. يبدو أنني قد فهمت خطأ" لم يتح هو الفرصة لي لأفكر أكثر، بل قال متابعاً:

- سقطت بعدما ضربتها تلك الضربة فارتطم رأسها بحافـــة مائدة الطعام بعنف، وكانت هي القاضية.

كان هذا لا يحتمل التأويل، وكان خارج طاقة البشـــر علـــى الاحتمال، ولذلك تصرف عقلي وكأنه غُلّف بما يمنع عنـــه الفهـــم، فبقيت أتطلع إليه وأنا لا أعرف كيف أتصرف.. ويبدو أن الســـكر كان قد أسقط كل مسوغات الحذر عنده، فأكمل حتى من دون أن يحرص على خفض صوته:

- انتظر أبـــي حتى الليل، ثم اتصل بـــأولاد أخيـــه الـــذين حضروا ولفوها ببطانية ثم وضعوها وهم متسترين بظلمة الليل، وصمتهم.. وضعوني أنا في سيارة ثانيـــة وانطلـــق الموكب الجنائزي مبتعداً عن البيت الذي تركته ســـاكناً سكون الموتى بأمر صارم من أبـــي، رغم تجمـــع نســـوة العائلة فيه.. في مركز الشرطة أخذوني وأنـــا ذاهـــل إلى التوقيف، فيما حولوا الجثة إلى المستشفى.. يـــا لأبـــــي المسكين، كأن تلك الكارثة لم تكفه، ليرزأ بتلك الأخرى.

قال ذلك وسكت.. أنا الآن لا أعرف كيـــف اســـتطعت أن أصبر عليه حتى أنهى كلامه.. ولكني في أعماقي كنت أريد ذلـــك.. كنت أريد أن أسمع كل شيء لأستوعب.. أو بالأحرى لأصدق مـــا أسمع، ولكني كدت أن اصرخ به أن يكمل، لأعرف عن أية رزيئـــة أخرى يتكلم، لولا أنه قال متابعاً:

- المسكين.. بعد التشريح أخبروه أنهـــا تحمـــل جنينـــاً في أحشائها.. يا للأهوال.. والله لو سقط ذلك الســـافل في يدي لمزقته تمزيقاً.

في لحظة، توقفت كل الضوضاء من حولي.. لم يكـــن ثمـــة إلا الصمت الذي فرضه الذهول على نفسي ومن حولي.. ما له يتحدث عن جنين.. جنين من؟!.. لا.. لا بد أن هذا السكير العفن قد بـــدأ يخرّف.. منذ تلك اللحظات لم أعد أستطيع أن أركز معه وهو يحدثني عن كيف أن والده فعل المستحيل لكي لا يطول سجن ولده الوحيد الذي تبقى عنده رغم أنه لم يزره في السجن.. لا هو ولا زوجتـــه، وكيف أنه لم يطلق سراحه إلا بعد وفاة والده.. حدثني عن حيرتـــه حتى اهتدى إلى البيت الذي استأجره أبوه بعد يومين مـــن المأســـاة

ليهجروا المنطقة التي لم تعرف شيئا عن موت زها بسبب الكتمان الشديد الذي أحاطت به العائلة هذا الأمر.. وكيف ماتت أمه هي الأخرى بعد أشهر من خروجه، ليعود هو إلى المنطقة للسكن في بيت أهله المتروك، وهناك أشاع أن أخته تزوجت وسافرت إلى الغربة مع زوجها.. حدثني عن تفاصيل أخرى لم تعلق بذاكرتي، حتى قال وهو يكاد ينهار:

- سافرت ولن تعود أبداً.. أبداً.

ثم أسند رأسه إلى ذراعيه المستلقيتين على المنضدة أمامه، وانخرط في نوبة بكاء مرّ.. أبداً.. أبداً.. أبداً.. راحت هذه الكلمة تدور بسرعة هائلة في بالي وهي تحاول أن تستجمع وعيي الذي تناثر لهول ما سمعه طوال دقائق.. مع أول قطرة وعي تكاثفت على جدران عقلي، تسلل نمل إلى قدميّ وراح يدبّ صعوداً من هناك.. شعرت بشياطين الغضب تتجمع لترقص وتتقافز حول نيران الجحيم الوليد، ولكن المفردات كانت أكثر من أن استطيع إستيعابها وجني المعنى منها.. جنين.. جثة هامدة.. سجن.. هجر.. دموع.. حنق.. ضرب ودفن، ولكن (أبداً) تلك كانت شغلي الشاغل.. أبداً.. أبداً.. وفجأة.. وبطريقة لم ولن أفهمها ايقنت أن كل ذلك كان يعني أني لن أحلم بلقاءِ زها مرة ثانية أبداً.. أبداً.. أبداً.

عاف نمل ساقيّ الدبيب، فوصل سريعا إلى وجهي.. تجمعت شياطين الغضب فزعة، وأسقطت فتاة الخدمة الصينية التي كانت في يدها حينما أفلتت صرخة وحشية من أعماقي.. رفع رأسه مذعوراً والتفت إلي، فأعانني ذلك في تسديد لكمتي، وكانت مثالية لأنها أسقطته أرضا.. لم أضيع الوقت لأني كنت أشعر في أعماقي أنهم لن يتركوني أجهز عليه كما أريد.. بوثبة واحدة أصبحت بقربه، دفعته

بقدمي لينقلب على ظهره وأجلس على صدره وقد قيدت ركبتاي حركة يديه.. تطلع إليّ مذهولا، وبدا كأنه يريد أن يقول شيئا.. لكمته على عينه.. على أنفه.. على فمه.. كنت أريد أن أرى دماء، ولكنها لم تظهر.. تتالت اللكمات السريعة والموجهة إلى وجهه، ولا دماء وأنا ما كان ليرضيني إلا رؤية الدماء.. فكرت بسرعة هائلة.. إما أن لكماتي لم تكن بالقوة المطلوبة، أو أن جلده جلد تمساح.. في تلك اللحظات، أوحى لي شيطان كان قد استعاد رباطة جأشه، بذكرى من الأفلام.. أنت تعرف بالتأكيد تلك اللقطة التي يستخدم فيها الممثل القنينة المكسورة كسلاح قاتل.. راقت لي الفكرة طبعاً، فالتفتّ على الفور، ولكني لم أعثر على قنينة العرق حيث توقعتها على الأرض.. قفزت إلى المنضدة لأتناول قنينة الويسكي.. كانت هناك فالتقطتها.. بدا لي الأمر سهلاً جداً.. أضرب القنينة بحافة المنضدة ليبقى في يدي عنقها، وتلك الحافات غير المستوية، الحادة.. أغرزها في عنقه فيكون عندي دماء.. هكذا بكل بساطة، ولكنهم أحاطوا بي من كل جانب وسحبوا القنينة من يدي رغم مقاومتي العنيفة.. صرخت بهم.. شتمتهم ولعنتهم.. ثم توسلت إليهم، ولكنهم لم يخلوا سبيلي.. لاحظت أني خلال صراعي معهم، كنت قد اقتربت منه، كان قد رفع رأسه قليلاً وهو يهذر ويطلق شتائم ولعنات لا يفهم أحد منها شيئا.. كانوا قد قيدوا حركة يديّ، ولكن ساقي كانت حرة.. ركلته على وجهه بأقصى ما أستطيع من قوة.. سحبوني بعيداً عنه ولكني إستطعت أن ارى الدماء وقد سالت من فمه في آخر مرة رأيته فيها.. وهم يمضون بي بعيداً عن ساحة المعركة، إنسلّت النادلة التي كانت تتابع المشهد وهي تصرخ مرعوبة، وذهبت راكضة باتجاه رجل دخل القاعة يركض هو الآخر.. حدثته

للحظات وهي تشير بعصبية إلى حيث كنا نجلس، فتصورت أنها ذهبت لتشكوني، فأستغربت منها هذا، ولكني، حين قربوني من الرجل، لاحظت تعاطفها معي من خلال نظراتها، فأحترت في أمرها، ولكن ليس طويلاً، تذكرت أنه ما زال يتنفس، فبكيت من شدة حنقي.. عندما شاهدوا دموعي تسيل، اصابهم الذهول.. قال أحدهم:

- بعد كل ما فعلته بالرجل، تبكي أنت؟!

لم أعلق.. لم أكن استطيع.. قال الوافد الجديد شيئا، فمضوا بي إلى خارج القاعة.. في الممر قال لي:

- ما الذي حدث؟

لم استطع التعليق ايضاً.. قال بعد تفكير قصير:

- حسنا.. لا وقت عندنا للتفسيرات.. الشرطة في طريقها إلى هنا الآن.. من الذي سيدفع الحساب؟

لا أدري كيف اهتديت إلى نقودي، ولكني نقدته ضعف ما طلب مني، فقال لاثنين من رجاله أن يخرجاني من باب خلفي، أرسلهم معي خشية أن اعود وأجهز عليه، ولكني كنت لحظتها مشغول البال بفكرة أخرى.. كنت أفكر في قبرها.. وكيف يمكنني أن أجده لأسجد عنده.. ولكن من الذي سيدلني عليه.. يا الله.. أغثني يا مغيث.. أنجدني.. أعنّي يا معين.. أوه، لا تبالي، فأنا أكثر رجل ذرف دموعاً في هذا العالم.. أنا.. أنا (أبو عبرة).. على وزن اسم ذلك السافل، (أبو دفرة).. لا لا يا صديقي، دعني أبكي فهذا يفيدني.. لا تخشى عليَّ.. المهم إقتادني الرجلان إلى الخارج، وهناك أوقفوا لي سيارة أجرة وأنتظروني حتى أبتعد، ليعودوا إلى الداخل.

سارت بـي السيارة مسرعة في ليل بغداد الحـزين.. كانـت فكرة زيارة زها.. زها روحي.. زها حياتي، قد ملكت عليّ لبـي.. كان مهماً جداً عندي أن أكون على ذلك القرب المؤكد منها أخيرا ولو كانت ميتة.. كان الرجل الذي تركته مجندلاً خلفي هو الوحيـد الذي يعرف مكان قبرها.. ولكن ألم اصابعي سرعان ما نبـهني إلى حراجة موقفي.. ماذا عنه.. ماذا عن ردة فعـل أقاربـه وأصـدقائه ومعارفه عندما يسمعون ما حدث له وهو يعرف أين أسكن.. غمّني التفكير بهذا، ماذا أفعل.. وفيما أنا في خضم حيرتي تلـك، رأيـت منطقة سكنية بدت لي جميلة.. ذكّرتني أنوارها المشعة ببغـداد الـتي أحب.. لم أتردد، بل طلبت من السائق أن يتوقف فوراً.

حثثت الخطى باتجاه المنطقة التي بدت لي أرضا بكراً اكتشـفتها بنفسي.. كنت أريد أن أقضي بعض الوقت هناك لأتبين من أمـري رشدا.. كنت بحاجة إلى تركيز لم أكن لأبلغه لو ذهبـت إلى بـيتي المؤجر الآن.. ولكني لم أقطع أكثر من عشرة امتار بكثير، حتى عـمّ الظلام.. وقفت مذهولاً.. لقد اختفت بغداد التي توهمتها لدقائق.. لم أعرف ما أفعل، ولكن ما أن عكّرت الصمت، أصوات المولدات التي إشتغلت تباعا، حتى وجدت نفسي في بداية شارع فرعي قـررت أن أسير فيه.. وأنت تعرف ما حدث هناك.

أنا أشعر بتعب شديد ايها الصديق.. بل الحقيقة هي أني أشعر ببعض الآلام.. في صدري.. أنا أريد أن أرتاح.. أن أنام قليلاً.. فاتني أن أقول لك أني تذكرت وأنا أمشي في ذلك الشارع، كيف هدد ذلك النذل، أبا الجنين، فتبادر إلى ذهني فوراً يوم قالت لي أني ساعرف يوما لِمَ لَمْ تشأ أن تدلني على بيتهم.. اكانت تخاف عليّ من هذا (الطحش).. أي نوع من البشر هي هذه الزها؟!.. لا بد أن تكون ملاكاً في السماء الآن.. بكل تأكيد.. هو؟ لا أبداً، بل سأتركه لعذابه الأليم ليهلك به.. لا تتصوري عاجزاً عن جعله يدفع الثمن.. لقد قضيت في بغداد الوقت الكافي ليجعلني أعرف أن المال كفيل بشراء حياة الكثير من البشر، لا معتوه واحد، وأنا أمتلك الكثير منه.. الكثير جداً.. ولكني بتّ مسؤولاً عن زها الصغيرة.. أأحرمها منه.. أنا على يقين من أنها لو كانت موجودة لبسطت جناحيها على هذه الصغيرة، فكيف أتسبب بأذى من تحبه زها.. ثم ماذا عن بقية أولاده.. وزوجته.. أنا لا أعرف كيف سأتصرف، ولكني سأفكر في شيء ما.

إن خسارتي كبيرة.. كبيرة جداً، ولكني في الأقل استطعت أن أصل إليها، ولو متأخراً.. متأخراً كثيراً، ولكني وصلت.. كما وصلت إلى الحقيقة.. صحيح أني لم أعرف حدود الإختيار وحدود الإجبار في حيواتنا، ويبدو أنني لن أعرف ولو إمتدت حياتي لقرون، ولكني وصلت إلى ما أريد في الأقل.. أنا الآن الإنسان الذي أرادتني أن أكونه.. أنا لدي الضمير، والمقدرة على الحب.. والغفران بالتأكيد، فلولا ذلك لكان ميتاً الآن.. هي تعرف أن لدي الآن من العقل والتجربة ما يجعلني غير صالح للإستغفال.. لقد إستفدت من كل أخطائي، ولم يعد هناك من يستطيع أن يظهر لي غير ما يبطن..

أنا الآن أعرف البشر ولن يستطيع أحد أن يخدعني.. أنا على يقين من أنها ما كانت لتتمنى لي كل ذلك، فهي لم تكن امرأة إعتيادية لترتضي برجل عادي.. لو لم تر فيّ ما لا يتوافر في غيري، لما أحبتني.. أنا أدرك ذلك الآن جيداً.. في هذه اللحظات، أنا لا أعرف ما الذي سأفعله، ولكني سافعل الصحيح كما تتوقع مني ولذلك لا تخشى عليّ أيها الرجل الطيب.. فقط سأزورها بطريقة ما، وبعدها سأتبين طريقي.. آآآآآآآخ.

صوت آخر

هل هذا معقول.. أيمكن أن تكون هكذا هي النهاية.. أن ينتهي بهذا الهدوء.. يسار يموت بهذه الطريقة.. لا، لا أستطيع أن أصدق.. يسار الطيب.. يسار الجميل.. كيف مات هكذا.. لا يا ربي، كيف حدث هذا.. كيف لم أتوقع أن يكون على وشك الموت.. كيف فجعني بهذا الموت المفاجيء.. لا، مستحيل أن يكون هذا حقيقة، كيف اصدق أنه كان يموت، دون أن أستطيع مد يد المساعدة له، أنا الذي قرر أن يقدم له كل ما يمكن أن يريحه، فقد أردت أن أعتذر منه بطريقة ما، وها هو قد مات، وتركني وحيدا مع ذنوبي العديدة التي لا تغتفر.. ما الذي حدث، كان جالساً أمامي يتحدث بطريقته المحببة، يحدثني كصديق.. أنا من دون كل الناس، يحدثني كصديق! آه لكم بدا حزينا وهو يحدثني، ولكم كنت ملهوفا للإستماع إليه، رغم أني لم أفهم الكثير مما قاله، يا لهؤلاء المثقفون!.. من أين يأتون بأفكارهم العصية على الفهم هذه؟ لقد جعلني أتابع حديثة طوال ليالٍ وأنا أكاد لا أفهم شيئاً.. (مثل الزمال).. ولكن حديثه كان آسراً وإمتلك عليَّ روحي، لِمَ كان آسراً؟!.. أنا (زمال) فعلاً، ولكني كنت أريده أن يستمر بحديثه ما دام مسرورا ببوحه.. ولكن، ما الذي حدث.. إصفر وجهه فجأة، فنهض من مكانه، ولكنه لم يعد يستطيع الوقوف، صاح آخ، فأجلسته على الكرسي.. بدأ العرق ينهمر من وجهه بغزارة عجيبة، أسأله عمّا يشعر به، فلا

يجيبني، بل يؤشر إلى ذراعه اليسرى ويلامس باصبعه أسفل ذقنـــه.. أسأله إن كان يشعر بألم، يهز برأسه إيجابا، ولكنه يتحامل على نفسه ويحاول أن يبتسم لي مشجعا.. هو، يبتسم، لي، مشجعا.. يبدو على وجهه وكأن الألم يشتد عليه، يشير بحركـــة عصـــبية إلى منتصـــف صدره.. ثم يبدأ يختض كسعفة في مهب الريح.. بعدما كان يتصبب عرقا، ثم بدا وكأنه يشعر ببرد شديد لأنه ارتجف.. أرْتَبكْ.. أصـــرخ على هؤلاء الحيوانات، أفراد الشرطة ليهبوا لمساعدتي.. لمســاعدته.. يلاحظ هو إرتباكي، فيشفق عليَّ، يحاول أن يبتسم لي.. أن يهـــون الأمر عليَّ.. أن يشجعني.. أفقد أعصابـــي، فأصرخ بشرطي دخـــل علينا، لاعنا أباه، فيفاجأ.. يبدو الحزن على وجه يســـار، ممزوجـــا بالألم، يحمّل نظرته لي عتبا واضحا، ولكنه لا ينبس ببنت شفة لأنه لا يستطيع.. يفهم الشرطي الحالة، فيقول:

- يجب نقله إلى المستشفى فورا، سيدي.

لم أفكر في إجراءات.. لم أعبأ بمسؤوليات، بل صرخت فورا:

- فهلم إذا، هات سيارة.

يغادر الشرطي بسرعة، أنظر إلى يسار.. يبدو هادئا وهو يصرح برفضه للفكرة، بهزات من رأسه.. أقول:

- ولكن.

يرفع يده بصعوبة ليؤكد إصبعه رفضه الفكرة.. لا أهتم لرفضه، أصرخ بأعلى صوتي:

- أين السيارة يا أولاد الكلب؟.

أنظر إليه، يرعبني وجهه الأصفر.. أحاول أن أقول شيئا، تخذلني الكلمات.. تلتقي نظرتانا اللقاء الأخير، ثم يـــرد رأســـه إلى ظهـــر الكرسي، ويزفر روحه بصوت.. كالحشرجة.

تشلّني الفجيعة.. يبقى نظري معلقا بصدره لعله يتحرك.. لعله يشي بأنه يتنفس، ولكنه يأبى ذلك.. أتيقن من موته، فأصرخ ملتاعا.. يتجمع من حولي أفراد الشرطة.. أصرخ:

- لِمَ لَمْ تحضروا السيارة يا (خوات الـ...).

لا يرد عليَّ أحد، بل يتطلعون في وجهي.. يتقدم أحدهم.. يجس نبضه.. يؤكد موته.. أصرخ.. وأصرخ.. وأصرخ.. يظلون مشدوهين، لا يفقهون شيئا من أمري.. يستغربون موقفي.. هم لا يعرفون معنى أن يموت يسار أمامي.. من يعرف ما كان يمكن أن يحصل إذا ما استمرت علاقتنا.. فهو غني وأحبني كثيراً، ومن اين له أن يعرف حقيقتي، هو لا يستطيع أن يعرفها لأنها دفنت نهائيا.. هو مات من دون أن يعرف أني المفوض (عباس محمود زكي).. عباس الجلاد الذي عذبه في مديرية الأمن العامة.. مات، وهو يظنني صديقه لأنه لم يعرف حقيقتي.. ولكن من أين له أن يعرف ذلك وهو لم يرَ وجهي في تلك الأيام، فقد كان معصوب العينين طوال الوقت، وأنا أمارس واجبي، بتعذيبه.. حتى اسمي لم يكن ليعينه على معرفتي.. ولكنه لو عرف أن كنيتي أيامذاك كانت (أبو دفرة) لأشعرته برعب، كما كانت تفعل بأولئك المناكيد الذين كان يضعهم قدرهم، تحت رحمتي.. آه كم كنت أتلذذ برؤيتهم وهم يبللون سراويلهم حينما يسمعون صوتي الهادر.. متَّ يا يسار وأنت لا تعرف أن كل ما حدث لك كان بسبب أن السيد مدير الأمن العامة أراد أن يتزلف للقيادة، فقرر أن يكون للمديرية عملاؤها هناك، اسوة بالمخابرات والاستخبارات.. نعم.. هكذا، لمجرد التزلف.. ألا لعنة الله عليهم.. اللعنة على الجميع.. بل اللعنة عليك.. لِمَ كنت بهذا الغباء.. لِمَ لَمّ تقل لي أنك مريض، لكنت فعلت المستحيل لأنقلك إلى المتشفى قبل

أن تموت.. بل أنا كنت مستعداً لإطلاق سراحك متى شئت، ألا تعرف أنها مجرد مسألة أموال وأنت لديك منها الكثير.. حاولت أكثر من مرة أن المح لك بذلك رغم أني أني عاملتك معاملة الضيف الذي يسليني بعدما ضجرت من طول الليالي التي أقضيها في هذا (المنزول) لوحدي.. والله أنا كنت أحسن حالاً أيام (العرق)، فما الذي ورطني بالصلاة وبلاويها، ولكنها من لوازم المعيشة يا صاحبي.. كانت مهمة بعد أن تهيأت لي الفرصة لأنهم سجنوني في ذلك الوقت، سجنوني بتهمة أخلاقية أولاد الكلب.. ولكن حسنا فعلوا، فلولا ذلك لما كنت هنا الآن.. سجن وانتماء إلى حزب ديني كان كفيلاً بتهيئة كل الظروف لي.. حمداً لله. آه لو تعرف يا يسار كم عشقتك منذ رأيتك لأول مرة وأنت مكبل ومشدود العينين، كنت جميلا جداً، ولولا ضابط التحقيق الذي كان لا يقبل بأي نوع من أنواع الشذوذ لما كان بإمكانك أن تتخلص مما أضمرته لك في تلك الأيام.. لماذا يا رب.. لماذا رفضت أن أقدم له شيئا يمكن أن أخفف به عن نفسي.. وأن أستفيد قليلا.. أمحروم أنا من العفو والغفران يا إلهي.. لا بأس فانا لا أريد منك شيئا.

أهذا كل ما تبقى لي منك يا يسار؟!.. هذه الوريقة التي سقطت من جيبك وهم يحملونك ميتاً.. كيف احتفظت بمثل هذه الوريقة، ولِمَ؟ انها تبدو قديمة جدا وليس فيها إلا بضع كلمات تافهة.. أو ليس هذا السياب شاعر كما يقولون، فأين الشعر في هذا الكلام.. أين ما يسمونها (الطافية) فيه؟!

وريقة!

أحببتُ فيكَ عراقَ روحي أو حببتُكَ أنتَ فيه

يا أنتما، مصباح روحي أنتما – وأتى المساء

والليل أطبق، فلتشعّا في دجاه فلا أتيه

لو جئتَ في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء

الملتقى بكَ والعراقُ على يديّ.. هو اللقاء

(السيّاب العظيم)

صدر للمؤلف

1- الدومينو- رواية- دار الفرقد- دمشق- 2007.
2- كواليس القيامة- نصوص عراقية- دار كيوان- دمشق- 2008.
3- قال الأفعوان- رواية- دار إبللا- دمشق- 2009.
4- يا حادي العيس- رواية- دار فضاءات- عمان- 2010.
5- ڤيرچوالية- رواية- المؤسسة العربية- بيروت- 2012.